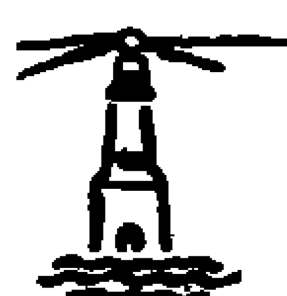


الأديان في القرآن

الدكتور محمود بن الشريف

الأستاذ المساعد بكلية الاقتصاد المنزلى

١٩٧٠



دار المعارف بمصر

الناشر : در المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

« إن الدين عند الله الإسلام »

(من آية ١٩ من سورة آل عمران)

« اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي
رضيت لكم الإسلام ديناً »

(من آية ٣ من سورة المائدة)

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »

(من آية ٨٥ من سورة آل عمران)

الفهرس

صفحة

صفحة

بسم الله والصلاة على الرحمة المهداة
محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم

مدخل :

البشرية . . والدين

مع مولد البشرية كان ميلاد عقلها ، وميلاد عقيدتها . .

وكلما سارت الإنسانية فى طريقها نحو النمو والتكامل صاحبتها عقيدتها فى ذلك الطريق ، يهديها نور النبوات ، وتوجهها رسالات السماء إلى الحق وإلى الله .

ولما كتب الله للبشرية أن تنضج وترقى ، وتعرج فى معارج من الكمال والسمو كتب كذلك للشريعة أن تتدرج فى مجالات النمو والسمو والتكامل والتسامى حتى وصلت كاملة فى النهاية إلى أكمل الخلق وخاتم الأنبياء ورسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » (من سورة المائدة) .

وإذا كانت تعترى الإنسانية فترات ما تبدو فيها أنها طرحت رداء الدين ، أو نضت عنها ثوب العقيدة ، أو عاشت فى فراغ عقيدى أو جدب روحى ، فما ذاك إلا فورة عارضة ، أو نوبة طارئة ، أو لوثة لا تلبث بعدها إلا أن تئوب إلى حظيرة الإيمان وتثوب إلى ساحة الحق .

وما تلك إلا لحظة من لحظات التطاول أو الانحراف الإنسانى سرعان ما تتبدد ،

وتعود بعدها إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . . إلى صبغة الله . . إلى دين الله ، إذ الدين مركوز فى الطباع ، مترسب فى الأعماق منذ الإنسان الأول ، بل منذ الأزل ، منذ الميثاق الأول[١] .

والإنسان حيوان متدين . .

وإذا كان الإنسان – كما يقولون – مدنياً بطبعه ، فهو متدين بفطرته . .

وما كان للبارئ – جلت حكمته – أن يخلق الخلق ، ويوجد البشر ، ثم يتركهم هملا بلا عقل ، ولا عاطفة ، ولا دين . .

فالدين متأصل فى النفوس . .

والاعتراف بالربوبية فى أعماق البشر منذ الأزل . .

والطلائع البشرية التى رادت طريق الإنسانية الأول كان يحدوها إيمان كامل فى الأعماق . . والأمم التى تكاملت حضارتها وأخذت زخرفها وازينت لها مع هذه الحضارة المدنية ، حضارة دينية بعيدة الجذور عميقة الأغوار .

حتى القبائل البدائية المتقوقعة الآن فى الأحراش والأدغال والتى لا تعرف إلا شريعة الغاب والناب تؤمن كذلك بالقوة الإلهية . . « فقبائل الهوتنتوت الأفريقية التى لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ، ولا يزال أناس منها يأكلون

---

(١) لله سبحانه وتعالى مواثيق وعهود وعقود أخذها على الأناسى جميعاً ، ليوفوا بها ويعملوا بمضامينها ، فيضمن لهم الأمن والأمان فى الأولى ، والفوز والنجاة فى الأخرى .

هناك عهد أكبر ، وميثاق ربانى أخذه الله على الناس جميعاً ، وهم فى ظهر الغيب ، وفى ظهور آبائهم ، فى اللحظات الأولى عند بدء الخليقة ، وعند ظهور البشرية ، لتؤمن البشرية بوجوده وتعترف بألوهيته : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا : بلى شهدنا . . »

هذا هو الميثاق الأول ، والعهد العام الذى عاهد به الناس وهم أجنة فى ظهر الغيب . (من ص ٩ من كتاب الشعب الملعون فى القرآن لمحمود بن الشريف) .

لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء[١] » .

فالدين القيم هو « فطرة الله وصبغة الله » . .

وأن الأناسيّ جميعاً خلقوا على هذه الفطرة الدينية ، وعلى تلك الجبلة القائمة على معرفة الله والاعتراف به « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم : ٣٠) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » . .

يقول العقاد : « فى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام » . ثم يقول : « . . حتى لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان . . وحتى لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولا يستقر فى وسط هذه العوالم بغير إيمان ، وهو قد وجد فى وسط هذه العوالم لا مراء ، فإذا كان الإيمان هو الحالة التى يتطلبها منه وجوده ، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل فى الكيان ، وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ »[٢] .

ويقول العالم المؤرخ الدكتور سليم حسن : « دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة — مهما كانت ثقافتهم منحطة — ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه ، ولما كانت السلالات البشرية تضرب بأعراقها إلى عهود قديمة قبل التاريخ فإنه يكاد يكون من المستحيل على الباحث المدقق فى أصول الديانات أن يتتبع الخطوات الأولى التى نهجها دين ما من الأديان القديمة المعروفة لنا من البداية حتى النهاية » .

---

(١) ص ٢٦ من كتاب الله للعقاد .

(٢) ص ٨ من كتابه « الله » .

ويقول العلامة الدكتور دراز [١] « إن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث رغم تفاوتها فى مدارج الرقى ودركات الهمجية ، وأنها أقدم فى المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس » ثم قال : « إن فكرة التدين فى جوهرها ليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان » .

يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى ، وبما فوق الطبيعة ، هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » ويقول : « إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد » .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وآداب وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

وقد عرض الدكتور دراز بعد ذلك آراء الكتاب الأوربيين فى القرن الثامن عشر الذين قالوا إن الديانات نظم مستحدثة وأعراض طارئة على البشرية وناقش هذه الآراء وعرّض بها وقال إنها ترديد ، لصدى قديم كان يردده أهل السفسطة من اليونان الذين زعموا أن الإنسان كان فى أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ولا وازع من خلق وأنه كان لا يخضع إلا للقوة الباطشة ، ثم كان أن وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شىء وتسمع كل شىء وتهيمن على كل شىء

---

(١) فى كتابه الدين ص ٧٥ .

ثم أورد الأسباب التى من أجلها راجت هذه الآراء فى أوربا الحديثة وأرجعها إلى الانحلال الخلقى عند بعض رجال الكنيسة وإلى ظلم القوانين الوضعية وسوء توزيع الثروة العامة .

وعى . . ووحى :

وما كان للحقيقة العقيدية أن تصل إلى الناس كاملة متكاملة فى عصر واحد أو تتجلى لهم على حقيقتها فى مطلع الزمن الأول « فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ، ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال[١] » .

فلا جرم بعد أن كانت البشرية فى مسراها العقيدى تنتابها — فى جميع أطوار تطورها إلى أن بلغت رشدها العقيدى فى عهد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام — نوبات استيقاظ ، وتفتح ، ووعى ، وتطلُّع : تبحث . . وتدرس ، وتنشد المعرفة الحقة ، ولو بعض المعرفة ، وذلك شأن الإنسانية ، وشأن الإنسان فى كل آن . .

فالإنسان ، وهو وليد صغير ، لا يدرى عن عالمه شيئاً ، وكلما نما ونمت مداركه يحاول أن يعرف . . ليصل .

استيقظت العاطفة الدينية لدى البشر ، واستيقظ فكرهم باحثاً منقباً يريد أن يصل إلى الله ، ويأخذ الله بيد العقل ، وبيد البشر ، ويوصلهم عن طريقين :

طريق عقلى بشرى : طريق « الوعى الكونى » طريق البحث والنظر فى ظواهر الكون ومظاهر الطبيعة .

---

(١) ص ٨ من كتاب « الله للعقاد » .

وطريق إلهي : طريق المرسلين من الهداة والدعاة يأخذون بيد المتطلعين والمتشوقين إلى الحقيقة وإلى الهداية ، وإلى الربوبية . . وإلى التوحيد .

يقول الإمام محمد عبده[1] : « إن غرائز البشر — وحدها — ليست كافية فى توجيه أعمالهم إلى مافيه صلاحهم ، فلا بد لهم من هداية أخرى تعليمية تتفق مع القوة المميزة لنوعهم وهى قوة الفكر والنظر ، تلك الهداية التعليمية هى : هداية الرسل منهم والكتب التى ينزلها الله عليهم » .

وفى هامش كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى ص ١٢ تنبيه « على أن العقل لا يستقل فى معرفة كثير من الأمور ، مثل : المعاد الجسمانى ، وأكثر أحوال الآخرة ، وبعض صفات الله ، ووظائف العبادات وغيرها ، ثم قال : ولا شك أن أمر المعاد أهم من أمر المعاش ، وأن حكم العقل فيما يستقل بمعرفته أيضاً لا يكون موثوقاً به فى جميع الأوقات ، لأن العقول متفاوتة ، سيما إذا لاحظنا أن للأمزجة والعادات دخلا فى الاعتقادات ، وأن لكل قوم مشهورات مخصوصة بهم ، مسلمة عندهم ، بل هى فى منزلة البديهيات عندهم ، وغيرهم لا يسلمون بها ، بل يردونها وجوباً .

وكذا إذا لاحظنا أن النفس مسخرة للوهم وله استيلاء عظيم عليها .

ولذا ترى أن أكثر الناس يكونون منهمكين فى أوهام باطلة مدة عمرهم فتشتبه على العقول غالباً المشهورات والوهميات بالأوليات .

فالتفويض فى مثل هذه الأمور إلى العقل مظنة التنازع والتقاتل واختلال النظام . وأن ما لا يدرك حسنه وقبحه قد يكون حسناً فى الواقع يجب فعله ، وقد يكون قبيحاً فيه يجب تركه .

---

(١) فى تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٨٧ .

فالعقل غير كاف ، ولا بد من الاحتياج إلى نبي . . وهذا النبي يعاضد العقل ، ويؤكد حكمه ، ويجعله موثوقاً به فيما يستقل العقل بمعرفته ، مثل : وجود البارى ، وعلمه وقدرته ، فيكونان بمنزلة دليلين على مدلول واحد ، ويرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد الجسمانى ، ويكشف عن وجوه الأشياء التى لا يدرك العقل حسنها وقبحها ، فثبت أن البعثة ضرورية ورحمة للعالمين» .

وقد عقد الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « الإسلام والعقل » فصلا تحت عنوان : « القرآن هاد للعقل » انفرد فيه بالحديث عن موقف القرآن من العقل ، وتبيان صلة الدين بالعقل ، وهداية الدين للعقل فى مناحى السلوك والتشريع وما وراء الطبيعة .

وقال إنه لو ترك الناس وعقولهم فى هذه المسائل فإنهم يختلفون ويتفرقون فرقاً عديدة ويتنازعون ، ولا ينتهى الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام ولا إلى الهدوء والطمأنينة .

ثم قال : « إن القرآن جاء بالحق المعصوم ، الحق العاقل المعقول ، الحق المتزن الموزون ، الحق الذى كل ما عداه باطل .

ولقد تركز الحق فى مسائل الدين بين دفتى هذا الكتاب الموحى ، وفيما أخبر به الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، شرحاً وتفسيراً وإبانة » .

ثم قرر : « أن القرآن دين العقل ، ولا يناقض العقل ، بل هو هاد ومرشد له ، وعلى العقل أن يلجأ إليه فى كل ما أتى به ، وأنه ليس للعقل فى النهاية إلا أن يسجد للوحى الإلهى . . وهو ليس بسجود تعسفى أو تحكمى ، إنما هو سجود مصدره

الإيمان اليقيني بأن هذا من عند الله ، وما دام من عند الله فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

ثم وثّق هذا الاتجاه بقوله : « إن سلفنا الصالح كانوا ينزعون هذه النزعة : نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم وأرواحهم وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ويجعلونه القائد الحكم المهيمن . . وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم في النص إنما هو إنحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشري في النص ، وكانوا يعرفون أن الوحي إنما جاء هادياً للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها أو يقتحم حماها أو يدلي فيها برأي يتفق عليه الناس. وهذه الميادين هي الدين ، والدين ليس رأياً بشرياً ، إنه تنزيل من حكيم حميد ، وكل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص سوى موقف السجود له : إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهياً إلى أن يكون بشرياً ، ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين » .

ودفعاً لما يرد على بعض الأوهام من تساؤل حول قيمة النظر والتفكير ما دام لا طريق أمام العقل إلا الاذعان للنص ،من أجل هذا عرّج الكتاب على منهج الوعي الكوني وخرج فيه برأي جديد وتعليل مستحدث ، فقال : « نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل ، سيقولون : ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكير والتدبر « فاعتبروا يا أولي الأبصار » « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وينعى على المشركين التقليد ، ويتهكم بهم في اتباعهم آباءهم فيتساءل : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (آية ٧٠ : البقرة) . وكثيراً ما نجد الآيات تختم بـ « أفلا تعقلون » « أفلا تفكرون » « أفلا تبصرون » .

وكل ذلك يدل على: أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل .

والواقع أن القرآن لا يستشير الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم الوحى إلى الإنسان باعتبارة حكماً فى أى مبدأ من مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها ، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط ، ذلك أن الوحى نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة : صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا ، إنها الحق الخالص من اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها فقد انحرف ، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله ، ومن تركها من جبار قصمه الله ،لأنها صراطه المستقيم ، ونوره اللألاء .

وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر : إنما أراد به الاعتبار وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير .

أما إذا رأيتم غير ذلك ، فإنما العيب فى بصركم أو بصيرتكم . .

إذا رأيتم غير ذلك : فإن الفساد فى عقولكم وفى تفكيركم

إذا رأيتم غير ذلك : فاعلموا أن فطرتكم قد فسدت لانحرافكم ، وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلّت ، وأن عقولكم قد صدئت فأصبحت لا ترى الحق حقاً ، ولا الخير خيراً ، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً والشر خيراً ، وأصبح أصحابها كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم .

إن الله — فى عظمته وجلاله ، سبحانه — لا يلقى برسالة ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه نفياً أو إثباتاً ، سلباً أو إيجاباً ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره ، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً وإنما ألقاها — سبحانه — لتُتَّبع ، ولتتبع فى خضوع وسجود ، ولتتبع دون حرج يحاك فى

الصدر ، أو شك يجول فى النفس « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً » . وكل من وجد فى نفسه حرجاً من قضايا الدين . . وكل من لم يسلم تسليماً كاملا مطلقاً تاماً ، كل من كان كذلك فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحاً ، وباب الله مفتوح للتائبين .

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله ، فقال : الله ، فقيل له : فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله[1] » .

حملة الدين :

والرسل حملة الدين ، ودعاته ، وهداته . .

إلى الأمم أرسلوا ، وإلى القبائل والشعوب ، وإلى القرى « وما أرسلنا فى قرية من نبى » « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات » (الروم : ٤٧) « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات . . » .

ثم يصدر القرآن حكماً عاماً إلهياً « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »..

وصوت الرسول لا بد أن يصل إلى البشر « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

للأمم جميعاً :

ومن الأقوال الشائعة : إن الشرق وحده مهبط الأديان .

على أن هذا القول على علاقته ، وبدون تحفظ ، أو تقيد ، يكون دليلا

---

(١) ص ١٠٢ من كتاب « الإسلام والعقل » للدكتور عبد الحليم محمود .

على التعصب أو على القبلية ، ويتنافى مع نص قرآنى صريح ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير [١]» .

« ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » (يونس : ٤٧) .

والآية تحكم بأن كل أمة من الأمم ،وكل جماعةمن الجماعات فى الشرق والغرب ، فى كل أرجاء المعمورة أرسل الله سبحانه لها نذيراً وهادياً وموجهاً ومرشداً يقول الله : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله » (النحل : ٣٦) . فإذا ما خصصنا الشرق — وحده — بأنه هو فقط مهبط الأنبياء ومهد الرسالات كان ذلك ترجيحاً بلا مرجح ، وكان ممالأة ، ثم كان فى النهاية مخالفاً مخالفة صريحة للنص القرآنى « لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » « ولكل أمة رسول » .

ثم إن القرآن يقول : « يا بنى آدم أما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. » (الأعراف : ٣٥).

فالنداء الإلهى فى تلك الآية يدل دلالة قاطعة على العموم والشمول لجميع أبناء آدم المتفرقين فى الأرض شرقاً وغرباً ، فى كل بقعة ، فى كل قطر ، فى كل صقع عمره بنو آدم ، جاءتهم رسل على مر العصور والحقب ، رسل منهم ،

---

(١) آية ٢٤ من سورة فاطر . ويرجع إلى ما ذهب إليه أحمد بن حابط الذى تغالى فى تفسير هذه الآية ورد ابن حزم عليه فى ص ٦٩ من كتاب الفصل لابن حزم طبعة صبيح .

ويرجع أيضاً إلى كتاب الدكتور حامد عبد القادر « زاردشت الحكيم » ص ١١٩ الذى قال تعقيباً على هذه الآية : « وربما تكون هذه الآية الكريمة دليلا على أن زاردشت الحكيم كان نبياً أرسله الله إلى قدامى الإيرانيين ، ذلك لأن التاريخ لا يذكر نبياً آخر غير زاردشت أرسل إلى تلك الأمة أى قدامى الإيرانيين ، فتصديقاً لقوله تعالى : وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، أرى أنه من الواجب أن نؤمن بأن زاردشت الحكيم كان نبى قدامى الإيرانيين ورسولا إليهم » .

فرسل الشرق لم ترسل للغرب آنذاك ، بل لكل جماعة شرقية أو غربية رسل وهداة منهم . . ثم كانت الرسالة المحمدية ، العالمية ، للشرق وللغرب ، للعرب وللإنسانية كافة من يوم مبعثه . . إلى يوم الدين .

وتلك ميزة اختصت بها الرسالة المحمدية التي جاءت وقد كمل للبشرية نموها وإدراكها ، فكانت خاتمة الشرائع للعالم كله وللناس أجمعين « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

« وقد اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل بعضهم إثر بعض ، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس ، فيفسقوا أو يضلوا [١] . » مصداقاً لقوله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تترى » (المؤمنون : ٤٢) . كما اقتضت حكمته أن يرسل أكثر من رسول في وقت واحد لأمة واحدة ، كما أرسل موسى وهارون معاً لبني إسرائيل .

والدين اقتضى منا أن نؤمن بهؤلاء الرسل والأنبياء على وجه الإجمال .

كما اقتضى منا أن نؤمن على وجه التفصيل بهؤلاء الذين ورد ذكرهم في القرآن .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » (البقرة : ٢٨٥) .

ومن فرق بين رسل الله فآمن ببعض وأنكر البعض كان كافراً كما قال الله تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » (النساء : ١٥٠) .

---

(١) تفسير المنار .

منهاج عام للرسل :

يقول الله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، وقل رب انزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ، ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره، أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضاً ، وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » .

إن هذه الآيات من سورة « المؤمنون » تؤرخ فى إجمال لحقبة طويلة عريضة من عمر الزمن فيما بعد نوح عليه السلام ، حكمت فيها بأن الله أنشأ قروناً عديده ، وأمماً بادت وفنت ، وأرسل لكل أمة رسولا ، وبعث فى كل قرن نبيًّا ، وتتابعت الرسل وتوالت الدعاة . .

وحددت الآية المعالم وأبانت الأسس فهناك :

دعوة إلهية يطلقها كل رسول . . ودعوة مضادة يعلنها جاحدو رسالته . .

ثم دعوة من الرسول إلى الله للنصرة ، ثم الخاتمة من انتصار الحق وهلاك الكفر .

حددت الآية معالم كل دعوة وركائزها ومسراها ومنهجها ، كما حددت الخاتمة والنهاية ، وحكمت بأن هذه الصورة تكررت فى أمم كثيرة وقروناً عديدة ، لم توضح أسماء الأمم ، ولم تعين أسماء الرسل ، بل أطلقت الحكم واستأثر الحكيم الخبير بعلم ما كان وبدقائق وتفاصيل ما تم ، وما منحنا من الأنباء إلا القليل لنعتبر ونتعظ ، وما كان لنا بعد ذلك أن نتطلب تفصيلا ، وما كان لنا بعد ذلك إلا أن نؤمن ونذعن . على أن الذى يطلب التحديد : تحديد اسم كل نبى أو رسول ، أو تحديد أمكنة النزول للأنبياء والرسل جميعاً ، إنما يتطلب المستحيل ، ويطلب ما يبعث على الشك أو ما يجافى الحق .

ومن هنا يتضح صنيع هؤلاء الكتاب العقائديين ، ولا سيما الذين كتبوا أسفار العهد القديم ومن نحا نحوهم ، فقد تغالوا وتجنوا على الحقيقة والتاريخ عند ما أرخوا للأوادم قبل آدم عليه السلام ، وللإنسان الأول ، وللرسل الذين أرسلوا إليه ، ولأسماء من جاء بعدهم من رسل وأنبياء ، ومهابطهم وأعمالهم وأعمارهم وأزمانهم وأنسالهم .

ثم عددوا أجيالهم المتعاقبة والجهات التى نزحوا إليها والشعوب التى تفرعت منها . ولقد جمح بهم الخيال وتغالوا فى التخيل حينما حددوا الأزمنه بالأيام والأعمار بالأعوام ، فذكروا فى العهد القديم وأسفاره[١] : إنه فى اليوم السابع عشر من الشهر الثانى من سنة ستمائة من عمر نوح اندفعت المياه بالطوفان ، وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر الثانى من سنة إحدى وستمائة لنوح خرج نوح من السفينة .

وأن سام بن نوح عاش ٦٠٠ سنة وارفخشاذ بن سام عاش ٤٦٥ عاماً ، وشالح بن ارفخشاذ عاش٤٣٣ سنة، وعابر بن شالح عاش أربعمائة سنة وأربعاً وستين . . . إلخ .

ومضوا يحددون أعمار وأسماء هذه السلالة حتى وصلوا إلى إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده .

ولا دليل لهم على هذا التوثيق إلا ما خالوه أو تخيلوه . . ! !

إن هناك صفحات مجهولة من تاريخ البشرية ، وسطوراً مطموسة فى سجل الإنسانية قد انبهمت على التاريخ وغمضت على الزمن . .

وأن الذى يؤرخ تلك الحقب — وبخاصة تلك الحقبة التى مر بها التاريخ الأول — لا يأمن الزلل والعثار ، فهو يسير فى مهمه واسع فسيح مترامى الأطراف واسع الجنبات . مهمه حالك مظلم مختلط المشاعب والمسالك ، لا معالم ثابتة ، ولا براهين يقينية . . لا دليل له ، ولا برهان معه ، إلا ما ورد من نص إلهى ، أو قول ثابت صحيح — وما أقله — يقول الإمام محمد عبده[٢] :

---

(١) يرجع فى تفصيل ذلك إلى ص ٩٨ جـ ١ من الفصل لابن حزم .

(٢) جـ ١ ص ٣٤٧ تفسير المنار.

« إنه يجب الاحتراس فى قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء ، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين ، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا أنه لا يوثق بشىء من تاريخ تلك الأزمنة التى يسمونها «أزمنة الظلمات» إلا بعد التحرى والبحث واستخراج الآثار . فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التى لا يوثق بها ، لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك ، بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها ، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته » .

إن القرآن نفسه قد حكم بأن هذه الحقبة التاريخية الواسعة العريضة التى تمتد من بدء الخليقة . . من الطوفان . . أيام نوح وقوم عاد وثمود والذين من بعدهم هى فترة محجبة ، وحقبة مجهولة انفرد المولى سبحانه بعلمها وفى ذلك يقول القرآن :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »(١) .

ويقول القلقشندى فى كتابه : « نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب(٢) » : عند ما تحدث عن ذكر عمود نسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

« والاتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان، وفيما بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام فيه خلاف كثير ، بل وقد منع بعضهم الرفع فى النسب إلى عدنان تمسكاً بأنه ليس وراء عدنان إلى آدم طريق صحيح ، كما صرح به النووى » .

قال القضاعى فى « عيون المعارف فى أخبار الخلائف » : وقد روى أن

---

(١) من آية ٩ من سورة إبراهيم .

(٢) ص ٣٢ تحقيق إبراهيم الأبيارى .

النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ولا تجاوزوا معدّ بن عدنان ، كذب النسّابون ، ثم قرأ « وقروناً بين ذلك كثيراً » ولو شاء أن يعلّمه علّمه .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : إنما ينسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى ما هو . وعن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : « ما وجدنا أحداً يعرف ما فوق عدنان وإسماعيل إلا تخرصاً . ويحكى عن مالك ابن أنس رضى الله عنه أنه سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم عليه السلام فكره ذلك فقيل له ، فإسماعيل ؟ فأنكر ذلك .

أما ما يتفرع عن الأنساب عن عمود النسب النبوى فلا خفاء أن آدم عليه السلام هو أبو البشر ومبدأ النسل ، وما يذهب إليه الفرس من أن مبدأ النسل من « كيومرت » الذى ينسب إليه الفرس فإنه مفسر بآدم عليه السلام عند أكثر المفسرين ، ثم لا نزاع فى أن الأرض عمرت ببنى آدم عليه السلام إلى زمن نوح وأنهم هلكوا بالطوفان الحاصل بدعوة نوح عليه السلام حين غلب فيهم الكفر وظهرت عبادة الأوثان وأن الطوفان عم جميع الأرض . ولا عبرة بما يذهب إليه الفرس من إنكار الطوفان ، ثم وقع الاتفاق بين النسابين والمؤرخين أن جميع الأمم الموجودة بعد نوح عليه السلام جميعهم من بنيه ، دون من كان معه فى السفينة ، وعليه يحمل قوله تعالى : « ذرية من حملنا مع نوح » .

ويقول المقريزى فى الجزء الأول من تاريخه :

« إننا نقطع أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أنتم فى الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود أو الشعرة السوداء فى الثور الأبيض » .

وأخيراً فلا مستمسك لنا فى هذا المجال إلا حديث القرآن وتاريخ القرآن « فإن أرخنا من القرآن فإنما نؤرح الحق ، ونؤرخ للحق بالحق ، كما قال الله الحق : نحن نقص عليك نبأهم بالحق » .

حول معنى كلمة « الدين »

خلافات عدة ثارت عجاجتها حول المعنى المراد الوضعى لكلمة « دين »..

فالدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « الدين » :

أثبت أن المعاجم اللغوية لا تضع أيدينا على المعنى اللغوى المراد بمفهومه الدقيق لتعريف كلمة الدين . وأنها إنما تكشف لنا فحسب عن الوجوه المتشعبة لمعانى هذه الكلمة ، والتمس لهذه المراجع المعجمية العذر فى أن مهمتها هى ضبط الألفاظ لا تحديد معانيها فلها العذر إن هى فى بعض الأحيان عرفت الشىء بنفسه أو بضده ، فتقول : الدواء : ما يتداوى به : والحلال : ضد الحرام .. وهكذا . .

وقال إن الذى يرجع إلى معنى كلمة « دين » فى القاموس المحيط أو فى لسان العرب أو غيرهما ، يجد عديداً لها من المعانى المتباعدة ، بل المتناقضة ، فالدين : هو الملك ، وهو الخدمة ، هو العز هو الذل هو الإكراه هو الإحسان هو العادة هو العبادة هو القهر والسلطان هو التذلل والخضوع هو الطاعة هو المعصية . . إلى آخر ما أورد من استعمالات .

ثم حكم فى النهاية أن مادة كلمة دين لغوياً تدور كلها على معنى لزوم الإنقياد .

أما فى العرف والاصطلاح عند الإسلاميين فقال : « إن الدين وضع إلهى

يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات » .

ومن حديث الدكتور عبد الحليم محمود عن جوهر الشخصية الإسلامية فى كتابه « الإسلام والإيمان » نخرج برأيه فى تعريف معنى الدين ، فقد قرر أن التعريف الصادق للدين : هو إسلام الوجه لله وأن إسلام الوجه لله هو التوحيد .

قال فى ص ٢٧ من ذلك الكتاب : « إن الدين وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام ، كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً ، وكلها مطلقة عامة لا يحدها زمان ولا مكان ، وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها فى جرسها وفى كمالها : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

أما المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق فقد عرض فى كتابه : « الدين والوحى والإسلام » عدة تعاريف عديدة لمعنى كلمة الدين وفى النهاية تحدث عن المعنى الشرعى لكلمة « الدين » فقال : إن القرآن قرر فى أمر الدين أصولا جعلت للدين معنى شرعيًّا خاصًّا ، « فالدين » لا يكون إلا وحياً من الله لأنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله . .

وهذا الدين الذى يوحيه الله لأنبيائه هو واحد لا يختلف فى الأولين والآخرين. هذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات القرآن « بالإيمان » وعن أهله « بالمؤمنين » « والذين آمنوا » .

والإمام محمد عبده يقول فى ص ١٢١ من تفسيره جزء « عم » عند قوله تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين » ، قال : إن المراد بالدين هنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل ، وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه الأنبياء .

كما أورد فى ص ٥٥ من تفسير المنار ج ١ الأوجه اللغوية المتباينة التى تطلق على معنى كلمة الدين .

وعن تعريف الدين قال فى ص ٦٩ ج ٢ تفسير المنار :

الدين وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ولا يصل إليه بتلق ولا تعلم « إن هو إلا وحى يوحى » .

* * *

وسنضرب صفحاً هنا عن التعريفات التى عرفها المستشرقون لكلمة الدين ، لعدم تمكنهم فى فهم أسرار اللغة العربية ، وعدم مقدرتهم على التذوق اللغوى والوضعى، فإننا هنا لا نعرض لتعريفاتهم المختلفة . .

ومن أراد الرجوع إلى آرائهم فى هذا الصدد ، فليرجع إلى كتاب الدكتور دراز « الدين » وكتاب الدكتور مصطفى عبد الرازق « الدين والوحى والإسلام » وما نقله عنهما الدكتور فتح الله بدران وما عقب به على آرائهما فى كتابه « المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب » ص ٧٧ وما بعدها .

فطرية التوحيد

هل تطورت العقيدة الإلهية ، فكان التوحيد هو خاتمة المطاف فى رحلة البشر العقيدية ؟ أو كان هو منبعها وأساسها وأصلها الأصيل ؟

وهل كان بداية التدين خرافات وأوهاماً ثم أوثاناً وتعدد آلهة إلى أن كان التوحيد نهاية تلك الأطوار ؟

يقول الدكتور دراز فى كتابه « الدين » ص ١٠٢ :

« انقسم الباحثون فى الموضوع إلى شعبتين عظيمتين ، تسيران فى خطين متعاكسين :

ففريق منهم يذهب إلى أن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته ، حتى زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد » عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى .

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب « التطور التقدمى أو التصاعدى » الذى ساد فى أوربا فى القرن التاسع عشر فى أكثر من فرع من فروع العلوم. وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم سبنسر وتيلور وفريزر ودوركايم وغيرهم، وإن اختلفت وجهات نظرهم فى تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها .

وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر ، مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

وهذه هى نظرية « فطرية التوحيد وأصالته » التى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، ومن أشهر مشاهيرهم لانج الذى أثبت وجود عقيدة « الإله الأعلى » عند القبائل الهمجية فى إستراليا وأفريقيا وأمريكا ، ومنهم « شريدر » الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، و « بروكلمان » الذى أوجدها عند الساميين قبل الإسلام و « لروا » و « كاترفاج » عند أقزام أواسط أفريقيه ، و « شميث » عند الأقزام وعند سكان أوستراليا

الجنوبية الشرقية ، وقد انتهى بحث « شميدث » هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية .

ثم ساق الدكتور من الأدلة المنطقية والبراهين الموضوعية ما نقد به المذهب التطورى وأثبت أن التحليل النفسى وشواهد التاريخ والتطور الصحيح لا يقف شىء منها فى صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية والتى تجعل الخرافة والأسطورة هى بداية الأديان .

ويقول الدكتور جواد على فى ص ٦٠ جـ ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » : « . . ورأى رجال الدين أن الناس كانوا أمة واحدة فى الدين ، وكانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلو فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين .

أما غيرهم من العلماء الذين يستندون إلى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل : علم النفس وعلم الاجتماع ، فيرون أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالقياس إلى ظهور الوثنية والشرك ، ظهرت بعد أن توسعت مدارك الإنسان فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا فى الأشياء التى عبدها لم يكن سوى وهم وخداع وصار يقتصد فى الشرك إلى أن اهتدى إلى عبادة الله ».

والأستاذ العقاد تحدث فى كتابه « الله » ص ٢٣ وما بعدها عن أطوار العقيدة الإلهية وساق رأى علماء المقابلة بين الأديان الذين حددوا أطورا ثلاثة عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهى : دور التعدد ، ثم دور الترجيح ، ثم دور التوحيد ، وقال إن التطور فى الديانات محقق لا شك فيه ، ولكنه لم يكن على سلّم واحد متعاقب الدرجات .

ثم أورد رأى علماء المقابلة من أن التوحيد هو نهاية تلك الأطوار كافة .

يقول فى ص ٢٣ : « . . أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى ، فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلو على الإلهة قدراً وقدرة وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضاءل ، وتخفت ، حتى تزول أو تحتفظ ببقائها فى زمرة الملائكة التى تحف بعرش الإله الأعلى .

لكن الأديان الكتابية — بعد كل هذا — هى التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه ، وعلمت الناس شيئاً فشيئاً عبادة الإله « الأحد » الذى خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته كل موجود فى السموات والأرض ، ولم يكن له شريك فى الخلق ولا فى القضاء » .

كما قرر فى النهاية رأى هؤلاء العلماء من أن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، قال فى ص ٣٢ :

« فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة ، فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن الكريم : « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونّى فى الله ، وقد هدانِ ، ولا أخاف ما تشركونِ به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون » .

واستدلال العقاد بهذه الآية الشريفة السابقة يومئ إلى أنه يجنح إلى هذا الرأى الغربى وإلا لما استدل عليه بالآية الشريفة ، ولما قال قبيلها « وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم ». . ! !

وفى يقينى أن هؤلاء الذين يقولون إن إبراهيم عليه السلام كان متحيراً بادئ ذى بدء فى الاهتداء إلى الحق قد جانبهم التوفيق ، لأنهم أخذوا بظاهر هذه الآية واستدلوا بها على أن إبراهيم كان يريد أن يصل إلى المعرفة ، ففكر ، ونظر ، وقارن . . ثم هداه الله فى النهاية ، والواقع أن مفتتح هذه الآية ومختتمها ، ومسراها كلها يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يقدم الدليل المحسوس لقومه على بطلان عقيدة الشرك فاستدرجهم بهذا القول ليسلمهم فى النهاية إلى التسليم بالوحدانية .

فاستهلال الآية ينعى فيه إبراهيم على أبيه وقومه شركهم وضلالهم ، وكيف ينعى عليهم عقيدتهم هذه ، وهو لما يصل بعد إلى العقيدة التى يطمئن إليها كل الاطمئنان ؟ !

ومختتم الآية اعتراف بالربوبية والوحدانية لفاطر السموات والأرض .

يضاف إلى ذلك أن الله أتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض فهداه وعصمه ، فلم يكن الأمر إذن إلا أمر مجاراة واستدراج .

كان الأمر كما قال الشهرستانى : «[1] ابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة ، كما قال تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » أى كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة ، فساق الالزام على « أصحاب الهياكل » مساق الموافقة فى المبدأ ، والمخالفة فى النهاية ، ليكون الإلزام أبلغ

---

(١) فى كتابه «الملل والنحل» .

والإفحام أقوى ، وإلا فإبراهيم الخليل لم يكن فى قوله : «هذا ربى» مشركاً ، كما لم يكن فى قوله : «بل فعله كبيرهم هذا» كاذباً» .

وأخيراً : فإننا نرى أن كلمة «تطور» كلمة دخيله فى هذا المجال العقيدى، فالعقيده الإلهية واحدة وهى : الوحدة والتوحيد . أما التطور فإنما الذى يوصف به فى الحقيقة إنما هم البشر بالنسبة للعقيدة أو موقف البشرية بالنسبة للعقيدةالإلهية، فالبشرية مرت بأطوار كان لكل طور فيها تشريع إلهى يناسبها فى الفروع .

أما الأصول العقيدية فكانت واحدة فى كل دين ، وفى كل وقت منذ منشأ الإنسان الأول إلى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فليس هناك حضارة عقيدية ، ولكن هناك تشريع حضارى أو حضارة تشريعية وتقنين إنسانى وقانون اجتماعى .

لم يكن التوحيد هو نهاية الأطوار ، بل هو البدء والختم .

التدين[1] حتمية اجتماعية

وإذا كان الدين فطرة إنسانية . . فإنه كذلك ضرورة اجتماعية . .

فلا بد لدنيا الناس من دين الله ، يوجه دنياهم ويأخذ بأيديهم لما فيه فلاح الفرد وصلاح المجتمع .

« إذ ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها فى كفالة إحترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه . السر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره

(١) التدين والدين بمعنى واحد من حيث الاستعمال (يرجع إلى ص ٢٥ من كتاب الدين للدكتور دراز) .

ولا يوضع فى يده ولا عنقه ، ولا يجرى فى دمه ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه. وإنما هو معنى إنسانى روحى ، اسمه الفكرة والعقيدة .

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها .

هذا الرأى الماركسى هو قبل كل شىء نزول بالإنسان عن عرش كرامته . ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة فى سلوك الأفراد والجماعات فى كل عصر ، فإنه ، لكى يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة ، فالإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء، وإن فسدت فسد كل شىء .

أجل ، إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدنية فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الأكمل ، فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية : لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام ، والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى ، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد . ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان .

غير أن الإيمان على ضربين : إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية وما إلى ذلك من المعانى المجردة التى تستحى النفوس العالية من مخالفة دواعيها، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية .

وإيمان بذات علوية ، رقيبة على السرائر ، يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياء منها ، أو بمحبتها ، أو بخشيتها . . ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية ، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف ، وأسرعهما نفاذاً فى قلوب الخاصة والعامة .

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية .

وأنت فهل عسيت أن يخالجك شيء من الشك فى مدى حاجة الجماعة فى مختلف الأمم والشعوب إلى ازدهار هذا الروح الدينى فيها ؟ وهل غرك أن دولا كثيرة أسست نهضتها فى عصرنا هذا على غير الدين ، وقد استتب النظام فيها ومكن لها فى الأرض ؟

إننا لا نريد أن نسبق الحوادث ، وأن نتنبأ بمصير هذا البنيان الذى أسس على غير تقوى من الله ورضوان .

ولكننا نحب أن نقدم لك نموذجاً ، لا من أقوال رجال الدين ، بل من أقوال أقطاب العلم وزعماء السياسة وقواد الحرب فى تلك الدول نفسها ، فاستمع إلى قول « روبرت ميليكان » العالم الطبيعى الأمريكى : « إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق ، ولقد كان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة ، وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه ، أو لتقويته فلن يبقى

للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية » .

وقول الدكتور ويلسن الرئيس السابق للولايات المتحدة بأمريكا :

« وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني فى جميع مسامها . . ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ، ومنظماتنا السياسية ، وأصحاب رءوس أموالنا ، وكل فرد خائف من الله محب لبلده » .

وقال الماريشال « فيليب بيتان » عاهل الدولة الفرنسية فى خاتمة خطابه الذى أذاعه على أمته فى يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٠ عقب توقيع الهدنة التى التمسها من زعيم ألمانيا المنتصرة : « إننى أدعوكم أول كل شىء إلى نهوض أخلاقى » .

وقول الماريشال مونتجومرى فى خطبته أمام الجيش الثامن فى يوم ٤ مارس سنة ١٩٥١ :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى ، ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه ، ويقينى أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى . إن خطر الانحطاط الخلقى فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء » .

* * *

إن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحد ، فليست كل مهمتها أنها المبعث القوى لتهذيب السلوك وتصحيح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ومقاومة الفوضى والفساد ، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً فى كيان الجماعة ، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ،

لا يعقدُ له رباط آخر من الجنس أو اللغة ، أو الجوار ، أو المصالح المشتركة .

بل إن هذه العلائق مجتمعة ، مهما يكن أثرها الظاهرى من كف الأذى وبذل المعروف المتبادل ، تظل روابط سطحية تضم الأفراد كما تضم الأعواد فى ضغث ، ولا تزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية . . حتى تشدها رابطة الإخوة فى العقيدة ، والمشاركة فى المثل العليا ، فهنالك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة ، تنعكس صور بعضها فى بعض ، بل كثيراً ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى ، فتنعقد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم .

وكثيراً ما نرى الدول التى تقوم على قاعدة المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجاد بما فى هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير ، والتناصر على دفع عدوان المغيرين .

ولذلك قيل بحق : إن الوطنية التى لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هى حصن متداع يوشك أن ينهار .

وجملة القول إن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد ، وأن الذى يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب وأطوار المدنيات »[1] .

---

(١) من صفحات ٩١ إلى ٩٥ من كتاب « الدين » للدكتور دراز .

دين الله واحد

أساس التدين الفطرة ، وأساس الفطرة التوحيد . .

والتوحيد قديم منذ الأزل ، هو أساس كل دين نزل على كل رسول ونبى . .

ويقرر الإسلام أنه دين الفطرة دين التوحيد الذى أوحى إلى كل رسول ونبى . .

يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أبناءعلات » يريد : أننا كأبناء أمهات مختلفات ، ثم يبين ذلك فيقول : « ديننا واحد وشرائعنا مختلفة » .

فدين الله واحد منذ الأزل إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين « إن الدين عند الله الإسلام » .

الدين منذ القدم هو دين الإسلام « هو سماكم المسلمين من قبل » من قبل مبعث محمد ، ومن قبل مبعث إبراهيم الإسلام دين الجميع .

سمى الله منذ الأزل « مسلماً » كل من اعتنق أسس هذه الديانة ، ديانة الله وسارعلى مضامينها من : إسلام الوجه لله ، وإنقياد له ، وتوكل عليه وتسليم الأمر لمدبِّر الأمر ومصرف الكون .

ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد فى عهد محمد أو من بعده فحسب ، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذى بعث فى زمنه ، وبكل من وحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين .

والمسلم فى عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وحد الله من الأزل حتى اليوم .

والمستتبع لآى القرآن يجد « هو سماكم المسلمين من قبل » « فإن أسلموا فقد اهتدوا » .

ويجد أن كل شريعة قامت على التوحيد :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

وكل رسول أرسل أو نبيّ بعث إنما دعا إلى الله وإلى دين الله . . ودين الله واحد ، حقيقته التوحيد وجوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير .

« إن الدين عند الله الإسلام » .

ما من رسول قبل محمد سيد البشر وخاتم الرسل إلا كان مسلماً ، كما أخبر الله بذلك : قال نوح « وأمرت أن أكون من المسلمين » (يونس : ٧٢) .

وقال إبراهيم :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (البقرة : ١٢٨)

وقال تعالى :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . (البقرة : ١٣٢)

وقال تعالى عن يوسف الصديق :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات

والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .
(يوسف : ١٠١)

وقال موسى :

« يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » (يونس: ٨٤)
وقال السحرة لفرعون :

« وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » (الأعراف : ١٢٦)

وقالت بلقيس ملكة اليمن :

« رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . (النمل ٤٢)
وقال تعالى عن أنبياء بنى إسرائيل :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا» .
(المائدة : ٤٤)

وحواريو عيسى كانوا مسلمين :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (آل عمران : ٥٢)

« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون » (المائدة : ١١١)

أما محمد صلى الله عليه وسلم أمير الأنبياء وخاتم المرسلين فقد قال :

« وأمرت لأن أكون أول المسلمين » . (الزمر : ١٢)

ثم تسوق سورة فصلت هذا المبدأ الإسلامى للمسلمين جميعاً :

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

من هذا يتضح أن الإسلام نزل مجزءاً على الأنبياء والرسل ؛ ثم كاملا على خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن محمداً لم يأت بدين جديد مستقل ، وإنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة ، وليهدى الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذى أرسل الله به سائر الرسل والذى كمله محمد وأتمه الله تعالى على يد محمد بما جعله ديناً أزلياً للناس كافة إلى يوم الدين .

* * *

وفى هذا المجال تحدثت كتب كثيرة منها :

تفسير المنار جـ ١ ص ٦٧ ، ٤٧٧ .

الجواب الصحيح لابن تيمية ص ٤٠ جـ ٢ .

كتاب دين الله واحد للشيخ محمود أبو رية .

كتاب الإسلام دين عام خالد لمحمد فريد وجدى ص ١٠٩ .

كتاب الدعاء فى القرآن لمحمود بن الشريف ص ٤١ ، ٤٢ « سلسلة اقرأ »

كتاب دين الله فى كتب أنبيائه لمحمد صدق .

* * *

الباب الأول

عقيدة الشرك

والدين باعتباره : العبادة المطلقة ، والإعتقاد المطلق ، والإذعان والتسليم حُق لنا أن نتحدث عن الشرك هنا باعتباره إعتقاداً أو عقيدة أو ديناً أرضياً ، أو منهجاً عقيديا حاربه القرآن فى كل سورة من سوره ، وحمل عليه ، وناهضه حتى كتب الله لعقيدته الغلبة والنصر والإنتشار .

كانت دعوة التوحيد أول صوت عقيدى يدوّى فى دنيا البشر . .

وفى عالم الذرّ قبل الوجود ، وقبل آدم ، أخذ الله على الآدميين جميعاً عهد الإعتراف بربوبيته والإيمان بألوهيته[1] .

وكتب الله بذلك للوحدانية أن تسبق الشرك . .

وأن تكون عقيدة التوحيد هى الأولى . . وهى الأصل ، ثم أطلت الوثنية برأسها ونفثت سمومها ونشرت عروقها فى أرض الإيمان عندما نسيت الإنسانية تعاليم الحق ومفاهيم السماء ، فانتابت عاطفتها الدينية إنحرافات وتمكنت منها أوهام وخرافات .

وما تلبث أن تنتعش الإنسانية على رشفات من رحيق إلهى يقدمها رسول أو نبى أو داعية ، فتخرج من ظلام الكفر إلى ظلال الإيمان ، وتفىء إلى النور وإلى الحق ، والله هو الحق المبين .

ولهذا كان تيار الوثنية فى المحيط العقيدى مؤرجحاً بين المد والجزر ، بين

---

(١) يرجع إلى المدخل تحت عنوان « البشريه والدين » .

الإطواء والإنطواء ، بين الإمتداد والإنحسار ، يخبو كلما ظهر فى دنيا الناس رسول يدعو إلى دين الله ، أو نبي يجدد دعوة التوحيد فى النفوس ، أو داعية يأخذ بيد الأناسيّ إلى حظيرة الإيمان ، ويشرق سنا التوحيد ، وتخف صولة الشرك ويخفت صوته ، وتنضو النفوس عنها ثوب الإشراك وتصحو الروحية وتصفو للإشراق . .

وأتى على الوثنية العالمية حين من الدهر كان صوتها يدوى فى آفاق عدة :

فى مصر يزأر فرعون « أنا ربكم الأعلى » ويخر ذو العقل للعجل تقديساً واستسلاماً ! !

وفى فارس تتطاول ألسنة اللهب فتتطامن جباه عبدة النار ويخرون للأذقان ساجدين صاغرين .

وفى اليونان آلهة الأولمب ، وفى روما . . وفى بابل . . والصين . . والهند . . تضرب الوثنية جرانها على هاتيك المناطق العالمية فى أحايين متفاوتة .

الوجود التاريخى :

على أن الباحث المحقق لا يستطيع أن يحدد فى ثقة ويقين تاريخ بدء الوثنية العالمية ومسراها ، ومتى نشأت ، وكيف انتشرت وفى أى المناطق هشّت أو عزت .

ولا نملك إلا أن نعرض فى هذا المجال بعض ما ارتآه الأقدمون من الباحثين فى هذا الصدد ، يقول أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى [1] فى كتابه «الأصنام» ص ٥٠ :

« أول ما عبدت الأصنام : أن آدم ، عليه السلام ، لما مات جعله بنو « شيث » ابن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم بأرض الهند . .

---

(١) يرجع فى ترجمته وتصانيفه إلى كتاب الأعلام لخير الدين الزركلى ج ٣ ص ١١٢٥ .

وكان بنو شبيث يأتون جسد آدم فى المغارة ، فيعظمونه ، ويترحمون عليه ..

فقال رجل من بنى قابيل بن آدم : يا بنى قابيل ، إن لبنى شيت دواراً يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شيء ،فنحت لهم صنماً ، فكان أول من عمل الأصنام .

ثم قال أبو المنذر : « كان » « ودّ » و « سواع » و « يغوث » و « يعوق » و « نسر » كانوا قوماً صالحين ، ماتوا فى شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل :

« يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا نعم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ، ويسعى حوله ، حتّى ذهب ذلك القرن الأول ، ثم جاء قرن آخر ، فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول .

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث ، فقالوا : ما عظّم أولونا هؤلاء إلاّ وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم ؛ وعظم أمرهم ، واشتد كفرهم ، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام ، فدعاهم ، فكذبوه ، فرفعه الله إليه مكاناً عليا ، ولم يزل أمرهم يشتد حتّى مجىء نوح عليه السلام . فبعثه الله إليهم نبيا ، وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة ، فدعاهم إلى الله فى نبوته مائة وعشرين سنة ، فعصوه ، وكذبوه ، فأمره الله أن يصنع الفلك ، ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة[1] ، وغرق من غرق ، ومكث بعد ذلك ٣٥٠ سنة ، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها ، وكان بين آدم ونوح ٢٢٠٠ سنة ، فأهبط ماء

---

(١) لعله اعتمد على: ما ورد فى التوراة (سفر التكوين) من أن الطوفان ابتدأ فى السنة الأولى بعد ستمائة سنة من ولادة نوح عليه السلام .

الطوفان هذه الأصنام بشدة من جبل « نوذ » بالهند . . إلى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض « جدة » ثم نضب الماء ، وبقيت على الشط ، فسفت الريح عليها حتى وارتها ».

تاريخ الوثنية العربية :

كان العرب على دين ابراهيم ، وإسماعيل ، وعلى دين من بعثه الله فيهم من أنبياء ، لعاد ، ولثمود ، ولمدين .

فقد بعث الله هودا لعاد ، وكانت ديارهم بالدوّ والدهناء (جنوبى الحجاز). وبعث صالحاً لثمود ، وكانوا يسكنون بالحجر ، ووادى القرى (بين الحجاز والشام) وبعث شعيبا لمدين (بأطراف الشام مما يلى الحجاز) .

فكان العرب موحدين يؤمنون بدعوة التوحيد التى دعا إليها هؤلاء الأنبياء وغيرهم فى البلدان العربية . .

ويحدثنا أبو المنذر الكلبي عن نشأة الوثنية فى مكة ، فيقول ص ٦ من مرجعه السابق :

« إن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، لما سكن مكة ، وولد له بها أولاد كثير ، حتى ملأوا مكة ، ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا فى البلاد . . وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم لكعبة ، تيمنا منهم ، وصبابة بالحرم ، وحباً له .

وهم بعد ، يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ، ويعتمرون على إرث إبراهيم

وإسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه. واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا (استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها ، من : تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ، ومزدلفة ، وإهداء البدن ؛ والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكان أول من غيّر دين إسماعيل : فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية : « عمرو بن ربيعة » وهو : لحى بن حارثة بن عامر الأزدى ، وهو أبو خزاعة أى : سيد « خزاعة » (وهو الذى قاتل جرهم حتى أخرجهم من حرم مكة ، واستولى عليها وتولى حجابة البيت) .

وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة . .

فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهما ببنى إسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم من البلاد وتولى حجابة البيت بعدهم . .

ثم أنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : أن بلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ، فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو . . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة » .

وتقول بعض الروايات [1] : « أنه كان له رئى من الجن ، وكان يكنى

---

(١) ويرجع فيها إلى كتاب الأصنام للكلبي ، وإلى ص ٧٥ من كتاب الأستاذ جواد على جـ ٥ تاريخ العرب قبل الإسلام .

« أبا ثمامة » فقال له : عجّل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة .

قال : جير ، ولا إقامة .

قال : إيت ضفّ جدّة ، تجد فيها أصناماً معدّة ، فأورِدها تهامة ولا تهاب[1] ، وادع العرب إلى عبادتها تجاب .

فأتى شط جدة فاستثارها ، ثم حملها ، حتى ورد تهامة ، وحضر الحج ، فدعا العرب إلى عبادتها » .

ويقول صاحب كتاب أديان العرب فى الجاهلية ص ١٢٩ :

« وأول من أدخلها (أى الأصنام والأوثان) إلى مكة وما جاورها « عمرو بن لحى » سيد خزاعة ، ذلك أن « جرهما » كانوا قد طغوا فى الحرم ، وظلموا ، واستحلوا منه أموراً عظاماً ، فأرسل الله إليهم « خزاعة » حين أجلاهم سيل العرم من بلادهم ، فطردوا « جرهما » منه ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فشفى ذلك صدور أهل الحرم ، وفرحوا بانتصار خزاعة على جرهم .

وربما ظنوا أن الله قد أرسلهم اليهم ليخلص أهل حرمه من جورهم . .

وكان رئيس خزاعة « عمرو بن لحى » فتولى سدانة البيت ، ودانت له العرب ، واتخذوه « ربّاً » لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة ..

وكان فوق ذلك قد ملكهم بإحسانه ، فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكان يطعم الحجيج السويق .

فدعاهم لعبادة الأوثان ، وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها ، بما كانوا يعظمونه من حجارة الحرم ، فأجابوه » .

ثم يمضى المؤلف قائلا :

---

(١) والأصح لغوياً أن تكون « ولا تهب » لوقوعها مجزومة فى جواب الأمر ، وكذلك كلمة تجاب الأصوب لغوياً أن تكون « تجب » .

« وقد نص الشهرستانى فى « الملل والنحل » أن « عمرو بن لحى » وضع الأصنام فى البيت فى أول ملك « سابور » ذى الأكتاف .

وتاريخ دخول الوثنية فى الحرم يرجع لتولى « عمرو بن لحى » الحرم حين نزوحه مع خزاعة وتغلبه على جرهم عام سيل العرم[١] ، وسيل العرم وقع قبل الإسلام بعدة قرون .على أن الدكتور جواد يرى أن « عمرو بن لحى » قد عاش قبيل الإسلام ، لا قبل الإسلام ، فهو يقول فى ص ٧٥ ج ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » :

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم « عمرو بن لحى » فى قصة انتشار عباذة الأصنام فى جزيرة العرب إقحاماً من غير أساس ، فلا بد أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأوثان عند الجاهليين ، ولابد أن يكون من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام ، لا قبل ذلك ، كما يدعى الإخباريون ، فما كان خبره ليصل إليهم على هذا النحو لو كان زمنه بعيداً عنهم البعد الذى تصوروه .

وأرى من وصف الاخباريين له أنه كان حاكماً ، وكان كاهناً . والظاهر أن الحاكم الكاهن ثبت حكمه على مكة سياسياً ودينياً بسيطرته على السلطتين ، وقد أراد أن يمكن لحكمه فاستورد أصناماً متقنة الصنع من الخارج : إما من الشام عن طريق البلقاء ، وإما من جدة عن طريق البحر ، فوضعها فى مكة فكان لصنعها المتقن ولمهارة الفنانين فى صنعها أثر فى نفوس المتدينين جعلهم يروون ذلك لمن جاء بعدهم ، فصارت القصص مبدأ لعبادة الأصنام عند العرب أجمعين . و « عمرو بن لحى » هو على اختلاف الروايات أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأصنام ، وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى ،

---

(١) قال حمزة الأصفهانى : أن هذا السيل قد حدث قبل الإسلام بأربعمائة سنة (فى القرن الثالث الميلاد) وقال ابن خلدون أن السد تهدم فى أيام حسان بن تبان (أى فى القرن الخامس الميلادى).

وقد نسب إليه كلام طويل ،وزُعم له عمر مديد وقصص أخرجه من عالم الواقع إلى عالم القصص والأساطير . ورجع عصره إلى أيام « سابور » ذى الأكتاف . وذكر أن العرب جعلته « ربًّا » لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو فى الموسم فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكان يلت لهم السويق على صخرة « اللات » إلى غير ذلك من قصص يروونه عنه » .

ثم يقول فى الجزء السادس من كتابة السابق ص ٢٨٩ :

« ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً من قحطان وعدنان كانوا قبل عمرو بن لحى موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه .

فلما جاء « عمرو بن لحى » أفسد العرب ونشر بينهم أضاليل عبادة الأوثان بما تعلمه من وثنى بلاد الشام حينما زارهم وحل بينهم فكان داعى الوثنية عند العرب ، والمبشر بها ، ومضللهم الأول ، وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل ومقسمها عليهم .

فكان من دعوته تلك عبادة الأصنام .. إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل . . إلى دين إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

زارع الأصنام :

إذا كان للدعوات الإلهية أنبياء يدعون ويوجهون ويرشدون العباد إلى عبادة رب العباد ، فكذلك للدعوات الشيطانية ، دعاةٌ يدعون إلى أبوب جهنم وإلى عبادة الطواغيت والأوهام ، وإن جاز أن يكون للوثنية العربية نبي ، فهو « عمرو ابن لحى » .

استورد الأصنام من بلاد عدّة وزرعها فى أرض الجزيرة العربية . .

وأقدم صنم – كما يقولون – « مناة » قدم به عمرو بن لحى من « البلقاء » من أرض الشام إلى مكة ونصبه حول الكعبة .

و « هبل » قدم به عمرو من « مأرب » فنصبه بمكة فى جوف الكعبة وأمر الناس بعبادته . وجعل الصنم « يعوق » إلها لقبيلة « همدان » ، وخصص الصنم « يغوث » لقبيلة « مذحج » ومن والاها ، ودعا « ثقيفا » لعبادة « العزى » (وكانت العزى ثلاث شجرات نخل) وفى الطائف دعا أهلها إلى عبادة وتقديس الصخرة المربعة المسماة بـ « اللات » .

قال ابن عباس رضى الله عنه : « إن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مر ويلت سويقهم ، وكان ذا غنم فسميت الصخرة « اللات » فلما فقده الناس قال لهم « عمرو بن لحى » : إن ربكم اللات قد دخل فى جوف الصخرة فاعبدوها » .

لذا قال أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أن عمرو بن لحى أول من غير دين إسماعيل ، وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى » .

أجساد الأصنام :

وكما كانت العزى ثلاث نخلات ، كانت مناة صخرة ضخمة مربعة . .

وكان « هبل » من عقيق أحمر ، وكانت هنالك آلهة أخرى من حجارة صماء ، أو صخر صلد ، أو نحاس قال أبو رجاء العطاردى :

« كنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه

ثم طفنا به ، وكنا نعمد إلى الرمل ، فنجمعه ، ونحلب عليه ، ونعبده ، وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه » .

وقد اتخذت بنو حنيفة صنماً من حيس (عجوة) فعبدوه دهراً طويلا ثم أدركتهم مجاعة ، فأكلوه ، وفيه يقول الشاعر :

أكلت حنيفةُ ربها ... زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة

وعند صنم « سعد » بساحل « جدة » أقبل رجل من قبيلة كنانة التى كانت تعبد ذلك الصنم ومعه ابل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت منه ، وذهبت فى كل وجه ، وتفرقت عليه ، وأسف ، فتناول حجراً ، فرماه به وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ! ' أنفرت علىّ إبلى . . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعو لغىّ ولا رشد

العاطفة الدينية فى العقيدة الوثنية :

وعلى الرغم من هذه العقيدة الوثنية ومظاهرِها ، وحفاظهم عليها . . على الرغم من ذلك كله ، فقد كانت العاطفة الدينية هشّة فى نفس العربى ، ضحلة فى فؤاد الوثنى الجاهلى ، فكيف يكتب لعاطفة أن تتمكن فى القلب أو تستحوذ على اللب ، وهى لا مدد لها من قوة إلهية ولا سند من هدى ربانى ؟ وكيف يتطاول بنيان لا أساس له ؟ فلا جرم أن أقفرت روح العربى من نور الهداية ، وخربت أعماقه وخلت من الروحانية وعمرت بأوهام وضلالات وخيالات وتوهمات : إلهه هواه ، وشريعته شريعة الغاب والناب لا وازع من قانون سماوى ولا رادع من حد

إلهى ولا مدد ولا عضد من عند الله ، « وأصبح الجاهلى الوثنى [١] يعتمد على نفسه ويثق بها ويعول فى كل أموره عليها ، وقد تجلت هذه الثقة العمياء فى حياتهم ، يمتطى أحدهم صهوة جواده ، أو يعلو ظهر ناقته ويتمنطق بسيفه أو يتقلد رمحه ويتوغل فى الصحراء المقفرة بمفرده لا أنيس له إلا الإعتماد على شخصه وشجاعته واعتقاده فى قوة بدنه وثبات جنانه ، فإذا وقع فى محظور فسيفه منجده ورمحه منقذه ، فلا إله يقف بجانبه ، ولا ولى يحميه من الشر ، لأنه لا يعرف التوكل على إله ولا تسليم أمره لكائن خفى عن عينه أو ظاهر لحواسه ، ولا يخضع لأحكام القضاء والقدر ، بل لا يدرك عقله تلك الأحكام ولا يسلم بوجودها ، فيثور عليها ، وتلك نفسية جبارة هوجاء قوامها الأثرة والمجازفة ، وغريزة البقاء التى توحى إليه الإحتفاظ بالذات ، والخوف من الأخطار قد تتغلب عليها روح المجازفة والمغامرة فيضحى بنفسه فى سبيل الأسرة أو القبيلة أو القوت الضرورى أو سبى امرأة يهواها .

ولكن هذه التضحية وتلك النخوة والحمية والعصبية ، بل تلك البطولة لم يكن فيها أثر للعاطفة الدينية ، ولا للمستور النفسانى الذى يسيطر على المؤمنين بما وراء الطبيعة . وإذن لم يكن للعقيدة الدينية أثر كبير فى النفسية العربية الجاهلية لأنها كانت ذات طبيعة قاسية مستقلة ، على الرغم من خضوعها أحياناً للأهواء القوية التى تعصعف بالنفوس كالعشق والفخر والأخذ بالثأر ، ولعل العربى الجاهلى لم يشعر بالعاطفة الدينية إلا بعد أن يبرد بركان شخصيته الذى كان يفور ويغلى فتهبط حرارة حيويته إلى الصفر . . أى بعد ذهاب الشباب وحلول المشيب محله ، فيحس الرجل دنو أجله فيعتريه الندم على سعادة الحياة وجمال الأيام التى ذهبت ولن تعود ، وحينئذ تخرج من أعماق هذه النفس المحترقة النادمة على الشباب

---

(١) ص ١٩٠ من كتاب ثورة الإسلام وبطل الأنبياء محمد لطفى جمعة .

والخمر والمنافرة والموسيقى ونور القمر وحرارة الشمس صرخة طويلة ، بل أنّة محزونة ، وقد تّفرغ هذه الصرخة فى قالب شعرى فتكون قصيدةً كالتى نظمها أمرؤ القيس فى التفجع على الماضى والشباب فيذكر الموت وفرقة الأحباب ويندب حظه بعد فراق الحارث وحجر ، ويترقب اليوم الذى تنشب فيه المنية أنيابها وأظافرها . .

ولعل المقيمين فى مكة كانوا أكثر اكتراثاً للدين لأنه كان يدر عليهم أرزاقاً ولأنهم مقيمون بجوار الكعبة على مرأى ومسمع من الأصنام والسدنة والكهان .

وحياة الاستقرار تورث مخاوف وآمالا لا يعرفها الراحل والظاعن الشارع رمحاً ، أو المجرد سيفاً فى كل المواطن للدفاع عن الحياة أو الذود عن العرض أو الهجوم للسلب والغنم .

وفى اعتقادنا كان الفرق بين البدو والحضر فى هذه المسألة يسيراً . .

وكلاهما « قليل الدين » غير مكترث للأرباب ، ولا يخدعن أحد الباحثين المحدثين فيحسب سراب العبادة المكية ماء ، فقد كانوا يقيمون الحج ويحشدون الأصنام ويزينون الكعبة بتهاويل الآلهة وتصاوير الأنبياء ويقدمون القرابين ويطعمون الحجيج ويسقونهم ويرفدونهم ويحمونهم ، لا حباً فى دعج أعين الأرباب والأصنام ولا إيماناً بقوتها ولا ثقة باستجابتها للدعاء ، ولكن فعلوا ذلك وغيره بقصد التجارة بالدين وجلباً للمنافع المادية ، لأن تجارتهم تدور حول موسم الحج والأعياد التى تسبقه وتلحقه ، والأسواق التى تصحبه أو تتلوه . . » .

ألوان الشرك

كانت الحياة العقيدية لدى العرب قبيل البعثة المحمدية أخلاطاً من ضلالات وأمشاجاً من أوهام وانحرافات ، فكان هناك عبدة الصنم وعبدة الأجرام السماوية وعبّاد القوى الكونية وعبّاد الأشخاص والجن والملائكة ، وكان هناك الدهريون أو اللا دينيون .

وقد سجل القرآن الكريم ألوان الشرك التي كانت سائدة فى جو العقيدة العربية قبيل البعثة المحمدية :

— فبعضهم عبد أكثر من إله ، وعن ذلك يقول القرآن فى سورة الأنبياء :
« . . أم اتخذوا من دونه آلهة .

— وبعضهم ، وهم المثنوية ، اتخذوا إلهين اثنين ، وعن ذلك يقول القرآن :
« وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد » (النحل: ٥١) .

— وبعضهم اعترف بالله وأنكر البعث :
« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (النحل : ٣٨)
اعترفوا بالألوهية وأقسموا بالله على ما أنكروه من بعث بعد الموت .

— وبعضهم وهم الدهريون اللا دينيون الذين قالوا إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر فأنكروا الألوهية والبعث معاً .
« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

— وبعضهم جعل لله البنات :
« ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » (النحل : ٥٨)

— وبعضهم أسند الولد إلى الله :

« وقالوا اتخذ الله ولداً »

« وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (التوبة : ٣٠)

— وبعضهم : « جعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (أنعام : ١٠٠)

— أما عبدة الملائكة ، فيقول القرآن عنهم :

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » (سبأ : ٤٠)

— وعن هؤلاء الذين يعبدون الأشخاص والرؤساء والأبطال يقول القرآن :

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » (الأعراف : ١٩٤)

— وعن هؤلاء الذين عبدوا ما صنعته أيديهم من حجر أو خشب أو معدن أو تمر يقول القرآن :

« أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » .

واسطة :

ولم تكن عبادة الأصنام لذات الأصنام ، بل كانت واسطة بين العابدين والمعبود الأكبر ، كانت وسيلة إلى التقرب من الله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (الزمر : ٣) .

أو لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (يونس : ١٨)

يقول الدكتور دراز فى كتابه « الدين » ص ٣٤ :

« إعلم أن كلمات الباحثين فى « نفسيات » المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أنه ليس هناك دين ، أيـًا كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهر الحس واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة ، ، ولا رأى فى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم .

وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهى فى نظرهم أشبه شىء بالتمائم والتعويذات التى يتفاءل أويتبرك بها أو يستدفع بها شىء من الحسد أو السحر ، لا على أنها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار فى الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها أو حولها روحاً عاقلا ، مدبـِّراً ، مستقل الإرادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأمور ومجرى العادات ، فيعطى ويمنع ، ويضر وينفع من حيث لا ينتظر الناس ذلك فى العادة ، وأن تلك المواد المشاهدة ما هى فى اعتقادهم إلا مظهر ومطلع يطل منه هذا الروح الخفى ويبارك من يتمسح بتلك الهياكل التى اتخذها له مظهراً ومزاراً » .

القرآن . . والشرك :

وعن موقف القرآن من عقيده الشرك هذه بأشكالها وألوانها نراه قد خص هذه العقيدة بعديد من الآيات التى تعرضت لها وعرّضت بها فى مواضع كثيرة . .

كما ناقش القرآن مفاهيمها واتجاهاتها نقاشاً منطقياً موضوعياً ، فنقدها ونقضها ، ورد كل مزعم ، ودحض كل فرية ، وأبان فى النهاية عن العقيدة الحقة : عقيدة التوحيد والوحدانية « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

– وقد حكم القرآن بادىء ذى بدء بأن الله لا يقبل الشرك ولا يغفره :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (النساء : ٤٨)

– وأن الشرك إثم عظيم :

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » .

– كما حكم بأن المشركين نجس :

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (التوبة : ٢٨)

– وأن الشرك محبط للعمل ومفضى إلى الخسران :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد . . » (الزمر : ٦٦)

ثم يعرض القرآن فى أكثر من موضع دعوى اتخاذ الله ولداً ، ويدحضها مبيناً فى قوة ووضوح ومنطق وإقناع ، وبأكثر من حجة وبرهان أن الله منزه عن ذلك :

« وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (البقرة : ١١٧)

وفى قوة قوية ينفى الولد والشريك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » (المؤمنون : ٩١) ويستنكر ذلك على زاعميه ، مبيناً أنه لا يكون الولد إلا إذا كانت هناك الزوجة التى تلد الولد : « أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » (الانعام : ١٥١)

ويعرض فى موطن آخر لهذا المزعم فيسجل غناه عن إتخاذ الولد ، وكيف يحتاج إليه وكل ما فى السموات والأرض ملك يديه ؛ وينعى على أصحاب هذا

المتجه اتجاههم ، وتقولهم ، وافتراءهم :

« قالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » (يونس :٦٨)

كما قرر القرآن أن هؤلاء الذين دعوهم أبناء الله ليسوا سوى عباد الله ، مقررين ألوهية الله ، مقرين بعبوديتهم لله وعبادتهم له خاضعين لمشيئته ، مشفقين من خشيته ، معترفين بوحدانيته . .

لذا كان إعتراف هؤلاء المعبودين أنفسهم بأنهم عباد الله من أقوى الأدلة على هدم دعوى من ادعى أنهم أبناء الله :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (الأنبياء : ٢٦)

فأولى بكم يا أصحاب هذا الإتجاه بعد أن إنهارت دعواكم أن تنأوا عن هذا الإتجاه الذى تكاد لشناعته تتزلزل الأرض وتميد ، وتهتز الراسيات وتنهدّ ، وتنفجر السموات غيظاً وثورة :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً » (مريم : ٨٨)

وما أدق التعبير القرآنى فى تنزيهه للمولى جلّ وعلا عن الولد عندما عبر بالجزء عن الولد فى قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءاً » إذ فيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذى لا يضاف إليه إنقسام حقيقة ولا فرضاً ولا خارجاً ولا ذهناً »[١] .

---

(١) من تفسير روح المعانى للألوسى ص ٦٩ جـ ٢٥ .

ثم يمضى القرآن فى عديد من آياته يكشف عن نفسية المشركين وأنهم متجبرون متكبرون لا يصيخون لدعوة الحق : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » .

وبعد أن يسجل القرآن بعض نواحى قدرة الله ومناحى عظمته وبديع صنعه يدعوهم إلى التفكر فى أنفسهم ، وإلى النظر فى الكون وفى الخلق ، والسير فى الأرض والسياحة فى التاريخ عبر الماضى ليروا نهاية الشرك :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » (الروم : ٤٢)

ولو ساروا ، وتفكروا ، ونظروا ، لوجدوا حينئذ آياته :

« ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » (الشورى : ٢٩)

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » (الآيات من ٢٠ ــ ٢٥ سورة الروم) .

وعن ضعف الشركاء ومهانة الآلهة المدعاة وعجز الأصنام تنطق بذلك كله تلك الصورة القرآنية التى مثّلت الضعف فى أقوى صورة وجسّمت المهانة تجسيماً صادقاً واقعياً وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادّعى المشركون أنهم آلهة قادرون يمنحون ويمنعون :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز» (الحج : ٧٤) .

بيوت العبادة .. فى الجاهلية

انتقلت عبادة الأوثان إلى مكة من بابل ، وآشور ، ومن بعض الأمم المجاورة للعرب. وغدت الكعبة مركز الوثنية فى الجاهلية ، ومنطلق الأوهام ، ومجمع الأصنام ، ومركز التأهيل الوثنى ، لها سدنة وحجاب ، ولها حراس ، ولها كهنة ورهبان ، ولها نذور وقرابين .

وقدّر لهذا المكان المقدس ، الذى شيده إبراهيم وابنه ليكون مركز الإشعاع الروحى ومنار الهداية العقيدية وحصن العقيدة السايمة الصحيحة ومنطاق الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ،قدّر له أن يصير — إلى حين من الدهر— مباءة للطاغوت ووكراً لإبليس ومركز إشعاع للظلام والضلال ، يقبع فى داخله حجارة وتماثيل وأصنام وأوثان . . يتوسطها « هبل» إله الكعبة الأعظم وزعيم الآلهة ، ومن حوله مئات من الأصنام الآلهة فى جوف الكعبة وعلى ظهرها ، ولكل رسم وإسم ، ولكل مركز وقدر ، ولكل طقوس وقرابين .

ويقبع على باب الكعبة سدنة وحجاب يتقاضون ضريبة الإستشارة الدينية . .

يقول صاحب كتاب « أديان العرب فى الجاهلية » (ص ٣٣) : « لقد اشترك اليهود والنصارى والمشركون فى احترام الكعبة ، واتخذوها معبداً ، كل يعبد ربه فيه كما أمره دينه . . حتى صوروا بها المسيح والعذراء ، وصوروا بها إبراهيم

وإسماعيل وفى أيديهما الأزلام ووضعت كل قبيلة صنمها الذى تعبده عليها حتى اجتمع على سطحها ٣٦٥ صنماً ، وما زالت كذلك حتى بعث الله رسوله فمحا الصور وكسر الأصنام وخلصها لعبادة الله وحده » .

ثم قال : « وقد خصها العرب بأنواع من الإحترام ، لأنها بيت الله الحرام .. وبناء أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل ، فكانوا لا يبنون عندها بيوتاً حتى صارت ولاية الحرم لقصى بن كلاب فبنى دار الندوة وأمر قريشاً أن تبنى بيوتها حوله ، لتهابهم العرب لمكان البيت . .

وكانوا لا يرفعون بناءهم فوق بنائها تعظيماً لها . .

وكانوا يتحاشون التربيع فى البناء كيلا يشبهها . .

وكانوا يخلعون نعالهم عند دخولها . . وكانوا يحلفون بها . .

وكانوا يضمخون البيت فى الجاهلية بلحوم الإبل ودمائها ، فلما جاء الإسلام قال أصحاب محمد : ونحن أحق بأن نضمخ ، فأنزل الله تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » .

ولعظيم مكانة الكعبة والحرم لدى العرب ، اعترفوا لسكان الحرم ومجاورى البيت الحرام بالرئاسة ، وهذا ما دعا بعضهم لبناء بيت واتخاذ حرم ليضاهى به حرم الله وبيته ، كبناء « بس » وكنيسة « القليس » .

أما « بس » فقد حكى كتاب الأغانى خبره ، وهو أن بنى بغيض من غطفان لما استشعروا من أنفسهم القوة عندما انتصروا على قبيلة من « مذحج » قالوا : « والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة ، لا يقتل صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يهاج عائذه ، فاتخذوه عند ماء لهم يقال له « بس » وكان القائم على أمر الحرم « رياح بن ظالم » .

أما كنيسة « القليس » . . قال السهيلى : « سميت هذه الكنيسة القليس

لارتفاع بنائها وعلوها ، ومنه : القلانس لأنها فى أعلى الرءوس » .

فقد بناها « أبرهة الأشرم » ملك اليمن من قِبل النجاشى بصنعاء إلى جنب « غمدان » لما دانت له قبائل العرب وملك قيادها .

ولما تم له بناؤها كتب إلى النجاشى أنى قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب والعجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حجاج العرب أليه ويتركوا الحج إلى بيتهم .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من « النسأة » أحد بنى « فقيم بن عدى بن عامر » فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها ، ثم خرج فلحق بقومه .

فلما أُخبر بذلك أبرهة سأل عمن صنعه . فقيل له صنعه رحل من العرب من أهل هذا البيت الذى بمكة عند ما سمع قولك « أصرف إليها حجاج العرب » .

فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه(١) .

ثم سار بجيشه ومعه الفيل فلما نزل « بالمغمس » (وهو مكان قريب من مكة) أرسل إلى قريش فأخبرهم أنه لا يريد إلا هدم البيت ، فإن لم يتعرضوا لقتاله لا يقاتلهم .

---

(١) على أن الدكتور حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » ص ٦٣ يسوق رواية أخرى ورأيا آخر فهو يقول :

« أدت مكانة مكة ومقام بيتها الحرام إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها لعلها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها ، فأقام الغساسنة بيتاً بالحيرة ، وأقام أبرهة الأشرم بيتاً باليمن ، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عنها ، وقد عنى ابرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر الأثاث ما خيل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه . . فلما رأى العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن يدعون البيت الذى بنى ولا يعتبرون حجهم مقبولا إلا بمكة لم يجد عامل النجاشى وسيلة إلا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل ».

وعلمت قريش أنها لا طاقة لها بحربه ، فأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة ، وقام ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال :

لا هُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك[1] .

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك .

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك[2] .

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك .

ثم خرج مع قريش من مكة وتحرزوا فى شعاب الجبل .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » : « ولما انصرفوا ، وخلت مكة منهم وآن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن ، كان وباء الجدرى قد تفشى فى الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسه فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة « صنعاء » وقد تناثر جسمه من المرض فلم يقم إلا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه .

وبذلك أرّخ أهل مكة بعام الفيل هذا وقدسه القرآن بذكره : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل

(١) الحلال : القوم الحلول فى المكان .

(٢) المحال : القوة .

ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول[1] ».

وقد تعددت بيوت العبادة الوثنية فى مكة . . ونجران . . والعراق وغيرها .

فكان لاياد كعبة أخرى بسناد (أرض بين الكوفة والبصرة) .

ذو الخلصة : (بفتح الخاء والصاد)

بيت لخثعم كان يدعى « الكعبة اليمانية » .

وكان فيه صنم يسمى « الخلصة » وقيل إسم البيت « الخلصة » وإسم الصنم « ذو الخلصة » .

قال الكلبي : « وكانت بتبالة (بين مكة واليمن مسيرة سبع ليال من مكة) وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر ، ثم يقول : « ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأسلمت العرب ، ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبدالله مسلماً ، فقال له : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى . . فخرج حتى أتى بنى أحمس من بجيلة فسار إليه ، فقاتلته خثعم ، وباهلة دونه ، فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل ، وأكثر القتل فى خثعم وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان

---

(١) ويقول الإمام محمد عبده فى تفسير جزء عم : « وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على افراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الريح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وإن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل ، وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر ، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر » .

ذى الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق » .

وروى البخارى بسنده عن جرير قال : « كان بيت فى الجاهلية يقال له « ذو الخلصة والكعبة اليمانية » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا تريحنى من ذى الخلصة . فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه » .

الربة :

حكى ابن العربى من حديث أبي الوليد بسنده عن ابن عباس قال : « أن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف ، يبيع السمن للحاج إذا مر ، يلت سويقهم وكان ذا غنم فسميت الصخرة « اللات » فلما فقده الناس قال لهم عمرو بن لحى : « إن ربكم اللات قد دخل فى جوف الصخرة » .

وكانت العزى ، ثلاث شجرات نخل ، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو ابن لحى قال لهم : « إن ربكم يصيف باللات لبرد الطائف ويشتى بالعزى لحر تهامة فبنوا على صخرته بيتاً يعبده أهل الطائف ، وهم ثقيف ، ويسترونه بالثياب ، ويهدون له الهدى ، ويطوفون حوله ويسمونه « الربة » يضاهون به بيت الله الحرام » .

وفى تاج العروس : « الربة » كعبه كانت بنجران لمذجح .

وقال فى تاج العروس أيضاً : إن « الربة » هى اللات ، فى حديث عروة ابن مسعود الثقفى لما أسلم وعاد إلى قومه ، ودخل منزله ، فأنكر قومه دخوله قبل أن يأتى « الربة » يعنى اللات وهى الصخرة التى كانت تعبدها ثقيف بالطائف .

وفى حديث وفد ثقيف كان لهم بيت يسمونه « الربة » يضاهون به بيت الله ، فلما أسلموا هدمه المغيرة » .

السعيدة : بيت بجبل أحد كانت تحجه ربيعة فى الجاهلية .

غمدان : بيت بناه الضحاك بمدينة صنعاء اليمن وخربه عثمان ذوالنورين .

كعبة نجران : قال أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأمالى : « إنها بيعة بناها بنو عبد المدان على هيئة بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة ، وسموها « كعبة نجران » وكان فيها أساقفة يقيمون ، وهم الذين جاءوا إلى النبي عليه السلام ودعاهم إلى المباهلة .

وقيل إنها قبة من ثلاثمائة جلد ، لعبد المسيح بن دارس بن عدى وسمّتها العرب « كعبة نجران » لأنهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة فكان إذا نزل بها مستجير أجير ، أو خائف أمن ، أو مسترفد أعطى ما طلب ، أو طالب حاجة قضيت » .

بس : بيت لغطفان بناها « ظالم بن أسعد « لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ، ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع (أى فقاس) البيت ، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع إلى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت . ووضع الحجرين فقال : هذان : الصفا والمروة ، واجتزأ به عن الحج . فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه ».

(تاج العروس – وكتاب الساق على الساق) .

ذو الكعبات : بيت كان لربيعة يطوفون به .

رئام : بيت كان بصنعاء لحمير وأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده .

بيت يعوق : بيت بنته قبيلة همدان لإلههم « يعوق » بقرية « خيوان » من صنعاء على بعد ليلتين مما يلى مكة .

الأصنام

وها هو إحصاء لأسماء بعض الأصنام مُرتب ترتيباً أبجدياً[1] :

أساف ونائلة : قال كتاب الأصنام للكلبي : « إن أساف بن يعلى رجل من جرهم كان يهيم عشقاً بنائلة بنت زيد من جرهم فى أرض اليمن ، فأقبلا حاجين ، فدخلا الكعبة ، فوجد غفلة من الناس وخلوة فى البيت ، ففجر بها ، فمسخا ، فأصبحوا ، فوجدوهما مسخين . فأخرجوهما ، فوضعوهما موضعهما ليتعظ الناس بهما .

فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبدا معهما ، وكان أحدهما بلصق الكعبة . والأخر فى موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة إلى الآخر ، فعبدتهما خزاعة ومن حج البيت بعد من العرب .

وكان الطائف يبدأ إذا طاف البيت بأساف ، ويستلمه ، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها . فكان ذلك . . حتى كسرهما رسول الله مع الأصنام يوم فتح مكة .

الأسحم : صنم أسود عبدته العرب .

الأشهل : صنم ، وبه سمى بنو عبد الأشهل .

---

(١) اعتمدنا فى هذا الإحصاء على كتاب « الأصنام » لأبى المنذر هشام بن السائب الكلبى ، وكتاب « الساق لأحمد فارس الشدياق طبع باريس سنة ١٨٧٥ – وكتاب أديان العرب لمحمد نعمان الجارم طبع مصر سنة ١٩٢٣ – وتاج العروس شرح القاموس للسيد المرتضى ، والنهاية لابن الأثير .

الأقيصر : كان لقضاعة ولخم وجذام وأهل الشام ، وكانوا يحجونه ويحلقون رءوسهم عنده ، وكان كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قرة من دقيق (والقرة : القبضة) فكانت هوازن تنتابهم فى ذلك الإبان ، فإن أدركه أحدهم قبل أن يلقى القرة على الشعر قال : أعطنيه فإنى من هوازن ضارع ، وإن فاته أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق فخبزه وأكله .

أوال : كان لتغلب وبكر ابنى وائل .

باجر : كان للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة .

البجة : صنم كان يعبد من دون الله .

بعل : صنم كان من ذهب لقوم « الياس » عليه السلام . قال تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

البعيم : صنم من خشب وصمغ .

بوانة : روى عن أم أيمن أنهم كانوا فى الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند « بوانة » وهو صنم تعبده قريش وتعظمه وتنسك أى تذبح له وتحلق عنده ، وتعكف على عبادته يوماً إلى الليل فى كل سنة . فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم محمداً ابن أخيه أن يحضر ذلك العيد معه ، فيأبى ذلك ، قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من إجتناب آلهتنا ، وما تُريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً !! فلم يزالوا به حتى ذهب معهم ، ثم رجع فزعاً مرعوباً فقلن :

ما دهاك ؟!

فقال : إنى أخشى أن يكون بى لمم (مس من الشيطان) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذى رأيت ؟

قال : إننى كلما دنوت من صنم من تلك الأصنام التى عند الصنم الكبير بوانة تمثل لى رجل أبيض يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت أم أيمن : فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

الدار : صنم سمى به عبد الدار بن قصىّ بن كلاب .

الدوار : قال البغدادى فى خزانة الأدب :

« دوار بالفتح صنم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالبيت الحرام »

وقال العسكرى فى التصحيف ويروى « دوار » بدال مضمومة ، ودوار بدال مفتوحة وواو مخففة .

ذو الشرى : كان لبنى الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد .

ذو الكفين : كان لبنى منهب بن دوس ، ولما أسلموا بعث النبى صلى الله عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسى فجعل يلقى النار فى وجهه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أكثر من ميلادكا
إنى حشوت النار فى فؤادكا

ذو الرجل : صنم حجازى .

السجة : صنم . به فسّر قوله صلى الله عليه وسلم :
« أخرجوا صدقاتكم فإن الله قد أراحكم من السجة والبجة » .

سعد : صنم كان لبنى مالك ، ومكانه بساحل جدة .
وقال أحمد فارس الشدياق : صنم أيضاً كان لمذحج .
وفى المخصص : صنم أيضاً كانت تعبده هذيل .

سعير : (بضم السين) صنم كان لعنزة .

سواع : صنم لقبيلة هذيل بن مدركة . ومكانه « رهاط » من أرض ينبع . قدّمه عمرو بن لحى إلى هذه القبيلة لتتخذه إلهاً لها . فكانوا يحجون إليه وينحرون عنده .

وعلى ذلك يكون « سواع » صنم آخر غير ما عبده قوم نوح ، بل هو مطابق لها فى التسمية ، وفى المستطرف : إن سواع ويغوث ويعوق ونسرا أصنام قوم نوح .

وقيل إنهم أولاد آدم عليه السلام ، وكانوا أتقياء عبّادا فمات أحدهم . فحزنوا عليه حزناً شديداً فأرادوا أن يصوروا صورته ليذكروه إذا نظروه . فصوروه من نحاس وجعلوه فى المسجد، ثم مات آخر ففعلوا به ذلك ، إلى أن ماتوا كلهم فصوروهم وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً فنهاهم عن عبادتها .

ولما عم الطوفان الأرض طما عليها وعلا عليها التراب زمناً طويلا ، ثم أخرجها مشركو العرب فعبدوها .

ونقل الواقدى : أن « وداً » كان على صورة رجل ، وسواع كان على صورة إمرأة ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة

فرس ، ونسراً كان على صورة نسر ، وهذا يصحح ما ذكره الكلبي من أن الأصنام المذكورة ليست هي الأصنام التي عبدها قوم نوح وإنما سميت بأسمائها ، وفي ذلك يقول الكلبي في كتابه :

وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل ، وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل ، هذيل بن مدركة اتخذوا سواع فكان لهم « برهاط » من أرض ينبع .

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهدمه عمرو بن العاص ، قال عمرو : فلما انتهيت إليه وعنده السادن ، قال : ما تريد ؟ فقلت : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه . قال : لا تقدر على ذلك ! ! قلت : لم ؟

قال : يمنعك هو . فقلت : ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟!

قال : فدنوت منه ، فكسرته ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟

قال : أسلمت لله .

الشارق : صنم كانت تعبده هذيل وبه سموا « عبد شارق » .

الشمس : به سمت العرب « عبد شمس » .

صدا : صنم قوم عاد .

صمودا : صنم آخر لقوم عاد كما في كتاب مروج الذهب للمسعودي .

الضمار : صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه .

الضيزن : صنم جاهلي

الضيزنان : صنمان كانا للمنذر الأكبر اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة .

عائم : صنم كان لأزد السراة وأقسم به شاعرهم حيث قال :

تخبر من لاقيت أن قد هزمتهم
ولم تدر ما سيماهم ، لا ، وعائم !

عبدة مرحب : صنم كان بحضرموت .

عبعب : صنم لقضاعة .

الجتر : صنم

عوض : صنم لبكر بن وائل .

العوف : صنم .

العزّى : كانت أعظم الأصنام عند قريش ؛ وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح ، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يقال له « الغبغب »[1] .

وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها .

يقول الكلبي : « فلم تزل العزى كذلك حتّى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فعابها ، وغيرها من الأصنام ، ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » فاشتد ذلك على قريش .

ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكي ، فقال ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن

---

(١) الغبغب : قال السهيلي : الغبغب هو المنحر ومراق الدم كأنه سمي بحكاية صوت الدم عند انبعاثه .

الموت تبكى ولا بد منه ؟ ! قال : لا ، ولكنى أخاف أن لا تعبد العزى بعدى ! ! قال أبو لهب : والله ما عُبدت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

قال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ! !

فلما كان عام الفتح دعا النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقال : انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فاعضدها .

فانطلق ، وقتل « دبية » سادنها .

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ، ثم اللات ، ومناة .

فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدايا .

وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى .

وكانت الأوس والخزرج تخص « مناة » كخاصة هؤلاء الآخرين.

وكلهم كان معظماً للعزى .

عميانس : قال الكلبى : « وكان لخولان صنم يقال له « عميانس » بأرض خولان ، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله عز وجل بزعمهم ، فما دخل فى حق الله من حق عميانس ردوه عليه.

ومادخل فى حق الصنم من حق الله الذى سموه له تركوه له .

وقال أحمد زكى (باشا) فى هامش ص ٤٣ من تحقيقه لكتاب الكلبى ، « ووهم اليعمرى فى عيون الأثر وابن هشام فى سيرته عندما سميا هذا الصنم « عم أنس » وقد تبعهما أحمد البدوى الشنقيطى فى كتابه « عمود النسب » فقال بعد ذكر خولان :

اضلهم صنمهم عم أنس كانوا إذا ما الغيث عنهم احتبس
توسلوا إليه بالذبائح أن يمطروا — وأعظم القبائح
أن جعلوا له ولله نصيب من مالهم — وإن تغيب النصيب
أعطى للصنم حظ الله وما له لم يعط للإله

ثم يقول المرحوم المحقق أحمد زكى : لم يرد هذا الإسم — أى عم أنس — فى كتب اللغة المعتبرة التى وقعت لى ، وصدق الله حيث يقول « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » .

الفلس : (بفتح الفاء)

كان صنماً لطىء يعبدونه وسط جبلهم الذى كان يقال له « أجأ » ، وكانوا يعترون عنده عتائرهم ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ، وكانت سدنته « بنو بولان » وبولان هو الذى بدأ بعبادته فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له « صيفى » فأطرد ناقة خلية (والناقة الخلية هى التى تنتج وهى غزيرة اللبن فيجر ولدها من تحتها فيجعل تحت أخرى وتخلى هى للحلب) كانت لامرأة من بنى كلب من بنى عليم كانت جارة لمالك بن كلثوم الشمجى ، وكان شريفاً فانطلق بها حتى أوقفها بفناء الفلس ، وخرجت جارة مالك فأخبرته بذهاب ناقتها ، فركب فرساً عرياً وأخذ رمحه وخرج فى أثره فأدركه وهو عند الفلس والنـــاقة موقوفة

عند الفلس . فقال له :

خل سبيل ناقة جارتي . فقال : إنها لربك . قال : خل سبيلها . قال : أتخفر إلهك ؟ فبوّأ له الرمح (أى قابله به) فحل عقالها وانصرف بها مالك ، وأقبل السادن على الفلس ونظر إلى مالك ورفع يده وقال وهو يشير بيده إليه :

ياربّ إن مالك بن كلثوم   أخفرك اليوم بناب علكوم

وكنت قبل اليوم غير مغشوم[1]

يحرضه عليه . وعدى بن حاتم يومئذ قد عتر عنده وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك وفزع لذلك عدى بن حاتم وقال : انظروا ما يصيبه فى يومه هذا ! ! فمضت له أيام لم يصبه شيء . فرفض عدى عبادته وعبادة الأصنام وتنصر ، فلم يزل متنصراً حتى جاء الإسلام فأسلم .

فكان مالك أول من أخفره ، وكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة أخذت منه ، ولم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه على بن أبي طالب فهدمه .

القيس : صنم لم يذكره ابن الكلبي فى كتابه ، وبه سمى أمرؤ القيس ، أى رجل ذلك الصنم ، ولذلك كان الأصمعى يكره أن يروى قوله فى معلقته « عقرت بعيرى يا إمرىء القيس فانزل » . . فكان يقول : يا إمرىء الله .

---

(١) أخفره : نقض عهده وغدره ، والناب : الناقة المسنة ، والعلكوم = القوية. غير مغشوم: غير مظلوم .

من طقوس الوثنية

وكان لتلك العقيدة الوثنية فى الجاهلية طقوس وعادات . .

كانوا يحجُّون إلى الأصنام ، ويطوفون بها ، ويستقسمون عندها بالأزلام .

ويحبسون عليها الأوقاف ، ويسمون أنفسهم بأسماء مضافة إليها بالعبودية ، كعبد اللات وعبد العزى ، ويقسمون بها ، وينذرون لها النذور ، ويسجدون لها وينكسون رؤسهم عندها ، ويستعينون بها فى شفاء مرضاهم والنصرة على أعدائهم ومحاربيهم ، ويقدّمون لها القرابين .

من هذه القرابين : « الفرع » وهو أول نتاج البهيمة ، كانوا يذبحونه ولا يملكونه لأحد رجاء البركة فى الأم وكثرة النسل .

ومنها « العتيرة » قال أبو عبيد : « العتيرة : ذبيحة كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب يتقربون بها لأصنامهم وهى « الرجبية » .

وفى الصحاح : « العتيرة : هى أن الرجل كان يقول فى الجاهلية إن بلغ أبلى مائة عترت منها عتيرة فى رجب » .

ومن أنواع قرابينهم فى الجاهلية : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامى .

البحيرة :

إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها (أى شقوه) وحرموا نحرها وركوبها ، ولا تطرد من ماء ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المعيى لم يركبها .

السائبة :

وهى التى ينذر الرجل أن يسيبها ويتركها إن برئ من مرضه أو أصاب أمراً يطابه . وعن ابن عباس وابن مسعود أنها : التى تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ، ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل .

الوصيلة :

هى التى تلد أمها اثنين فى كل بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ، ولنفسه الذكور فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون وصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع بها .

وقال الزجاج : هى الشاة إذا ولدت ذكرا كان لآلهتهم ، وإن ولدت أنثى كانت لهم ، وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، أى : دفعت عنه الذبح فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

الحامى :

إنه الفحل يضرب فى مال صاحبه عشر سنين ، (أو الذى نتج من صلبه عشرة أبطن) وقال الفراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده . فيقولون حمى ظهره فيهمل ، ولا يطرد من ماء ولا مرعى .

يقول القرآن عارضاً بعض هذه القرابين معرّضاً بأصحابها :

« ما جعل الله من بحيرة ، ولا سائبة ، ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (المائدة : ١٠٧) .

« وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما

كانوا يفترون ، وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » (الأنعام : ١٣٩) .

تعريفات

قال أبو المنذر الكالبى فى كتابه الأصنام :

« اشتهرت العرب فى عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنما . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ؛ ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها « الأنصاب » فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم « الدوار » .

وقال : المعمول من ذهب أو خشب أو من فضة على صورة إنسان فهو صنم . وإذا كان من حجارة فهو وثن .

(وفى المصباح المنير : الصنم : يقال هو الوثن المتخذ من الحجارة أو الخشب ، ويروى عن ابن عباس ، ويقال : الصنم : المتخذ من الجواهر المعدنية التى تذوب ، والوثن : هو المتخذ من حجر أو خشب . وقال ابن فارس : الصنم : ما يتخذ من خشب أو نحاس أو فضة) .

وقال السهيلى : يقال لكل صنم من حجر أوغيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره .

الحنفـــــاء

لم تكن عقيدة الشرك عقيدة للعرب جميعاً ، بل ندّت طائفة من مفكريهم وحكمائهم عندما رأوا تفاهة ذلك المعتقد فأعملوا عقولهم ، وفكروا فى أمر حياتهم العقيدية ، وتساءلوا : أهذا هو الدين الحق ؟ بشر يعبد حجراً ويطامن جبهته لجماد ! !

وظلوا يبحثون باذلين قصاراهم ، مجندين طاقاتهم العقلية والفكرية فى البحث للوصول إلى العقيدة الدينية التى يرتضونها ويطمئنون إليها .

فنهم من هدى الله ، فاهتدى بالهام من الله إلى ملة إبراهيم خليل الله ، فعبد الله على هذه الملة .

ومنهم من تنصر أو تهوَّد ، ومنهم من لم يصل بَيْد أنه لم يقم وزناً لشعائر قومه وعقيدة أهله فظل كما هو حيران تائهاً ضالا ، حتى قضى وهو على حيرته . . فمن اتبع اليهودية واستقر عليها واستكان إليها . . فهو يهودى ، ولا يسمى حنيفاً . . ومن اتبع النصرانية فهو من أهلها وليس من الحنفاء .

ولن يسمى حنيفاً إلا من اتبع ملة إبراهيم و « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً » (آل عمران ، ٦٧) .

فالحنفاء فى الحقيقة ، هم الباحثون عن الحقيقة فى البداية الواصلون إلى شريعة إبراهيم فى النهاية ، بعد أن أزوروا عن المسيحية وعن اليهودية ، وعن المجوسية ، وعن الوثنية . هم المسلمون عقيدة ، وإن عاشوا قبل الاسلام .

لذا لا نسمى من آض إلى النصرانية واتبع كتابها وطقوسها لا نسميه حنيفاً فلا نسمى « عثمان بن الحويرث » حنيفيا لأنه قدم على ملك الروم « قيصر » فتنصر .

وكذلك لا نعد « ورقة بن نوفل » حنيفياً ، بل هو نصرانى : مستحكم فى النصرانية ، تعلم العبرانية وقرأ بها الأناجيل .

« ولقد عابه زيد بن عمرو بن نفيل — فيما يبدو — على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلى عنها فقال : « أنا استمر على نصرانيتى إلى أن يأتى النبى الذى تبشرنا به الأحبار[1] » .

على أن التاريخ أمسك ، فلم يحدثنا عن ورقه أنه أسلم ، كل ما فى الأمر أنه تمنى أن يعيش حتى يرى انتشار دعوة محمد .

أما زيد بن عمرو بن نفيل الذى طوف وساح فى بلاد الشام والعراق باحثاً عن الهدف منقباً عن الهداية ، ولم يدخل فى النصرانية ، وأعرض عن اليهودية ، وعارض ، وبل وعرّض بالوثنية ، وقال : أعبد رب إبراهيم . . . فكان حنيفاً . . . بل وتعصب للحنيفية ، قالت أسماء بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ، « لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً ، مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » ، ثم يقول : « اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكنى لا أعلمه » ثم يسجد على راحته ويقول عنه الدكتور طه حسين[2] : « أنه شك فى وثنية قومه ، ثم جحدها . والتمس دينا صفوا ، وملة نقية ، وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه ، وكانت قريش تسمع منه ، وتعرض ولا تحفل بما كان يقول .

ولكن الخطاب بن نفيل ثبت اه ، ثم قاومه ثم جد فى فتنته حتى أشقاه ، ثم حبسه فى مكة ، ثم أغرى به الشباب حتى اضطره إلى أن يستخفى ، وأن

---

(١) ص ٢٤ من كتاب « التفكير الفلسفى فى الإسلام » للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) من كتاب « التفكير الفلسفى » نقلا عن مقال للدكتور طه حسين بمجلة الهلال .

يحتال فى الفرار من مكة ليلتمس ما كان يحب من دين عند اليهود والنصارى .

وقد فر زيد بدينه الجديد — أو باستعداده للدين الجديد — وجعل يلتمس ما يحب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ، حتى استيأس من أولئك وهؤلاء » .

« وكان[1] من هؤلاء الذين سئموا دين الجاهلية وعبادة الأوثان : « أبو قيس بن الأسلت » فى المدينة ، فقد ذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » : أن ابن اسحق ، وسعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه» . قالا : « إن أبا قيس هذا كان قد ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الأوثان .. وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب ، وقال أعبد الله إله إبراهيم — حين فارق الأوثان وكرهها — حتى قدم رسول الله المدينة ، فأسلم ، فحسن اسلامه » .

وبهذا التشقيق وذلك الاتجاه السالف الذى عرضناه فى صدر الكلام نتفادى التناقض الذى وقع فيه البعض من أن هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى ، إذن من سجل عليهم أنهم نصارى فقد سجل عليهم فى الوقت نفسه أنهم غير موحدين ، وغير حنفاء .

يقول الدكتور جواد على[2] : « ويفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى ، مثل : ورقة بن نوفل ، أى على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين دين إبراهيم !!

والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر فخلطوا فى بعض الأحايين بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد » .

ويقول : « وقد أشار القرآن للكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم

---

(١) من كتاب « صور من حياة الرسول » لمؤلفة أمين دويدار — الناشر دار المعارف .

(٢) جـ ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

تكن من اليهود ولا من النصارى ، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته .

وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير أن ما ذكروه غامض ولا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم فى الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم فى التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عُرف هؤلاء بالحنفاء ونُعتوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى .

ويفهم من بعض الروايات أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا الناس . وطاف بعضهم فى الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف . وأن منهم من كان قد قرأ الكتب السماوية ، وفهمها ، وأنهم كانوا يتأملون فى هذا الكون ، وأنهم تجنبوا الخمر والأعمال المنكرة ونصحوا الناس بالابتعاد عن الأصنام وبالتقرب إلى الله ، فهم مسلمون فى عقيدتهم وإن عاش أكثرهم قبل نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وليست الصورة التى رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة . . فهى صورة غامضة مطموسة فى كثير من النواحى ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية ، فليس فيها شىء عن عقيدتهم فى الله وعن كيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شىء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها .

نعم — أن نفراً منهم — كما ذكر الرواة — كانوا قد قرءوا الكتب ، ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التى قرءوها ؟ وما أسماؤها ؟ وهل هى التوراة والانجيل ؟ ولكن أى توراة وأى إنجيل ؟ التوراة والانجيل التى كانت بين أيدى الناس أو غيرها ؟ فالذى يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً فى هذين الكتابين ، وأن هناك تبايناً — قليلاً أو كثيراً — بين الأصل

الذى أوحاه الله وبين الذى كان بين أيدى الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف فقرءوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم .

والحنفاء كما يفهم من روايات الرواة أيضاً كانوا طرازاً من النساك ، نسكوا فى الحياة الدنيا ، وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد إله إبراهيم واسماعيل .. ساحوا فى البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح : دين إبراهيم ، فوصل « زيد بن عمرو بن نفيل » إلى الشام والبلقاء ، ووقف على النصرانية واليهودية فلم ير فيهما ما يريد . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم عنتاً ونصباً .

ومنهم من بنى له صرحاً وبنية اعتكف فيها يعبد الله ويصلى له .

ولكن كيف كانت عبادتهم ؟ وكيف كانت صلاتهم ؟ لا ندرى، لأن من تحدث عنهم لم يشر إلى هذه الأمور .

ثم يقول : « وعندى أن الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام وثارت عليها ، وعلى المثل الأخلاقية التى كانت سائدة فى ذلك الزمن ، ودعت إلى اصلاحات واسعة فى الحياة ، وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التى كانت متفشية فى ذلك العهد ، دعاها إلى ذلك ما رأته فى قومها من إغراق فى عبادة الأصنام ، ومن إسراف فى شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم فى كل زمان ينادون بالاصلاح .

وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الأوثان شأن كل دعوة إصلاحية .

ويجوز أن يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير أننا لا نستطيع أن نقول بأنهم كانوا نصارى أو يهوداً .

إنما نستطيع أن نشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء ، أو عبادة الرحمن فى اليمن متأثرين بمبادئ التوحيد التى حملتها اليهودية والنصرانية إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، إنما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد . ولا يعنى قولى هذا أن الحنفاء كانوا على رأى واحد ، ودين واحد كالذى يفهم مثلا من قولنا يهودى أو نصرانى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة . . . إنما كان أولئك الأحناف نفراً من قبائل متفرقة ، لم تجمع بينهم رابطة ، إنما اتفقت فكرتهم فى رفض عبادة الأصنام وفى الدعوة إلى الإصلاح ، وهذا المعنى واضح فى آيات القرآن الكريم التى أشارت إلى الحنفاء .

غير أن[1] القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهودا ولا نصارى ، وأنهم ينتمون فى عقيدتهم إلى إبراهيم ، وإبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، وأن الرسول نفسه كان على الحنيفية . ولم يكن الرسول يهوديا ولا نصرانيا ، بل كان حنيفا مسلما » .

وفى كتاب بلوغ الأرب ، ج ٢ ، أسماء لفيف من هؤلاء الموحدين الذين كانوا على دين : منهم : قس بن ساعدة الإيادى — زيد بن عمرو بن نفيل — أمية بن أبى الصلت — أرباب بن رئاب — سويد بن عامر المصطلق — وكيع بن سلمة بن زهير الأيادى — عمير بن جندب الجهنى — أبو قيس صرمة ابن أبى أنس — ورقة بن نوفل القرشى — عامر بن الظرب العدوانى — علاف ابن شهاب التميمى — المتلمس بن أمية الكنانى — زهير بن أبى سلمى — خالد بن سنان بن غيث العبسى — عبد الله القضاعى — كعب بن غالب ، وآخرون غيرهم » .

---

(١) المرجع السابق الجزء السادس ص ٢٩١ .

أما عن كيفية عبادتهم لله بعد اهتدائهم إلى توحيده ، وتفصيلات الطقوس والشعائر التى كانوا يقومون بها ، ومدى صلة هؤلاء بعضهم ببعض، ومدى انتشار دعوتهم التوحيدية ، ومبدء ظهورها فى جزيرة العرب . . فإن الأبحاث فى كتب السيرة والتاريخ لا تلقى ضوءاً كافياً شافياً على هذا كله .

ولا مرجع لنا أخيراً إلا ما نفهمه من القرآن الكريم من أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص . وهو فوق توحيد اليهود والنصارى : فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأن قدوتهم « إبراهيم » و « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين » .

ودعوة توحيدية أخرى . .

على أن هذه الدعوة التحررية من عبادة غير الله لم تكن مقصورة على أولئك الموحدين العرب وحدهم قبيل البعثة . بل سبقتها دعوة أخرى فى مصر نادت بالتوحيد ، وبعبادة الله الواحد الأحد ، نادى بها « اخناتون » وكان[1] الفتى اخناتون حدثا ناشئاً عند ولاية الملك ، معروفاً بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بنفسه فى صلواته ومناجاته ، وكان لطيف الحس حالم النفس ، منصرفاً عن طلب البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التى توطد بها ملك آبائه وأجداده ، فطمع فيه كهنة آمون ، وخيل إليهم أنهم مالكون زمام الأمر كله على يديه .

غير أن الفتى الحالم كان عبقرياً يحبُّ الابتكار والتفقه فى العبادة بالعقل

(١) ص ٦٦ من كتاب « الله » للعقاد .

والبداهة المستقلة ، ولم يكن تقليديا يلقى بزمامه لمن يسيطر عليه .

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس . فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال . فقمعهم قمعاً شديداً ومحا اسم آمون من كل مكان حتى هيا كل أبيه واسمه الذى يبدأ باسم آمون ، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه . وهجر العاصمة التى ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى فى أواسط الصعيد ، وهبها لربه الواحد الأحد وسماها « أخت آتون » .

وألغى جميع الأرباب ، وأعوانهم من الأرواح والجنة ، وأولهم الرب القديم « أوزوريس » فكان هذا من أسباب غلبته يومئذ ، وأسباب التمرد عليه بعد حين .

ومن صلوات اخناتون تعرف صفات الله الذى دعا إلى عبادته دون سواه ، فإذا هى أعلى الصفات التى ارتقى إليها فهم البشرية قديماً فى إدراك كما لالإله :

فهو الحى ، المبدئ الحياة ، المالك الذى لا شريك له فى الملك . خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين . نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، بعيد بكماله ، قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير فى الهواء ، وترقص الحملان من مرح فى الحقول . فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه . فيخرج إلى نور النهار واثباً على قدميه ، قد بسط الأرض ، ورفع السماء وأسبغ عليهما حلل الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو هو الوجود وواهب الوجود . وشعوب الأرض كلها عبيده ، لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ، ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون » .

ومن صلوات اخناتون : « ما أكثر خلائقك التى نجهلها ، أنت الإله الأحد الذى لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار .

تسير السفن مع التيار وفى وجهه ، وكل طريق يتفتح للسالك ، لأنك أشرقت فى السماء ، ويرقص السمك فى النهر أمامك وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار » .

ويقول عبد الرزاق نوفل فى كتابه « بين الدين والعلم » :

وتعتبر قصيدة اخناتون دعاء وضراعة ومديحاً وتصوفاً ، وما زالت حتى الآن تثير فى النفس أعمق شعور الإيمان والتوحيد ، فمنها :

أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة فى المرأة ، ويا صانع النطفة فى الرجل ، ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ، ويا من يغذيه حتى وهو فى الرحم ، يا واهب الأنفاس ، ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا . . أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك ، حين كنت وحيداً . . أن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها . . وكل ما على الأرض من دابة ، وكل ما يمشى على قدمين ، وكل ما هو فى العلا ويطير بجناحين ، والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش . . وأرض مصر إنك تضع كل إنسان فى موضعه ، وتمدهم بحاجاتهم . . أنت موجد النيل فى العالم السفلى ، وأنت تأتى به كما تحب ، لتحفظ حياة الناس ألا ما أعظم تدبيرك . . يا رب الأبدية » .

* * *

وهكذا لا بد للنفس البشرية أن تعود سيرتها الأولى . . تعود للصفاء والنقاء ، وللإشراق تعود تحقيقاً للوعد الإلهى ، وللميثاق الربانى الذى أخذ على البشر فى الأزل . . تعود للإيمان بالواحد الأحد .

فمع هذه الظلمات المتكاثفة . . ومع هذه الوثنية الضاربة بجرانها على الأفئدة . . مع هذا الانحراف العتيدى . . مع هذا الضلال والظلام كان لنور الحق أن يشع ، ولا بد له أن يشع ليغمر النفوس ويعمر الأفئدة طيلة تلك المسيرة الإنسانية من بدء الخليقة إلى يوم الدين .

ودعوة ثالثة . .

وفى بلاد فارس — فى عهد زرادشت . . بعد مولد إبراهيم عليه السلام[1] . ظهرت دعوة التوحيد فى التعاليم الزرادشتية الدينية التى سجلتها أسفار كتابهم « الأبستاق » جاء فى بعضها :

« النجدة لهذا الإنسان ، النجدة له مهما يكن أمره ، ليتفضل علىَّ الخالق الأكبر والحاكم الأعظم الرب الحى ، نعم : إنى أتوسل إليك يا « أهورا » أن تحمى حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل علىَّ بها : أنت يا من يبعث فى النفوس التقوى التى لها من العظمة ما لها ، فهى النعمة المقدسة ، وهى حياة العقول الطيبة الصالحة .

إنى أتصورك — أيها المعطى الأكبر جميلا — حينما أشاهد أنك القوة العليا ذات الأثر الفعال فى تطور الحياة وحينما أرى أنك تكافئ الناس على الأعمال والأقوال[2] .

---

(١) أثبتت الأبحاث الحديثة — كما جاء فى هامش ص ٣٨ من كتاب « زراد شت الحكيم » لحامد عبد القادر — أن إبراهيم الخليل كان قبل زراد شت بعدة قرون .

(٢) ص ٧١ من المرجع السابق .

الباب الثانى

المجوسية

زرادشت :

تمهيد :

زرادشت شخصية لها فعاليتها فى المجال العقيدى فى بلاد فارس من قديم. اسمه فى الفارسية القديمة زراتسترا ، وفى الفارسية الحديثة زرادشت.

كان بدء حياته العقيدية : نظراً ، وفكراً ، ووعيا . .

نظر فى مظاهر الطبيعة ، وظواهرها ، وتأمل ، وتابع بصره بصيرته . .

وكانت تلك المظاهر الكونية كتاباً قلب فيه زرادشت نظره ، وقلب صفحاته صفحة صفحة ، وخلص فى النهاية إلى الاعتقاد القوى الجازم بألوهية مصرف هذا الكون ووحدانية بارئه ومبدعه ، ثم أخذ يدعو إلى عبادة الإله الواحد وإلى العمل بكتاب « الأبستاق » . . وما تضمنه من تعاليم تدعو إلى الخير وإلى الإيمان بالله واليوم الآخر .

زرادشت تحت المجهر العقيدى :

عن تقييم هذه الشخصية ووزنها بالميزان العقيدى وتحليل أبعادها ، وعن دعوته وأصولها ومسراها وأهدافها ، وعن حقيقته ، وهل هو نبى ، أو رسول ، أو داعية إلهى ، أو مصلح اجتماعى . .

عن هذا ، وحول هذا اختلفت آراء علماء الأديان والمؤرخين فى القديم والحديث ..

فريق رأى أن زرادشت داعية مؤمن بالألوهية والوحدانية ، لله عنده تعاليم أذاعها بين الناس فى بلاد فارس على أنها وحى من السماء .

وأنه ظل نيفا وثلاثين سنة يدعو الفرس الذين فشت فيهم الوثنية والشرك ، معلناً الحرب على قوى الشر والشرك والظلام وما ساد من فساد وتعد .

يقول الدكتور حامد عبد القادر فى كتابه « زرادشت الحكيم نبى قدامى الإيرانيين» : (ص ٢٣) :

« إن عامة الإيرانيين القدماء كانوا مشركين يعبدون عدة آلهة . . هذا إلى أنه قد شاع بينهم الفساد وبخاصة سكان البدو ، فقد كان بعضهم يعتدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح ، وجاء زرادشت فأحس فى قرارة نفسه استنكاراً شديداً لهذه الحياة الدينية والاجتماعية الفاسدة ، وهبّ بوحى من (أهورا مزدا) يدعو شعبه إلى اتباع الطريق المستقيم طريق الخير والنور ، ويرشدهم إلى النشاط والجد فى العمل والاستمساك بما تقضى به الحياة من شعور بالمسئولية وتحمل التبعات » .

ثم حكم المرحوم الدكتور حامد عبد القادر فى كتابه السالف بأن زرادشت نبى ، حتى جعل اسم الكتاب السالف « زرادشت الحكيم نبى قدامى الإيرانيين » ، وقال بعد أن روى الآراء المختلفة فى حياة زرادشت نفسها . . قال[1] إنه يكاد يكون من الحقائق التى لا مراء فيها أن هذا الرجل وجد فعلا ، وليس هذا فحسب ، بل أن المحققين من المؤرخين يقررون أن هذا الرجل إذا قيس بمقياس التاريخ وجب أن يعد فى صف كبار الأنبياء الذين ظهروا فى شتى البيئات والعصور وأرشدوا الناس إلى طريق الحق والخير ، ذلك لما عرف عنه

---

(١) ص ٣٢ .

من استقامته وشدة إخلاصه لربه وتفرغه لتقديسه وقوة إيمانه برسالته وشدة تحمسه فى نشر دعوته » .

ثم تحدث الكاتب عن مولد زرادشت وطفولته ، فقال[1] :

« ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس لأول مرة بقوة روحانية محركة تدفعه إلى النهوض برسالته ، وامتلأت جوانب نفسه رغبة فى الوصول إلى الحقيقة اللدنية ، وصدقت عزيمته على ذلك فهجر وطنه ، وجد فى الطلب ، وواصل السعى فى سبيل الحصول على مأربه والوصول إلى غرضه .

وظل عشر سنين هائماً على وجهه وحيداً يجوب الآفاق ماشياً على قدميه ، جادا فى تلمس الحقيقة الإلهية فى كل مكان ، فى طول إيران وعرضها .

وينبئنا بعض مؤرخى اليونان أن زرادشت قضى الجزء الأكبر من هذه السنوات العشر فى عزلة تامة وصمت رهيب ، يأوى إلى الكهوف والمغارات ، ويسير فى الأودية والفلوات ، محاولا أن يروض نفسه ، ويعدها لإدراك الأسرار الإلهية : أسرار « أهورا مزداً » الإله الأكبر . وبلغ زرادشت الثلاثين من عمره ، وهو منغمس فى تلك التأملات الفكرية والرياضات الروحانية يقطع مراحل السمو الروحى واحدة بعد أخرى .

وتلك مراحل لا بد أن تقطعها نفس كل نبى بمفردها ، حتى تصل إلى أوج العظمة الروحانية » . .

ثم تحدث الكاتب بعد ذلك عن نزول الوحى على زرادشت ، وعن رحلاته فى السنوات العشر التالية لنبوته ، وعن هجرته إلى أماكن عديدة فى بلاد إيران، وعن انتشار الزرادشتية وإيمان الملك الفارسى « كوشتاسب » وشعبه بها .

---

(١) ص ٤٢ .

الكتاب المقدس الزرادشتى :

ثم تحدث الكتاب عن « الأبستاق » وقال إنه « هو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين . أتى به زرادشت ليكون مرجعاً لاتباعه يرجعون إليه لمعرفة عقائدهم وأحكام شريعتهم ، وقد أشار إليه الطبرى وذكر أنه كتب فى جلدائنى عشر ألف بقرة حفراً فى الجلود ونقشاً بالذهب . .

وقال ابن الأثير فى صدد حديثه عن زرادشت إنه « صنف كتاباً » طاف به الأرض . فما عرف أحد معناه ، وزعم أن لغته سماوية خوطب بها وسماه « فستا » وشرح زرادشت كتابه وسماه « زند » ومعناه التفسير ، ثم شرح الزند بكتاب سماه « بازند » يعنى تفسير التفسير . فيه علوم مختلفة كالرياضيات وأحكام النجوم والطب . وغير ذلك من أخبار القرون الماضية وكتب الأنبياء . وفى كتابه : « تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » ، يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأفاض المسعودى فى وصف هذا الكتاب . كما أفاض فى الحديث عن زرادشت حيث يقول « والأشهر فى نسب زرادشت أنه زرادشت بن اسبتمان ، وهو نبى المجوس الذى أتاهم بالكتاب المعروف « بالزمزمة » عند عوام الناس واسمه عند المجوس « فستاه » .

الديانة الزرادشتية :

وكان من الطبعى بعد أن تحدث الكاتب عن النبى وكتابه أن يتحدث عن الديانة الزرادشتية ، فقرر أن زرادشت بعد أن فكر تفكيراً عميقاً طويلا فى مشكلات الوجود عامة ومشكلات الإله والروح بوجه خاص وصل إلى حل هذه المشكلات بطريق الوحى اللدنى . .

ثم قال « إن من ينظر فى العقيدة الزرادشتية الخاصة بالإله نظرة فاحصة دقيقة هادئة مجردة من شوائب الهوى والتعصب ، مشبعة بروح العطف والتقدير يجد أن أبرز مظاهر الدعوة الزرادشتية تتجلى فى دعوة الناس إلى أن يعبدوا إلهاً وحداً ، ويهجروا الوثنية والصابئية التى كانت تتمثل فى عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية .

ونستطيع أن نبرهن على صحة هذه الدعوى بوثائق رسمية منها « الأبستاق » نفسه ، وبخاصة سفر « الكاناهات » الذى نجد فيه أن اسم « أهورا مزداً » بالذات يذكر مئات المرات وأن هذا الاسم على اختلاف صوره مثل : « مزداً أهور » أو « مزداً » أو « أهورا مزداً » يطلق دائماً على الذات الإلهية الأحدية .

وأن زرادشت نفسه لم يأبه بآلهة قدامى الإيرانيين ، ولم ينطق باسم واحد من هؤلاء متوسلا به أو متضرعاً إليه .

فمن شأن هذا كله يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن زرادشت الحكيم لم يعتقد بوجود خالق قادر غير « مزداً » الذى كان يتوسل به ويتضرع إليه كلما حزبه أمر أو أصابه سوء .

ومما يؤيد هذا الرأى معنى « أهورا مزداً » فإنه مركب من ثلاث كلمات : هى « أهو » و « را » و « مزدا » ومعناها على الترتيب : أنا — الوجود — خالق . . أو : أنا خالق الكون . .

ولو نظرنا فيما فرضه زرادشت على اتباعه من واجبات دينية ، كالأدعية والصلوات التى تتلى فى شتى المناسبات لوجدنا فى كل منها دليلا قاطعا على أن العقيدة الزرادشتية أو المزدية هى فى أساسها ديانة توحيد ، أى : اعتراف بوجود إله واحد .

أما ما شاع بين المفكرين من أن أهورا مزدا وأهريمن يعدان لدى الزرادشتيين لهين اثنين متضادين فهو – كما يقرر بعض المحققين – من اختراع المتعصبين أو الجهلة ، ولا أساس له من الصحة .

وقد يكون السبب فى هذه العقيدة الخاطئة أن هؤلاء الباحثين قد جهلوا حقيقة العقيدة الزرادشتية التى ظل أمرها مبهما غامضاً فعرضوها عرضاً خاطئاً وأخذوها عن روايات شفوية لا تستند إلى وثائق رسمية مدونة ».

وردّ الدكتور حامد عبد القادر فى كتابه هذا على ما زعمه البعض من أن الزرادشتية تدعو إلى عبادة النار على أنها كائن حى ، فقال فى ص ٨٥ :

ولما كان من تعاليم زرادشت وعقائده الإلهية أن (أهورا مزدا) قوة روحانية علياً مجردة من جميع شوائب المادة ، منزهة من جميع أدران النقص ، لا يقدر على إدراكها على حقيقتها عقل بشرى ، ولا يستطيع استحضارها على صورتها الواقعية خيال إنسان . .

ولما كان يعلم أنه ليس فى طاقة كثير من الناس أن يصلو إلى تلك المرتبة الواقعية ، وهى عبادة قوة روحانية محضة مجردة من شوائب المادة ، فقد رمز إلى هذه القوة الغيبية الخفية التى لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول ، ولا يقوى على تصورها الخيال ، برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير من أتباعه على إدراكهما ، ويستطيعون بالتفكير فيهما تصور صفات أهورا مزدا على وجه التقريب .

هذان الرمزان هما : الشمس والنار ، فالشمس تمثل روح أهور مزدا فى صورة يستطيع الناس إدراكها ، ذلك لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول . فإنها كائن مشرق متلألئ يفيض الخير على جميع الكائنات ، ويبعث فيها النشاط والدفء وهى ، قوة لا تقاوم ولا تستطيع نزعات

الشر الاقتراب منها والحط من قدرها ، والنقص من طهرها وصفائها .

هذا فى السماء . . أما فى الأرض فيمثل للناس تلك القوة العليا عنصر النار ، إذ أنها ليست عنصراً أولياً ساذجاً أبديا فحسب ، ولكنها أيضاً قوة مطهرة مهلكة طاهرة نقية نافعة لا يمكن أن يتطرق إليها الفساد .

ومن ثمّ يظهر لنا أن الزرادشتية لا تدعو – كما يزعم البعض – إلى عبادة النار على أنها كائن حى مزود بحياة وروح ، بل أنها تدعو إلى تقديس هذين العنصرين : عنصر الشمس ، وعنصر النار على أنهما رمزان ليس غير لتلك القوة الواحدة التى لا تفتأ تفيض رحمة ونوراً ، وأن الزرادشتية – مع هذا كله – لتعد الوثنية والإشراك الجريمة الكبرى ، لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورا مزدا » .

ثم قال فى ص ١١٣ :

« وربّ قائل يقول :

إن زرادشت كان ينظر إلى النار نظرة تقديس أفليست تلك وثنية ؟

فنجيب بأن نقول ما سبق أن قلناه من قبل ، وهو أن زرادشت لم يعبد النار ، ولم يدع أحداً لعبادتها وإنما اتخذها رمزاً للإله الطاهر المطهر الذى يهلك المفسدين ولا يتطرق إليه أى فساد » .

ويذهب الدكتور حامد فى مرجعه السالف إلى أن زرادشت فرض على أتباعه خمس صلوات فى اليوم والليلة . .

يقول فى ص ٩١ : « وقد فرض زرادشت على أتباعه خمس صلوات فى اليوم والليلة كانت واحدة منها عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الظهر ، وواحدة عند غروب الشمس ، والصلاة عنده دعاء يوجه إلى أهورا مزدا فى شتى المناسبات ، وخلاصة ترجمة دعائه المأثور :

« أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير أن تغفر لى ما ارتكبت من سيئات ، وما دار بخلدى من تفكير سيئ ، وما صدر عنى من قول أو عمل غير صالح ، إلهى أننى أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الاطهار الأخيار » .

* * *

على أن هذه المعلومات كلها التى أوردها المرحوم الدكتور حامد عبد القادر قد ألبسها ثوب الشك بعد أن أوردها مورد التحقيق ، وبعد أن بنى عليها رأيا قرره وهو أن زرادشت نبى . . وجعل ذلك ينهار بعد أن قرر فى تعليقه على قصة زرادشت بقوله فى ص ١٠٧ :

« على أنه ليس من الحق أن نقول أن جميع ما رويناه من التفصيلات أمور متفق عليها بين المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين » : !

وما دامت المقدمات مشكوكاً فيها وغير سليمة ، أو غير متفق عليها فكيف تؤدى إلى هذه النتيجة التى حكم بها من أن زرادشت نبى ، وأنه دعا الناس إلى عبادة إله واحد وأن ديانته أساسها التوحيد ؟ ! !

وعن التوحيد الذى قرره وأكده فى صفحات كتابه رجع فرجحه مرة أخرى فى ص ١٠٩ ، عندما قال « ومن ثم يسوغ لنا فى ضوء ما سبق أن نقول إن من المرجح كثيراً أن ديانة زرادشت كانت ديانة توحيد » .

على أن مساق التعبير الذى ساقه الدكتور حامد فى قوله عن زرادشت فى ص ٨٠ ، أنه وقر فى نفسه أن يهب لإصلاح الفساد وينصب نفسه نبياً مرشداً يهدى قومه إلى طريق الحكمة . . مساق هذا التعبير يدل على أن زرادشت هو الذى نصب نفسه نبياً ومرشدا ، ولم ينصبه الله ، وعند التعبير بوقر فى نفسه يبدو تساؤل مؤداه هل كان هذا الوقر النفسى عن طريق وحى

أو إلهام حتى نحكم بأنه نبي ملهم مرسل أو أنه عن طريق شخصى خاص ، كما يوحى ظاهر التعبير فيكون مصلحاً اجتماعياً أو داعياً عقيدياً .. هذا ما لم يفصح عنه تعبير الدكتور السالف الذكر .! !

وعندما دافع الدكتور حامد بعد ذلك فدفع الزعم القائل بأن الزرادشتية تدعو إلى عبادة النار ، وفرق فى ص ١١٥ بين المجوسية والزرادشتية أثبت فى النهاية أن المجوسية شيء والزرادشتية شيء آخر قائلا : أن الزرادشتية دين زرادشت ، أما المجوسية فدين فريق من الناس كانوا يمارسون السحر ويعبدون النار . ورجح كما فى ص ١١٨ أن المراد بالمجوس (المذكورين مرة واحدة فى القرآن الكريم فى تلك الآية الكريمة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » (الحج : ١٧) ليسوا هم الزرادشتيون وإنما هم السحرة وعبدة النار الذين سموا مجوساً منذ القرن الثالث بعد الميلاد ».

أما رأينا فإننا نقول أن المجوسية هى الديانة الزرادشتية بعد أن أصابها التحريف ، وبعد أن تغالى أصحابها فقدسوا النار ثم عبدوها .

فالمجوسية هى الزرادشتية المحرفة ، كالمسيحية بعد أن أصابها التحريف والتبديل ، فعبدت عيسى وألهته ، وبعد أن دخلها مادخلها من مظاهر الوثنية والتثليث .

وهذا هو ما ذهب إليه المسعودى الذى بعد أن تحدث عن زرادشت وكتابه وشروحه قال معقباً : « والمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم » فالمسعودى يجعل المجوسية من الزرادشتية ويخالف الدكتور حامد الذى أثبت المخالفة أو رجحها ، ولكلٍ وجهته .

العقاد وزرادشت :

وقد تعرّض المرحوم عباس العقاد فى كتابه « الله » ، لزرادشت وتاريخه ودعوته وقال عنه : [١]

. . إن زرادشت لم يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق .

. . وإن خلاصة ما جاء به من جديد فى الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى ، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب ، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .

وليست المجوسية كلها من تعاليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية ، فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم فى أصل الوجود وتنازع النور والظلام ، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير .

. والله فى مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى يترقى إليها عقل بشرى ، وأن زرادشت سأل ربه قائلا :

يا هرمز الرحيم ، يا صانع العالم المشهود ، يا أيها القدس الأقدس : أى شىء هو أقوى القوى جميعاً فى الملك والملكوت ؟

فقال هرمز : إنه هو اسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين ، فهو أقوى القوى فى عالم الملكوت .

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الإسم ، فقال له : « إنه هو السر المسئول »

---

(١) مقتطفات مما ورد فى ذلك الكتاب فى صفحات ٨٨ – ٨٩ – ٩٠ – ٩١ – ٩٢ – ٩٣ (طبعة دار المعارف).

وأما الأسماء الأخرى فالاسم الثانى هو « واهب الإنعام » والاسم الثالث هو « المكين » والاسم الرابع هو « الكامل » والاسم الخامس هو « القدس » والاسم السادس هو« الشريف » والاسم السابع هو « الحكمة » والاسم الثامن هو « الحكيم » والاسم التاسع هو « الخير» والاسم العاشر هو « الخبير» والاسم الحادى عشر هو « الغنى » والاسم الثانى عشر هو « المغنى » والاسم الثالث عشر هو « السيد » والاسم الرابع عشر هو « المنعم » والاسم الخامس عشر هو « الطيب » والاسم السادس عشر» هو« القهار» والاسم السابع عشر هو « محق الحق » والاسم الثامن عشر هو « البصير » والاسم التاسع عشر هو« الشافى » والاسم العشرون « هو الخلاق » هو مزدا أو العليم بكل شيء .

. . وقد حرّم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدّس النار على أنها هى أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هى الخلاق المعبود .

. . تفيض أقوال زرادشت كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه بالتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان .

. . وفى مذهب زرادشت أن « هرمز » خلق الدنيا فى ستة أدوار : فبدأ بخلق السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق الحيوان ، ثم خلق الإنسان .

. . وأن الناس محاسبون على ما يعملون . فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب فى سجل محفوظ وتوزن أعمالهم بعد موتهم ، فمن رجحت عنده أعمال الخير صعد إلى السماء ، ومن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ، ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب

فيه ولا نعيم إلى أن تقوم القيامة و يتطهر العالم كلّه بالنار المقدسة فيرتفعون جميعاً إلى حضرة هرمز فى نعيم مقيم .

وقد أثبت العقاد — بعد أن أورد كلام الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » عن المجوسية وفرقها — أثبت أن المجوسية كانت موجودة قبل زرادشت وأنها ظلت من بعده .

وقال فى ص ٩٨ :

ولم تختتم المذاهب المتجددة فى المجوسية بمذهب زرادشت وتفسيراته المتعددة ، بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون : وأشهرها وأهمها فى تاريخ المقابلة بين الأديان ، مذهب « مترا » ومذهب « مانى » المعروف بالمانوية .

الإمام ابن حزم وزرادشت :

أما الإمام ابن حزم الظاهرى الأندلسى فإنه قال فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل »[١] :

« أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته ، وليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن صحت عنه معجزة ، قال الله عز وجل « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال عز وجل « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » .

ثم قال : « وقد نقلت كواف المجوس الآيات المعجزات عن زرادشت ، كالصفر[٢] الذى أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره ، وقوائم الفرس التى غاصت فى بطنه فأخرجها وغير ذلك .

(١) ص ٦١ طبعة صبيح .

(٢) الصفر = النحاس الأصفر .

وممن قال إن المجوس أهل كتاب « على بن أبي طالب ، وحذيفة رضى الله عنهما ، وسعيد بن المسيب وقتاده وأبو ثور ، والجمهور أصحاب أهل الظاهر » وقد بينّا البراهين الموجبة لصحة هذا القول فى كتابنا المسمى بالإيصال فى كتاب الجهاد منه ، وفى كتاب الذبائح منه وفى كتاب النكاح منه ، ويكفى من ذلك : صحة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية منهم وقد حرّم الله عز وجل فى نص القرآن فى آخر سورة نزلت منه وهى براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابى .

وبالرجوع إلى المخطوطات فى دار الكتب العربية وفى غيرها اتضح لنا أن هذه النسخة من كتاب «الإيصال» مفقودة لا وجود لها الآن فى مكتبات العالم .

وهناك مقتطفات وبعض أبواب من هذا الكتاب سجلت فى كتاب « الجامع من كتاب الإيصال » وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٣٠١ معارف عامة .

وعن المجوسية قال ابن حزم(١) :

المجوس : هم المصدقون بنبوة زرادشت المكذبون بنبوة موسى .

المانوية : « « « « وعيسى « « «

الصابئون : « المكذبون بنبوة إبراهيم فمن دونه المصدقون بنبوة إدريس (على اعتبار أنه قبل إبراهيم) .

الإمام الشهرستانى والزرادشتية :

فى كتاب الملل والنحل للإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فصل مطول عن المجوسية وفرقها . . تحدث فيه عن الزرادشتية ، وعما أسماه بمزاعمهم ، من أن لهم أنبياء وملوكا ، وعن زرادشت ونشأته إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله

(١) ص ٨٤ من كتابه السابق .

نبياً ورسولا إلى الخلق ، وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث . . .

« وكذلك أثبت العلامة المسعودى فى كتابه « مروج الذهب» أن زرادشت نبي المجوس .

وكذلك ذكر الشهرستانى فى الملل والنحل أن كلمة مجوس تطلق على كل من يعظم النار ويقول بوجود مبدأين هما : النور والظلمة .

وقد تأثر الألوسى بالشهرستانى فقال إن المجوس ، على ما روى قتادة ، قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر ، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران ، وقيل هم قوم اعتزلوا النصارى ، ولبسوا المسوح ، وقيل هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً ، وهم قائلون بأن للعالم أصلين : نوراً وظلمة ، وفى كتاب الملل والنحل ما يدل على أنهم طوائف ، وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة ، وأن لهم شبهة كتاب وأنهم يعظمون النار[١] » .

* * *

وبعد هذا الاختلاف بين علماء الأديان فى تحديد معنى دقيق للمجوسية ومبدء ظهورها ومسراها . .

نقول إن المجوسية لون من ألوان الشرك والوثنية ظهر منذ فجر التاريخ ومنذ الوثنية الأولى للإنسان الأول عندما عبد مظاهر الطبيعة ، فعبد فيما عبد النور والنار .

هذا عن المجوسية بوجه عام . .

---

(١) ص ١١٨ من كتاب زرادشت الحكيم لحامد عبد القادر

أما المجوسية الزرادشتية ، فكانت بعد موت زرادشت سنة ٥٨٣ قبل الميلاد (كما يقولون) وبعد أن حرّفوا تعاليمه وانتقلوا من تعظيم النار إلى عبادتها.

وكذلك بعد هذا الاختلاف بين العلماء والمؤرخين حول زرادشت ونبوته نقول :

إن هؤلاء الذين أعلنوا نبوته مندوحة ، فقد وصل إلى علمهم أن له كتاباً وأنه كتاب موحى به ، وأنه فى كتابه دعا إلى الله وإلى وحدانية الله والى العمل الخيِّر لنيل الجزاء الأخروى ، وتوفرت لدعوته الأركان الثلاثة التى يجب أن تتوفر فى كل دعوة إلهية .

ثم إن القرآن ذكر المجوس مع الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى فكأنه بذلك يشير إلى أنهم أهل كتاب[١] لأنه سلكهم ضمن أهل الكتاب الذين إذا ما رجعوا إلى كتابهم ألفوا الوحدانية فوحدوا ، وألفو االثواب والعقاب فاعتقدوا بيومه وألفوا العمل الصالح والدعوة إليه فعملوا به ودعوا إليه .

وهذه هى الركائز التى توجد فى كل كتاب سماوى، وما كان القرآن ليدعوهم تلك الدعوة إلا لأنهم أهل كتاب . .

على أن الأصوب ، بل الأسلم والأحوط أننا نرى أنه إذا كان الله سبحانه لم يخبر نبيه عليه السلام بأسماء بعض الرسل ولم يقص عليه فى القرآن نبأهم ، فما كان لنا والحالة هذه أن نقطع أو نقرر نبوة واحد من هؤلاء مهما كانت الدلائل والمرجحات ، ومهما قال القائلون أو اتجه المتجهون ، لانقطع على وجه الصحة أو التأكيد ، بل نميل إلى وجه الظن أو الترجيح .

---

(١) قال الإمام محمد عبده فى تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٤٩ وقد اختلف فى المجوس ، فقيل يدخلون فى المشركين لأنهم لا كتاب لهم ، وقيل بل كان لهم كتاب ، وبعض الفقها ميقول لهم شبهة كتاب وقد يشعر بأنهم أهل كتاب قوله تعالى فى سورة الحج آية ١٧ : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » فالعطف يقتضى المغايرة .

فليس من المعقول أن يخفى نبأ نبوة زردشت عن محمد ونعلمه نحن دون محمد .

وما دام القرآن ومن نزل عليه القرآن لم يصرحا باسمه فنحن نرجح ولا نقطع فى ذلك برأى حاسم ، كما نرجح ، مثلا ، أن نسلك بعضا من رجالات أوربا الأقدمين كسقراط وغيره ممن دعوا إلى الوحدة الإلهية وإلى عبادة إله واحد وإلى فعل الخير وعمل البر جاز لنا أن نسلكهم فى عداد الأنبياء ما دام قد ثبت بما لا يقبل الشك أن دعوتهم سارت فى النهج الإلهى العام الذى رسمه الله لأنبيائه .

الأسلم إذن عدم القطع بالنبوّة كما قال العلامة ابن حزم فى كتابه الفصل (ص ٨٥ طبعة صبيح) « إنما صدقنا بنبوة عيسى وموسى عليهما السلام لأن محمداً صلى الله عليه وسلم صدقهما وأخبرنا عنهما وعن أعمالهما ولولا ذلك لما صدقنا بهما ولما كانا عندنا بمنزلة إلياس واليسع ويونس ولوط فى ذلك ، كما أننا لا نقطع بصحة نبوة سموال وحقاى وحبقون وسائر الأنبياء الذين عندهم كموسى وسائر من ذكرنا ولا فرق ، ولكن نقول آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان المذكورون أنبياء فنحن نؤمن بهم ، وإن لم يكونوا أنبياء فلا نُدخل فى أنبياء الله تعالى من ليس منهم » .

الباب الثالث

اليهودية

تقديم :

اليهودية دين سماوى مقدّس ، وعقيدة اليهود الأصلية عقيدة إلهية مقدسة واليهود أصحاب كتاب مقدس منزل من عند الله .

ويحدثنا التاريخ أن اليهود من سلالة « يهود » بن يعقوب عليه السلام ، وأن يعقوب كان يطلق عليه اسم « اسرائيل » لذا يسمون باسم « بنى إسرائيل » .

ويحدثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أكرمهم ، وحباهم ، وخصّهم بمزيد من النعم والتكريم ، وفضلهم على كثير من العالمين من أهل زمانهم ؛ وأرسل إليهم رسلا عديدين ، وأنزل لهم التوراة على موسى فيها هدى ونور ، وأنزل لهم الإنجيل على آخر رسول أرسل إليهم ، وهو عيسى عليه السلام .

كذلك حدّثنا القرآن عنهم أنهم لم يستقيموا على الطريقة ، ولم يتبعوا النور الذى أنزل لهم ، وأنهم انحرفوا عن الطريق ، وحرّفوا التوراة وبدّلوا من تعاليمها ، وتغالوا فى عداوتهم ، واغتالوا عديداً من أنبيائهم ، ومالوا عن الحق ، وحادوا عن الجادة ، وصدّوا عن دين الله . .فلا جرم أن كتب الله عليهم التيه والتشريد ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

اليهود عبر التاريخ :

فى العالم القديم ، وقبل ميلاد المسيح بسنوات جاوزت الألفين ، قذفت الصحراء فى شبه جزيرة العرب نيرانها على عديد من القبائل والجماعات العربية

التى طاردها القحط والجدب فلم تجد الكلأ والعشب ، ولا الماء ولا الغذاء ، وساقتها قسوة الحياة وشظف العيش إلى الرحيل . . وإلى الهجرة ، فهاجرت وهجرت ، هجرت مسقط رأسها فى شبه الجزيرة العربية ، وهاجرت تبغى أن تجد فى مهجرها كلأ ومنتجعاً . . وزاداً وظلالا . .

هجرت الصحراء وولت وجهها شطر الماء . . شطر البحر المتوسط على شاطئه القريب من مصر ، ومن جزيرة « كريت » تنعم بالشبع والرى .

وكانت قبيلة « الفنيقيين » من هاته القبائل التى استقرت على شاطئ البحر حيث (لبنان الآن) .

وكما استقرت هذه القبيلة العربية على ضفة البحر المتوسط ، كذلك استقرت قبيلة « كنعان » العربية على ضفة نهر الأردن الغربية .

وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد « الساميين » ، و « سام » هو الجد الأعلى الذى تنتسب إليه هذه القبائل جميعها .

واليهود أو بنو إسرائيل « ساميون » وهنا قد تبدو علامة استفهام ضخمة ، وتساؤل كبير . . فما دام العرب واليهود من سلالة واحدة ، وما دام التاريخ سجل أن العرب واليهود أبناء عمومة ، إذ هم من نسل يعقوب بن إسحق ، والعرب من نسل إسماعيل ، وإسماعيل وإسحق أخوان ، وأولادهما أبناء عم ، فإلام الخلف بينهما ؟ وعلام المناجزة والشقاق ؟

وعن هذا التساؤل يجيب الدكتور جمال حمدان فى كتابه « اليهود أنثروبولوجيا» فيقول فى ص ٩١ من هذا الكتاب :

« قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ، وإنما تاريخياً فحسب ، حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين ، وحين كانت العبرية لغة

تشتق من الأصول العليا التى تفرعت عنها العربية .

وقد يكون من الصحيح ، بل أنه لصحيح بالفعل ،أن إسماعيل أبا العرب ، وإسحاق أبا اليهود أخوة غير أشقاء ، وكلاً ابن إبراهيم .

ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الأخوة على تسليمها ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غريبة ، ووصل النوبان إلى حد الإنحلال والإحلال ، حتى أصبحنا إزاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة بإسحق فضلا عن إسماعيل . ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسياً أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب ! !

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين ، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم ، وشريحة لحماً ودماً ، وإن اختلف الدين . .

ومن هنا فإن اليهود فى أوربا وأمريكا ليسوا كما يدّعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين .

أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ، ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده — فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعماراً أو اغتصاباً ».

إسرائيل . . وأبناؤه :

كان يعقوب (إسرائيل) يقيم فى أرض كنعان (الشام) وقد أنجب من الولد اثنى عشر ولداً ، : يوسف ، بنيامين ، شمعون ، ليفى ، راوبين ، يهودا ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالى ، جاد ، أشير .

هؤلاء هم أولاد يعقوب المعبَّر عنهم فى القرآن بالأسباط .

وقد اعترف القرآن بهؤلاء الأولاد إجمالا .

يقول متحدثاً عن الأسباط داعياً المؤمنين إلى الإيمان بهم ، وبأنبيائهم : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » . (البقرة : ١٣٦) .

ويقول تفسير الجلالين (حـ ١ ص ١١١) : « والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى إسماعيل ، فأسباط بنى إسرائيل هم : قبائلهم » .

يريد بالأسباط : تلك القبائل المتناسلة من هؤلاء الأبناء الإثنى عشر ، ويؤيده فى هذا الاتجاه قول الله عنهم « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما » .

وعلى هذا يكون المراد بالأسباط فى الآية الأولى : « أنبياء قبائل الأسباط » .

ويقول البعض إن هؤلاء الأبناء الإثنى عشر كانوا جميعاً أنبياء ، مستدلا بقول الله تعالى الذى يتضمن ذلك : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . . » (آية ١٦٣ من سورة النساء) .

على أن القرآن لم يعترف صراحة إلا بنبوة واحد منهم ، وهو « يوسف » عليه السلام . يقول القرآن مخاطباً يوسف : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق . . » .

وليوسف فى القرآن سورة صوَّرت فى براعة وتحليل ودقة وعمق حياته ، ومنزلته عند والده يعقوب ، وموقف إخوته منه ، وحسدهم له ، وحقدهم عليه

وتآمرهم به (ومن أجل هذا استبعد البعض أن يكون هؤلاء أنبياء) كما صورت قدومه إلى مصر وحفاظه على طهره ، وإخلاصه لرئيسه ، واعتقاله وسجنه ، ثم توليه وزارة التموين فى مصر إبان المجاعة التى حدثت فى عهده بمصر والشام ، كما تحدثت عن قدوم أولاد يعقوب إلى مصر لشراء قوت لأهاليهم والتقاء يوسف بإخوته ودعوته لهم للإقامة بمصر مع أبيهم يعقوب .

* * *

وقد استقر بنو إسرائيل بمصر منذ ذلك العهد قرابة ثلاثة قرون إلى أن خرج بهم سيدنا موسى إلى صحراء سينا .

وقد ردد البعض : أن هذه الهجرة ، أى هجرة إسرائيل وأولاده التى كانت فى عهد يوسف إلى مصر تعد الهجرة الثانية بالنسبة للهجرات اليهودية ، أما الهجرة الأولى فهى التى قام بها إبراهيم سنة ٢٠٠٠ ق . م من بابل (العراق) إلى أرض الشام ومصر معتبرين أن إبراهيم هو أساس للفرق اليهودية وأب للإسرائيليين .

والحق أن هذه الدعوى ــ دعوى أن إبراهيم أب اليهودية ــ ليست وليدة اليوم ، بل نادى بها الإسرائيليون من قبل وندد بها القرآن وفنَّدها فقال :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم هؤلاء حججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . (آل عمران : من آية ٦٥ إلى ٦٧)

فإبراهيم عليه السلام ، عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة وأن ملة إبراهيم ــ والحالة هذه ــ لا يمكن أن تكون اليهودية .

الأرض المقدسة (١)

قضى الله على موسى أن يذهب ببنى إسرائيل ليدخلوا الأرض المقدسة : أرض كنعان (فلسطين وما جاورها من بلاد الشام) وكان موسى طيلة تلك الحقبة التى مكثها مع بنى إسرائيل فى صحراء سيناء ، كان دائماً ما يذكِّرهم بنعم الله وفضائله عليهم ، ولما ذكرهم بنعم الله عليهم أمرهم بالجهاد والقتال، وذلك بالخروج من أرض سينا إلى الأرض المقدسة تنفيذاً لأمر الله .

وكان موسى قد بعث فرقة استطلاعية قوامها إثنا عشر رجلا ترود أرض الشام ، وتستكشف أحوالها وأهلها ، ولما رجعت الفرقة علم منها أن أهلها قوم جبارون عمالقة ذوو منعة وقوة ، وما أن سمع الإسرائيليون هذه الأنباء حتى أسقط فى أيديهم ، واهتزوا خوفاً وفزعاً ، وتمثلت لهم نهايتهم على يد هؤلاءِ الجبارين ، فقالوا لموسى لن ندخل هذه الأرض حتى يخرج أهلها منها، وجبنوا . . وامتنعوا عن تنفيذ أمر الله ، والتجأ موسى إلى ربه ودعاه منتظراً قضاءه وحكمه عليهم .

وصدر حكم الله معلناً أن هذه الأرض المقدسة لن تطأها أقدام هؤلاء الفجرة الفسقة ، ولن يكتب لهم الاستقرار فيها أبداً ، فهى محرَّمة عليهم إلى الأبد ، وعقاباً لهم فقد حكم الله عليهم أن يتيهوا حيث هم فى صحراء سينا أربعين سنة يسيرون فيها حائرين ، لا وجهة لهم ، ولا هدف ، ولا مقصد ، بل حيرة وضلال إلى أن يفنى جيلهم الخائر الضعيف الذى نشأ فى الذل وألف

---

(١) الأرض المقدسة أو أرض الميعاد : أى التى وعد الله إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تكون ملكاً لأولادهم ، وأن يطردوا منها الأمم التى يسكنونها حتى تكون هذه الأرض خالية من الشرك خالصة للإيمان .

الاستعباد ، ويأتى جيل جديد بدماء جديدة وعزائم صلبة تقوى على تحمل تبعات الرسالة وتكاليف النبوة وعلى تنفيذ أوامر الله .

ومع نهاية الأربعين عاماً هلك فى الصحراء هؤلاء الإسرائيليون الذين أذلّتهم العبودية فأماتت ضمائرهم وأحاسيسهم وأرضعتهم لبان الذلة والهوان ،فلم يصيخوا لصوت السماء ولم يذعنوا لكلمة الحق .

ولم يقدر الله لموسى ولا لأخيه هارون أن يدخل أحدهما الأرض المقدسة ، فمات هارون ودفن فى جبل من جبال سيناء ولحقه موسى بعد عام ، بعد أن أعلن فى بنى إسرائيل دين الله .

عن كل هذا ، تتحدث الآيات الآتية من سورة المائدة :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

* * *

القرآن والتوراة

على جبل طورسينا كلّم الله نبيه « موسى » وأوحى إليه التوراة ؛ شريعة لبنى إسرائيل ، وكتاباً فيه هدى ونور لهم ، يوجههم ، ويهديهم ، ويرشدهم ، ويوضح لهم معالم طريقهم الدنيوى والأخروى .

لم ينزل بها ملك ، ولم تنزل منجمة مجزأة ، بل تلقاها موسى من ربه وحياً إلهياً مباشراً . . ثم كتبها موسى ودوّن تعاليمها فى أسفار وألواح بعد خلوصه من هذه المناجاة وأوبته من هذا اللقاء الإلهى .

ونرجع للقرآن نستبين منه بعض تعاليم التوراة ووصاياها ، وما نادت به أو نددت به ، وما فيها ، أو بعض ما فيها ، يقول القرآن :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء[1] » .

هى هداية ونور لليهود الذين يشهدون بها ويحافظون على قداستها ، وهى المشعل الذى تلقفه من يد موسى من جاء بعده من الأنبياء لبنى إسرائيل وليس معهم كتاب ، وإنما بعثوا للعمل بالتوراة هذه يحكمون بها فيما بينهم ويقيمون تعاليمها وينفذون أحكامها ، ويقول القرآن :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف

---

(١) آية ٤٤ من سورة المائدة .

بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له[١] » .

فى التوراة أحكام من قصاص وعدالة وتشريع يحفظ للأناسى حقوقهم ويمنعهم من البغى والتعدى والتطاول . ويقول الله :

« وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء[٢] » .

وفيها مع العظة والهداية شريعة مفصّلة لهم وعلى قدّهم : من أمور المعاش والمعاد التى قدرها الله لهم وحكم بها عليهم « وعندهم التوراة فيها حكم الله[٣] » .

وفيها البشارة بمحمد وبرسالته « . . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل[٤] » .

والتوراة بعد ذلك كله ، ككل كتاب سماوى مقدس تقرر وحدانية الله والاعتراف باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب .

هذه هى التوراة الأصيلة ، التوراة الإلهية التى لم يتطرق إليها تشويه أو افتئات أو افتراء . .

لا شبهة فيها ، ولا شائبة بها ، ولا غرو أن وجدنا القرآن يعبّر عند حديثه عنها بـ « أنزلنا » و « كتبنا » للتفرقة بينها وبين التوراة البشرية الموضوعة التى ما أنزل الله بها من سلطان .

كما يحكم القرآن بأن التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان

---

(١) آية ٤٥ من سورة المائدة .
(٢) آية ١٤٥ من سورة الأعراف .
(٣) آية ٤٣ من سورة المائدة .
(٤) آية ١٥٧ من سورة الأعراف .

والإخفاء ، فهى لذلك ليست التوراة الإلهية الأصلية الأصيلة ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية ، بل هى توراة مزيفة فيها القليل من الحق والكثير من الزيف .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به »[١] .

« قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا[٢] » .

* * *

(١) آية ١٣ من سورة المائدة .
(٢) آية ٩١ من سورة الأنعام .

من مظاهر التحريف ودلائله

اليوم الآخر فى أسفار اليهود :

إن المتتبع للتوراة المتداولة والمستقرئ لآياتها والقارئ لأسفارها لا يكاد يجد فيها ذكراً للروح ولا للروحانية ، ولا لليوم الآخر وما يحفل به من جزاء ومثوبة[1] . . ! ! فليس أدل على تحريفها من أنها خلت أو كادت من كل هذا .

والكتب السماوية من ركائزها الدعوة إلى التوحيد الإلهى والدعوة إلى الإيمان باليوم الأخروى ، فإذا ما خلت التوراة من هذه الركائز أو من إحداها ، فهى ليست توراة الله ، بل هى ألعوبة المحرفين . هى أوراق المزيفين، هى قراطيس نسختها يد أفاق أفاك ونسجتها يد مزيف مخاتل .

وكأنى بطبيعتهم المادية قد اتجهت بهم من حيث لا يشعرون إلى أن يكون المتحريف ماديا دنيويا تنضح به طبيعة اليهود البعيدة عن الروحانية ، فلا عجب أن خلت توراتهم المصنوعة — أو كادت — من أية إشارة إلى الروحية والإشراق والإيمان بالغيبيات مما يدور فى الحياة الأخرى ، وتوغلت فى الماديات فجسدت الإله — سبحانه — وتطاولت على مقام الأنبياء فنزلت بهم إلى الدرك الحيوانى .

العقيدة الإلهية ' أسفار اليهود :

ولعل فكرة الألوهية إبان التحريف قد تطامنت فى عهد تدوين هذه

---

(١) يقول ابن حزم فى كتابه الفصل ٨٦ج٢ « والتوراة التى بأيدى اليهود ليس فيها ذكر ما لنعيم الآخرة أصلا ، ولا لجزاء بعد الموت ألبتة » . كما أثبت ذلك المرحوم الأستاذ العقاد فى ص ١١٢ من كتابه « الله » حيث قال : « وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر » .

الأسفار، فصوروا الذات الإلهية فى صورة بشرية ضعيفة ، وافتأتوا من الحوادث وافتروا من الأقاصيص الكواذب ما جسم الألوهية وجسدها ، وما ألحق بها الكثير من صفات الجهل والغفلة والضعف والضعة وضحالة التفكير وضآلة الرأى وساذج اللفظ وطفولية السلوك وعماية المتجه ! ! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

يذكر الإصحاح الثالث من سفر التكوين عن قصة آدم وحواء أن الإله كان يريد بقاءهما جاهلين ، حتى لا يشاركاه فى صفة من أخص صفاته ، وأن الله استجوبهما واستنتج من فعلهما ومن استجوابهما أنهما لا بد أن يكونا قد أكلا من الشجرة وأن الإنسان قد أصبح « أحد الآلهة لتمييزه بين الحسن والقبيح » وأنه لا بد من طرد الإنسان من الجنة ، حتى لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هى شجرة الخلد فيكفل لنفسه « البقاء » وهو أرقى صفات الإله .

أما القرآن كتاب الله المحفوظ من التغيير والتبديل والتحريف فقد ساق هذه القصة فى أكثر من موضع — ساقها فى ٢٥ آية من ثمان سور — وكلها آيات تدل على كمال الله وكمال علمه وتمام قدرته وتنزيهه عن كل ما يشوب ويشين .

وفى الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين فى قصة إهلاك قوم لوط وتدمير قريتى : سدوم وعموره . . يذكر ذلك السفر أن ثلاثة رجال وهم : الله وملكان معه قدموا على إبراهيم وهو جالس بباب خيمته ، فأسرع إبراهيم لاستقبالهم بعد أن عرف الله من بينهم ، ورجا الله ومن معه أن يستريحوا عنده بعض الوقت وأن يتكئوا تحت شجرة قريبة من الخيمة ليزول عنهم بعض ما ألم بهم من تعب السفر وقدّم إليهم ماء ليغسلوا منه أرجلهم وقدّم إليهم كسرة خبز ليسندوا بها قلوبهم ، ثم أسرع إبراهيم إلى الخيمة وأمر زوجته سارة أن تصنع لهم خبزاً طازجاً وفطائر ، يقول هذا الإصحاح : « وظهر

له الرب عند بلوطات ممرا ، وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك ، ليؤخذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون ، لأنكم قد مررتم على عبدكم ، فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً اعجنى واصنعى خبزملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصاً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

ثم يذكر الإصحاح أن الرب سأل إبراهيم عن سارة فقال له إنها فى الخيمة فقال له الإله إنه سيمر عليهما فى السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاماً على الرغم من تقدمهما فى السن ، ويمضى الإصحاح قائلا » :

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم فقال الرب : هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله .

وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم ، أما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب .

ثم يذكر الإصحاح أن إبراهيم قد اشتبك مع الرب فى جدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما لعله يثنيه عن ذلك وفى النهاية كما جاء فى نهاية الإصحاح : « ذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه » .

ويكشف القرآن الكريم حقيقة هذه القصة وحقيقة شخوصها وأنهم كانوا ملائكة مرسلين من عند الله بعد أن تشكلوا فى صورة آدمية فحيوا إبراهيم وحياهم وقدم إليهم طعاماً وما لبث أن نكرهم وأوجس منهم خيفة عندما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ،
فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم
وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط[١] . . » .

أما صورة الإله المتعَب المجهَد الذى نال منه الكلال كل منال ، والذى هده التعب وحطه الجهد والنصب هذه الصورة يسجلها الإصحاح الثانى من سفر التكوين الذى قرر أن الله بعد أن خلق الكون بسمائه وأرضه فى ستة أيام استراح فى اليوم السابع ، وكان يوم سبت وأن الله من أجل ذلك حرم العمل فى هذا اليوم ، يقول الإصحاح :

« فأكملت السموات والأرض وكلُّ جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله فى اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل . . » .

وما أصدق القرآن حين يقول :

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »[٢] . (سورة ق : آية ٣٨)

لقد انحرف التحريف بالإسرائيليين إلى مهاوى الشرك وتعدد الآلهة ، فقرروا أن لهم إلهاً خاصاً بهم وللشعوب الأخرى آلهة أخرى ، وأن إله شعب إسرائيل

---

(١) من سورة هود : ٦٩ — ٧٠ .   (٢) لغوب = تعب .

ليس كبقية آلهة الشعوب الأخرى ، وأنهم أولاد إلههم وأحباؤه » ولم يتخلص إلههم هذا كل التخلص من جميع صفات الحوادث ، بل ظل عالقاً به ، فى نظرهم ، بعض هذه الصفات ، فمن ذلك أن أحدث أسفار توراتهم المزعومة، وهو سفر اللاويين يذكر فى أكثر من موضع أن الضحايا المحرّقة (وهى التى تحرق أجزاؤها فى المذبح تحت إشراف أحد اللاويين) يرتاح لها الإله ، ويفيد منها ، وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل كل الغضب إذا لم تقدم إليه ، أو إذا قدمت إليه فى صورة غير الصورة المقررة فى شريعتهم، وأنه قد يصبُّ حينئذ سوط عذابه على المقصرين فيرسل عليهم ناراً تحرقهم[1] » .

وعلى مزاعمهم هذه يرد القرآن الكريم إذ يقول :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

والتوراة الإلهية شأنها شأن كل كتاب إلهى يدعو إلى التوحيد وإلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لا زوجة له ولا ولد ، ولا شريك . . لذا كانت نصوص التوراة الإلهية تقرر ذلك كما تقرره الكتب السماوية جمعاء ، إلا أن التحريف جار على هذه الأصول الدينية ونادى أحبار اليهود ورهبانهم بما يخالف تلك الحقائق الإلهية ، فاتخذ بعض طوائف اليهود أحبارهم ورهبانهم آلهة تعبد أو تشارك فى العبادة أو تتناسل من الله ، وفى ذلك يقول القرآن :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم
وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .
(آية ٣١ سورة التوبة)

---

(١) من كتاب « الأسفار المقدسة » للدكتور وافى .

ويظهر أنه بعد أن قويت عقيدتهم من التوحيد انتكست مرة أخرى انتكاساً كبيراً فى العهد الذى ألف فيه التلمود (القرون الستة الأولى بعد الميلاد) .

فأسفار التلمود تظهر إله إسرائيل متصفاً بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص ، ويبدو ذلك على الأخص فيما يرويه التلمود عن نشاط الله وأعماله فى الليل والنهار ، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل، فتقرر بعض أسفاره أن الله يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار فى مذاكرة الشريعة ، والساعات الثلاث الثانية فى شئون الحكم بين الناس ، والساعات الثلاث الثالثة فى تدبير العيش للخلق ، أما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيها فى اللعب مع الحوت ملك الأسماك ، وهو حيوان كبير جداً يتسع حلقه لسمكة طولها ثلاثمائة فرسخ بدون أن تضايقه ، وقد رأى الله أن يحرمه من أنثاه حتى لا يتناسلا .

وأما ساعات الليل فيقضيها الإله فى مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذى يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية .

وقد تغير هذا النظام بعد أن قدر الله هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل، وقد اعترف الإله بخطئه فى هذا الصدد وندم على مافعله وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم ! ! وكان إذا بكى سقطت من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويهما من فى الآفاق وتضطرب المياه وترتجف الأرض فتنجم عن عن ذلك الزلازل .

ويزعم التلمود أن الله يردد فى أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على

ندمه مما فعل فيقول : تبًّا لى أمرت بخراب بيتى وإحراق الهيكل وتشريد أولادى ! !

ويقول حينما يسمع الناس يمجدونه : طوبى لمن يمجده الناس وهو مستحق لذلك ، وويل للأب الذى يمجده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك ، لأنه قد قضى عليهم بالتشريد والشقاء .

ويقرر التلمود كذلك أن الإله قد تستولى عليه نزوة غضب فيقسم ليأتين أعمالا شريرة أو غير عادلة ثم يثوب إلى رشده فيتحلل من يمينه كما حدث يوم أن غضب على بنى إسرائيل فى الصحراء وأقسم أن يبيدهم ، ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشعت نزوة غضبه[١] » .

ويقول التلمود عن المسيح : « أن يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار ، وأن أمه مريم أتت به من العسكرى (باندار) عن طريق الخطيئة ، وأن الكنائس النصرانية هى بمقام القاذورات ، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة ، وأن قتل المسيحى من الأمور المأمور بها ، وأن العهد مع المسيحى لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودى القيام به ، وأنه من الواجب أن يلعن اليهودى ثلاث مرات رؤساءَ المذهب النصرانى وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة لبنى إسرائيل[٢] » .

الأنبياء فى أسفار اليهود :

ومن مظاهر التحريف فى التوراة أن بعض الأنبياء صورتهم التوراة فى

---

(١) ص ٢٨ من كتاب « الأسفار المقدسة » للدكتور وافى . ويرجع إلى كتاب « من التلمود » الذى أخرجه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) ص ٢٤٩ من كتاب « اليهودية » للدكتور أحمد شلبى . نشر مكتبة النهضة .

صورة وثنية أو حيوانية تنضح بعقلية المزيف ونفسيته . . لقد اتهمت التوراة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، بالكذب ، ولصقت به عن قصد أو غير قصد أخس الصفات وقبيح الفعال ، من التحايل ، والسكوت على الفاحشة وعلى الاغتصاب ، ومن الرضا بالمهانة ، والخوف من السلطان ، ثم بالتفريط فى العرض بإسلام زوجته للرئيس ! !

وذلك أيام أن رحل سيدنا إبراهيم فاراً بعقيدته إلى فلسطين ، ومعه زوجته « سارة » وابن أخيه « لوط » وامرأة لوط . . وحدثت مجاعة وجدب ، فانتقل إبراهيم إلى « مصر » مهاجراً ومعه سارة زوجته ، وفى الطريق إلى مصر أخبر إبراهيم زوجته سارة — كما تقول التوراة — بأنه يخشى عليها وعلى جمالها من المصريين إذا ما وقعت أعينهم عليها ، وأنهم لن يتورعوا عن قتل زوجها إذا ما علموا أنها متزوجة ، واتفق معها إبراهيم ، لأجل أن تسلم له حياته ، أن توافقه فى دعواه بأنها « أخته » ! !

وتقول التوراة أن ملك مصر — وكان من العمالقة الهكسوس — علم بجمال سارة بعد أن أخبرته الحاشية أن امرأة جمية وفدت إلى مصر مهاجرة ومعها رجل ، فاستدعاهما الملك إلى قصره ، وعلم من إبراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخت إبراهيم ، فاتخذها الملك من نسائه بعد أن بالغ فى إكرام إبراهيم ومنح له قطعاناً من الغنم والثيران والحمير .

ثم سرعان ما ظهر وباء فى القصر الملكى أصاب الملك وحاشيته . . وعرف الملك أن هذا الوباء لا ينزل بجماعة إلا إذا ارتكبت فيها فاحشة : فاحشة الزنا ، وفاحشة الكذب ، وما لبث الملك أن استدعى إبراهيم وبالغ فى تأنيبه وتعزيره ، لافترائه وكذبه وزعمه أن سارة أخته لاامرأته ، وما تمخض عن هذا الكذب من تفشى الوباء فى قصر الملك وارتكاب الفاحشة ، إذ عامل الملك

سارة كإحدى نسائه فى الوقت الذى ما زالت هى فيه تحت إبراهيم وفى عصمته .

ويقول سفر التكوين إن إبراهيم بعد أن طرده الملك من مصر هو وسارة ، وبعد أن سمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما وهب له من مال ومتاع هاجر إلى منطقة « جيرار » ومثّل أمام حاكمها الدور الذى مثله أمام فرعون مصر، وكاد الحاكم ويدعى « أبا مالك » يرتكب الإثم مع سارة برضا إبراهيم وتحت سمعه ، لولا أن الحاكم رأى رؤيا منامية أطلعه الله فيها على حقيقة سارة فاستدعى إبراهيم ولامه ووبخه . .ثم منحه هبة من نعاج وثيران وعبيد على أن يحمل عصاه وامرأته وما معه ويرحل إلى منطقة أخرى ! !

عن هذا كلّه يقول الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين : « وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك ، لأن الجوع فى الأرض كان شديداً وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك ، فحدث لما دخل إبراهيم إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماءٌ وأتن وجمال فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة إبراهيم، فدعا فرعون إبراهيم وقال: ما هذا الذى صنعت بى لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك!! لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له ».

ويقول الإصحاح العشرون من سفر التكوين :

« وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادس وشور ، وتغرّب فى جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل « أبو مالك » ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبى مالك فى حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها فقال : ياسيد ، أأمة بارة تقتل ، ألم يقل هو لى إنها أختى ، وهى أيضاً نفسها قالت هو أخى ، بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا ، فقال له الله فى الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إلى ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى فيصلى لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك .

فبكر أبو مالك فى الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام فى مسامعهم فخاف الرجال جدا ، ثم دعا أبو مالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة ، أعمالا لا تعمل عملت بى وقال أبو مالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشىء فقال إبراهيم : إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله ألبتة فيقتلوننى لأجل امرأتى . . . إلخ » .

وهكذا تصور التوراة المحرفة إبراهيم على أنه يتاجر — كأى يهودى ضال تائه لا أخلاق — بامرأته ، إذ ينتقل بها من بلد إلى آخر كاذباً مخفيا الحقائق هادفاً جمع المال والهدايا والعطايا ، مستخفاً بالشرف مستهيناً بالطهر فى سبيل أن تسلم له حياته وأن يحصل على ما يبتغيه من المال .

أما القرآن الكريم فإنه يصف إبراهيم بأنه بلغ المرتبة المثالية فى الصدق ،

فلم يكن صادقاً فحسب بل كان صدّيقاً (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا) ولا عجب ، فقد كان يدعو ربه قائلا : « رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » .

صورة واضحة جلية مشرقة تلك هى صورة إبراهيم فى القرآن . .

وصورة مشوهة محرفة مظلمة هى صورته فى التوراة . .

وشتان ما بين الصورتين ، وما أبعد البون بينهما ، إنه الفرق بين الصدق والكذب ، والبون بين المين والحق .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قصص الأنبياء ص ٩٩ : «وقصة ارتحال إبراسيم إلى آخرها لم تذكر فى القرآن وإنما ذكرت فى التوراة ، وقد أعادوا لنا بها القصة التى وقعت فى مصر ، وأنا أستبعد حصولها ، لأن سارة أيام أن كانت فى مصر كانت بنت سبعين سنة وحين كانت فى أرض أبى مالك كانت سنها إحدى وتسعين سنة ، وليس من المستساغ أن يطمع ملك مترف فى بنت سبعين أو تسعين » .

ودليل آخر :

وقصة التوراة عن داود عليه السلام ــ كما جاء فى الإصحاحين ١١ ، ١٢ من السفر الثانى لصمويل ــ قصة كلها خنا وزنا وفحش وإثم وتحايل للتخلص من آثار جريمة خلقية واعتداء على حرمات الآخرين .

وحاشا للشخص المؤمن ــ فضلا عن النبى المرسل ــ أن ينزل إلى هذا الدرك من الغصب والاعتداء ، تقول التوراة : إن داود كان يمشى على سطح قصره فرأى فى منزل مجاور امرأة تستحم ، فأغرم بها وهام ، وسأل

عنها فعلم أنها زوجة « أوريا » الحيثى أحد جنوده المرسلين فى حملة عسكرية تحت قيادة « يؤاب » فبعث فى طلبها ، وجىء بها إليه ، فواقعها وضاجعها وقضى منها وطرا . .

وعادت إلى منزلها ، وأعلمته أنها حملت منه ، وأخذ يفكر للخلاص من هذه الورطة إنه يريد أن يلقى حمل فعلته على غيره ! ! وسرعان ما استدعى داود من الحرب أوريا بحجة سؤاله عن نتائج الحملة ، ثم نفحه بعض الهدايا وطلب إليه أن يذهب إلى منزله ليستريح ويبيت ليلته . وكان داود يرمى من وراء ذلك أن يقرب الرجل زوجته فينتسب حملها إليه ، ولا تعلق بداود أية شائبة . . غير أن الجندى أوريا آثر أن يبقى ليلته هذه مع خدم قصر داود ، حتى لا ينعم هو بالراحة وزملاؤه فى ساحة الحرب بعيدون عن زوجاتهم .

وفى الصباح عندما علم داود أن حيلته أخفقت أمر الجندى أن يعود سريعاً إلى الجبهة حاملا رسالة إلى القائد (يؤاب) أخبره فيها أن يضع الجندى أوريا فى الخطوط الأمامية فى أخطر منطقة حربية ، ليقتل ، ولما قتل ضم داود تلك الزوجة إلى نسائه بعد أن زنى بها . . وبعد أن عمل على التخلص من زوجها! ويختم الإصحاح الحادى عشر من هذا السفر تلك القصة بقوله :

« فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً ، وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب » .

أما القرآن فإنه ينسب لداود كل فضل ونبل وطهارة واستقامة ، فهو نبى مختار ، آتاه الله علماً وفضلا وملكاً وحكمة .

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد[١] » .

« واذكر عبدنا داود ذا الأيدى إنه أوّاب إنّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق[٢] » .

أضواء قرآنية كاشفة ميزت شخصية داود ونفسيته . فهو مسبِّح أواب رجاع إلى الله .

وتعبير القرآن فى وصفه لداود : بعبدنا ، دليل على تكريمه ، يضاف إلى ذلك التكريم تكريم آخر وهو أن الله جعل الطير والجبال تسبح معه بالعشى والإشراق .

وعلى هذا يمكن أن نتجه بأن معنى قوله تعالى (ذا الأيدى) إى ذا القوة الإيمانية التى تجرفه إلى التسبيح والاستغفار ، وصاحب القوة الدينية التى تدفعه إلى العبادة والذكر والرجوع إلى الله .

ويمضى السفر الثانى من سفرى صمويل فيقص أن الله أرسل إلى داود « ناثان » وقصَّ عليه قصة رجلين أحدهما موسر غنى يمتلك قطيعاً من الأبقار والنعاج والآخر لا يملك إلا نعجة واحدة ، وفى يوم هبط على هذا الشخص الغنى ضيف فلم يكن من الغنى إلا أن عمد إلى نعجة الفقير فاغتصبها وذبحها للضيف .

ولما طلب « ناثان » الحكم من داود على هذا الغنى وفعلته قال داود : إن هذا الرجل معتدى يستحق الموت .

فقال له « ناثان »: إنك أنت هذا الرجل المعتدى ! !

---

(١) آية ١١ من سورة سبأ .
(٢) آية ١٨ من سورة ص .

ولم يسع داود إلا أن يعترف ويثوب إلى رشده ويتوب إلى ربه طالباً مغفرته يقول الإصحاح الثانى عشر من هذا السفر « فقال ناثان لداود أنت هذا الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل أنا منحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا ، وإن كان ذلك قليلا كنت أزيد لك كذا . . وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ، قد قتلت أوريا الحيثى بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحيثى لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس ، فقال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب » ؛ ويقول القرآن :

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

(سورة ص : ٢٥)

قال البيضاوى فى تفسيره : « وأقصى ما فى هذه القصة : الإشعار بأنه عليه السلام ودّ أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله ، فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب » .

وإلى هذا التفسير نميل لأنه لا يتنافى مع العصمة . وجمهور المفسرين لم يستقروا على رأى فى تحقيق الذنب الذى ارتكبه داود حتى رجع واستغفر، ولهم فى هذا المجال كلام كثير وللإسرائيليات مجال أكثر . وقد ساق الألوسى فى تفسيره كثيراً من هذه الأقوال وعلق عليها بقوله « وللقصَّاص كلام مشهور لا يكاد يصح لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام » .

على أنه مهما قيل فإننا مع هذه القاعدة التى تقول (إن المقبول من هذه الآراء ما بعد عن الإخلال بمنصب النبوة إذ الأنبياء معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم يوثق بشىء مما يذكرون أنه وحى من الله تعالى) .

وشاهد آخر ! !

فى التوراة وفى سفر التكوين يقول الإصحاح التاسع عشر منه :

« وصعد لوط من « صوغر » وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى « صوغر » فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه. فنحيى من أبينا نسلا . . فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة : إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلى اضطجعى معه فنحيى نسلا من أبينا فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً ؛ وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما . . . » .

وآخر ! !

يقول الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موابيات وعمونيات وحبشيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة . وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السرارى فأمالت نساؤه قلبه وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورت آلهة الصيدونيين وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل . . . » .

ويقول رحمه الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » ص ١٣٣ : (قال جان ملنر فى ص ١١٥ من كتابه الذى طبع فى بلدة دربى سنة ١٨٤٣م : اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدى عسكر بختنصر . ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة « عزرا » ضاعت تلك النقول أيضاً فى حادثة « أنتيوكس » .

وعن هذه الحادثة يقول رحمه الله فى كتابه السابق ص ١٩٠ : (لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ كتب العهد العتيق وأمر بقتل كل من يوجد عنده نسخة من كتب العهد القديم . وكانت هذه الحادثة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائة سنة . وهذه الحادثة مفصلة فى تاريخ اليهود وتاريخ المؤرخ اليهودى يوسيفس » .

ويقول أيضاً ص ٣٥ : « إن التوراة المشهورة ليست التوراة التى صنفها موسى ولا التى كتبها عزرا ، بل الحق إنها مجموع من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود وجمعها أحبارهم فى هذا المجموع بلا « تنقيد الروايات » .

ثم ساق عديداً من الأدلة على تحريف التوراة وقدم كثيراً من الأمثلة التى تدل على التبديل والتغيير فى النصوص الأصلية ، واستنكر ما وقع فى الباب التاسع عشر من سفر التكوين من أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه ، وحملتا من أبيهما وتولد لهما ابنان ، وما وقع فى الباب الحادى والعشرين من سفر صمويل الأول[1] من أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا وحملت منه فقتل زوجها بالحيلة وتصرف فيها ، وما وقع فى الباب الحادى عشر من سفر الملوك الأول : من أن سليمان عليه السلام ارتد فى آخر عمره بترغيب أزواجه . وعبد الأصنام وبنى لها المعابد وسقط من نظر الله .

وعندما سجل رحمة الله الهندى شواهد عديدة للتحريف فى التوراة بالزيادة والنقصان دعم شواهده بكثير من آراء المفسرين المحدثين الغربيين .

من هذا القبيل الشاهد الثانى الذى ساقه ص ١٣٩ من كتابه عندما قال : (الشاهد الثانى : الآية الحادية والثلاثون من الباب السادس والثلاثين من سفر الخليقة هكذا : وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل أن يملك لبنى إسرائيل : ملك فى أدوم بالع بن بعور . وكان اسم مدينته دنهابة ، ومات بالغ فملك مكانه يوباب ومات يوباب فملك مكانه حوشاجم ومات حوشاجم فملك مكانه هداد ومات هداد فملك مكانه سملة . ومات سملة فملك مكانه شاءول . ومات شاءول فملك مكانه بعل . . إلخ . . ولا يمكن أن تكون هذه

(١) لم يشر الإصحاح الحادى والعشرين من سفر صمويل الأول إلى هذه الحادثة ولعل هذا خطأ مطبعى . فى كتاب رحمة الله إذ الذى أشار إليها هو السفر الثانى لصمويل الإصحاح ١١ ، ١٢ كما تقدم .

الآية من كلام موسى عايه السلام لأنها تدل على أن المتكلم بها بعد زمان قامت فيه سلطنة بنى إسرائيل وأول ملوكهم شاءول وكان بعد موسى عليه السلام بثلاثمائة وست وخمسين سنة . قال آدم كلارك فى المجلد الأول من تفسيره ذيل هذه الآية : غالب ظنى أن موسى عليه السلام ما كتب هذه الآية والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين ، بل هذه الآيات هى آيات الباب الأول من السفر الأول ١ من كتاب أخبار الأيام وأظن ظناً قوياً قريباً من التيقن أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل أنها جزء المتن فأدخلها فيه » اهـ فاعترف هذا المفسر بإلحاق الآيات التسعة، وعلى اعترافه يلزم أن كتبهم كانت صالحة للتحريف ، لأن هذه الآيات التسعة مع عدم كونها من التوراة دخلت فيه وشاعت بعد ذلك فى جميع النسخ » .

ثم قال فى ص ١٤٠ « وفى كتاب « دكشنيرى ببيل » الذى طبع فى أمريكا وإقليم الإنجليز والهند وشرع فى تأليفه « كالمنت » وكمله « زابت » و « تيلر » هكذا : « بعض الجمل التى توجد فى كتاب موسى تدل صراحة على أنها ليست من كلامه مثل الآية ٤٠ من الباب ٣٢ من سفر العدد [١] والآية ١٤ [٢] من الباب ٢ من سفر الاستثناء وكذلك بعض عبارات هذا الكتاب ليس على محاورة كلام موسى ولا نقدر أن نقول جزماً إن أى شخص ألحق هذه الجمل والعبارات ولكن نقول بالظن الغالب أن « عزرا » النبى ألحقها كما ينبئ عنه الباب التاسع والعاشر من كتابه والباب الثامن من كتاب نحميا » اهـ فهؤلاء العلماء جزموا أن بعض الجمل والعبارات ليست من كلام موسى عليه السلام لكنهم ما قدروا أن يبينوا اسم الملحق على سبيل اليقين والتعيين بل نسبوا على سبيل الظن إلى عزرا عليه

---

(١) نص هذه الآية : فأعطى موسى جلفاد لماكير بن منسى فسكن فيها .

(٢) نص هذه الآية : والأيام التى سرنا فيها من قادس برفيع حتى عبرنا دارى زارد كانت ثمانى وثلاثين سنة حتى فنى كل الجيل . . إلخ .

السلام ، وهذا الظن ليس بشيء ولا يظهر من الأبواب المذكورة أن عزرا ألحق شيئاً فى التوراة ، لأنه يفهم من كتاب عزرا أنه تأسف على أفعال بنى إسرائيل واعترف بالذنوب ، ويفهم من باب كتاب نحميا أن عزرا قرأ التوراة عليهم ».

ويقول الدكتور وافى فى كتابه الأسفار المقدسة ص ١٦ عند حديثه عن التوراة أو أسفار موسى : « ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التى كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع والبيئات الاجتماعية والسياسية التى تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد أُلِّفت فى صور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) وأن معظم سفرى : التكوين والخروج قد ألف حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية قد ألف فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أى بعد النفى البابلى (وهو إجلاء بنى إسرائيل من فلسطين إلى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد) **وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود** ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، فهى إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التى يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله على موسى عليه السلام .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون[1] » وإذ يقول : « . . والله أعلم بأعدائكم ،

---

(١) آية ٧٩ من سورة البقرة .

وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا يحرِّفون الكلم عن مواضعه[١]»

وإذ يقول عن اليهود : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكروا به[٢] » .

وقد رأى عليه الصلاة والسلام ورقة من التوراة فى يد عمر فأمره بإلقائها وألا يضيع وقته فى قراءة ما بها من كذب وتحريف ثم قال « ألم آتكم بها بيضاء نقية ، والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعى » أى أن هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير، وقد أنزل الله على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن ملخصاً لما كانت تشتمل عليه التوراة من عقيدة وشريعة وقصص فأحياها فى صورتها الصحيحة نقية بيضاء وأن موسى لو بعث الآن لتبرأ من توراتهم واتبع قرآن محمد » .

الشريعة فى أسفار اليهود :

وعن الشريعة فى أسفار اليهود قال المرجع السابق ص ٣١ : « غير أنه يلاحظ فى هذه الشريعة كثير من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل:

(أولا) : أما انحرافها فيتمثل فى قيامها على التفرقة العنصرية . وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة فى سلم الإنسانية ، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفى كثير من شئون الاجتماع ، فمن ذلك مثلا أن الإسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، على حين أنه مباح

(١) آية ٤٦ من سورة النساء .

(٢) آية ١٣ من سورة المائدة .

للإسرائيليين ؛ بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى، وخاصة شعب كنعان . وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن « يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف » فلا يبقوا على أحد منهم ، ويسترقوا جميع نسائها وأطفالها ، ويستولوا على جميع ما فيها من مال وعقار ومتاع . أو ينهبوه نهباً حسب تعبير أسفارهم[١] .

ومن ذلك أن الإسرائيلي إذا باع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه فى حالة عوزه وحاجته إلى المال فإن رقه يكون موقوتاً بأجل يرجع بعده إلى حريته .

على حين أن الرّق المضروب على غير الإسرائيلي يظل أبد الآبدين[٢] .

ومن ذلك أنه ما كان يجوز للإسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلي، ولا أن يأخذ منه رهناً بدينه . وإذا أخذ منه فى الصباح رهناً من المتاع الذى لا يستغنى عنه فى حياته اليومية كالرحا وما إليها وجب أن يرده إليه فى المساء ، أما غير الإسرائيلي فمباح للاسرائيلي أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش[٣] .

بل إن أسفارهم تقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه فى الأزل أن يكون

---

(١) يرجع إلى الفقرتين ١٣ ، ١٤ من إصحاح ٢٠ من سفر التثنية وفيهما : « وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » كما تقول الفقرة ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما .

(٢) كما جاء فى سفر اللاويين الإصحاح ٢٥ الفقرة ٣٩ التى تقول « وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد كأجير نزيل يكون عندك وكما جاء فى الفقرة ١٢ من الإصحاح ١٦ من سفر التثنية التى تقول « إذا بيع لك أخوك العبرانى أو أختك العبرانية وخدمك ست سنين فى السنة السابعة تطلقه حرا من عندك ».

(٣) كما جاء فى الفقرة ١٩ من الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية التى تقول : « لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا» .

رقيقاً لبنى إسرائيل . وأنه لا ينبغى أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما فى الحياة ، غير هذه الوظيفة ، فإن تمردوا عليها أو طمحوا إلى الحرية وجب على بنى إسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف .

(ثانياً) : وأما عدم وحدتها ، فذاك أن أحكام أسفارها يتضارب بعضها مع بعض فى كثير من الشئون ، فقد يقرر سفر فى حادث ما حكماً ويجىء سفر آخر فيقرر فى الحادث نفسه حكماً آخر ، فمن ذلك — مثلا — أن سفرى الخروج والتثنية يقرران أن الإسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعاً اختياريا لأخيه الإسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه إلا ست سنوات . على حين أن سفر اللاويين يقرر أن رقه لا ينتهى إلا بحلول اليوبيل الإسرائيلى (وهو العيد الذى يجىء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك (كما جاء فى الفقرة ٤٠ إصحاح ٢٥ من سفر اللاويين) فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياماً إذا استرق عقب العيد الخمسينى مباشرة .

وفى هذين المظهرين اللذين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم . وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التى كانوا يسيرون عليها فى العصر الذى ألف فيه ، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى . فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » وأن شريعة من عند الله لا تقر التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

* * *

وليس العهد القديم إلا عدة أسفار لا يحتاج أى قارئ عادى إلا أن يدرك فى سهولة ويسر أن موسى عليه السلام لم يكتبها ، وإلا فلا يعقل أن يقول موسى على نفسه فى سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الفقرة ٥ وفيها : « فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم » .

وكذلك ساق الإمام ابن حزم فى كتابه الفصل فصلا[١] جعل عنوانه : « فصل فى مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة فى الكتاب الذى تسميه اليهود التوراة وفى سائر كتبهم وفى الأناجيل الأربعة يتيقن بذلك تحريفها وتبديلها وإنها غير الذى أنزله الله عز وجل » . .

وقد ساق فى هذا الفصل براهين عدة من نصوص توراتهم وأبان ما فى هذه النصوص من زيف وإسفاف وكذب وافتراء ، براهين كانت على حد تعبيره[٢] « أضوأ من الشمس على صحة تبديل توراتهم وتحريفها » .

ثم ساق بعد ذلك عدة فصول طوال فى قرابة سبعين صفحة دعمها بالأدلة المفحمة والبراهين المدحضة الدالة على التحريف والتبديل اختتمها بقوله :

« هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر والمناقضات اللائحة التى لا شك معه فى أنها كتب محرفة مبدلة مكذوبة ، وشريعة موضوعة مستعملة من أكابرهم ، ولم يبق بأيديهم بعد هذا شىء أصلا ، ولا بقى فى فساد دينهم شبهة بوجه من الوجوه والحمد لله رب العالمين » .

---

(١) ص ٩٣ ج ١ طبعة صبيح .

(٢) ص ١٤٩ المرجع السابق .

وأخيراً . . دليل من القرآن

« وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »[١]

وهذا إقرار من القرآن الكريم بأن التوراة التى وضعها بنو إسرائيل فى تابوت العهد عند حربهم مع الفلسطينيين وهزيمتهم قرب « غزة » أيام نبيهم وحاكمهم « صمويل » . .

لم تكن هذه التوراه كاملة بحكم القرآن فقد عبّر ببقية مما ترك : بقية من التوراة التى تركها موسى وهارون ، بقية منها وليست التوراة الكاملة « خلافا لما جاء فى ص ٢٠٢ جـ ١ من حاشية الجمل على الجلالين عند تفسير قوله تعالى (فيه سكينة من ربكم) قال : أى مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرون » .

وتابوت العهد هو التابوت الذى وضع الاسرائيليون فيه توراتهم وأخذوه معهم فى هذه الحرب التى كانت بينهم وبين الفلسطينيين — بالقرب من غزة — فى أواسط المائة الرابعة قبل الميلاد ، وضعوا التوراة فى التابوت ، وأخذوا التابوت معهم فى هذه الحرب ، لتنالهم بركة التوراة فيتحقق لهم النصر ، وكانت هزيمة الاسرائيليين فى هذه الحرب هزيمة منكرة على يد الفلسطينيين الذين استولوا منهم على التابوت . يقول الإمام محمد عبده « إنهم كانوا يستنصرون بهذا التابوت فإذا ضعفوا فى القتال وجىء به وقدموه تثوب إليهم شجاعتهم وينصرهم

(١) آية ٢٤٨ من سورة البقرة .

الله تعالى ، أى ينصرهم بتلك الشجاعة التى تتجدد لهم بإحضار التابوت ، لا بالتابوت نفسه ، ولذلك غلبوا على التابوت فأخذ منهم عندما ضعف يقينهم وفسدت أخلاقهم فلم يغن عنهم التابوت شيئا ، وكان حاكمهم آنئذ هو « صمويل » النبى [1] »

(١) يرجع إلى هذه القصة كاملة فى ص ٤٨٤ من تفسير المنار ح ٢ ، وإلى كتاب قصص الأنبياء الشيخ النجار ص ٣٠٣ وإلى كتاب الشعب الملعون فى القرآن لمحمود بن الشريف ص ٧٠ .

أخلاقيات يهودية

أبان القرآن لأهله ، وأفصح لهم عن كثير من أخلاقيات اليهود وتصرفاتهم وعلاقاتهم ، وعن كثير من خباياهم وخبث طواياهم وفساد نفسياتهم ، يقول القرآن لأهله عن اليهود : (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

واتفقت كلمة لفيف من أقطاب اليهود منهم : عبد الله بن حبيب ، وعدى ابن زيد والحارث بن عوف ، على أن يزلزلوا عقيدة بعض المسلمين ويلبسوا عليهم دينهم ، وعلى أن يقوموا بحركة سريعة خاطفة ، فيعلنوا بين القبائل إيمانهم بمحمد بالغداة فى أول النهار ، ثم يعلنون فجأة كفرهم به فى عشية اليوم نفسه ، لعل بعض المسلمين يتزعزع إيمانه ، وتتزلزل عقيدته فيرجع عن دينه ، كما رجع هؤلاء المتظاهرون بالدين ، فأنزل الله تعالى فيهم :

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »

دسائس

ورأى اليهود اللئام . . رأوا الوئام بين القبائل العربية ينشر ألويته فيجمعهم بعد فرقة ، ويكتلهم بعد تفكك ، فأرادوا أن يبثوا سموم التفرقة بين هذه الوحدة العربية ، وأن يزعزعوها وينالوا منها ، فحاولوا الوقيعة بين القبيلتين

العربيتين : الأوس والخزرج ، وعمدوا إلى إثارة ما كان بينهم فى الجاهلية قبل إسلامهم — من إحن ومحن وأحقاد ومعارك ، ولكن القرآن كشف مؤامراتهم وفوت عليهم مأربهم عندما دعا المسلمين إلى التمسك بالوحدة والعقيدة ونسيان الماضى والاعتصام بحبل الله ، والبعد عن الفرقة التى يريدها هؤلاء الدساسون المتآمرون :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

جبن ! !

كذلك حكم القرآن على اليهود بأنهم جبناء . لن يقاتلوا . . وإذا سنحت للجبان فرصة للقتال ورأى مطعناً أو موقعاً مكشوفاً فانتهز الفرصة ، وقاتل : فهو لن يصمد فى الميدان ولن يثبت فى المعركة ، فهو جبان بطبعه : وخاتمة الجبناء الهزيمة وعدم النصر ، لذا حكم الله عليهم بهذه الخاتمة : (ثم لا ينصرون) .

وبذلك يوجه القرآن أنظار هؤلاء الذين أخذوا بمظهر اليهود المادى وما هم عليه من مال وعتاد وعدة ، ويقول لا يفت فى عضدكم أيها المؤمنون مظهر اليهود ولا مناوراتهم ولا معداتهم ، فهم بعيدون عن المجابهة ، إذ الشجاعة تنقصهم وأنهم يلجأون فى معاملاتهم السياسية وحروبهم العسكرية إلى ما يلجأ إليه الجندى الجبان من غدر ولؤم ، وانتهازية ومؤامرات بليل ، وبعد عن المواجهة فى ميدان الحرب ، وهم جبناء بعيدين عن القوى النفسية والمعنوية التى هى

من أعمدة الفوز والغلبة فى ساحة الطعان . واليهودي إن ملك عتاداً حربياً ، وسلاحاً فتاكاً قوياً ، فهو سلاح يهتز فى يد جبان رعديد لن يصيب من المؤمنين مقبلا ، ولن يطعن فى الصميم مؤمناً شجاعاً ، وهذا مصداق قول الله :

« لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » .

نفسيات سوداء ! !

عداء . . ومكر ، ونية شر وبغض وكيد ، هذه مجموعة من أخلاقيات اليهود يكشف عنها القرآن موصيا المؤمنين بأن يبتعدوا عنهم ، ويكونوا على حذر منهم ولا يركنوا إليهم ، فأنتم أيها المؤمنون بقلوبكم البيضاء تحبونهم ، ولا يحبونكم ، وتؤمنون بموسى نبيهم وبتوراته ، وهم لا يؤمنون بنبيكم ولا بكتابكم ، هم يتربصون بكم الدوائر ويتمنون أن تحيق بكم المصائب ويودون لكم المشاق والعنت ، يفرحون لمصائبكم ، ويحزنون لما يمسكم من حسنة أو ما ينالكم من خير ، ولو ضئيل قليل . .

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم ، قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل

من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » .



التواء . . ! !

ودفعتهم حفيظتهم على محمد وسوء أدبهم أن يلجأوا إلى العبارات الملتوية التى تحمل أكثر من معنى ، أو التى تخفى وراءها سباً أو قذفاً ، أو التى تدل من طرف خفى على تجريح أو دعاء بالموت والهلاك أو وصف بالرعونة . . يلجأون إلى هذه الكلمات الملتوية يلوون بها ألسنتهم مخاطبين بها الرسول استهزاء وطعناً ، فكانوا يقولون للرسول عند لقائه : « السام عليكم » يديرون ألسنتهم بها على نحو يجعل السامع يظن أنهم يقولون : السلام عليكم .

وقد فوت الرسول مقصدهم من هذه الناحية ومن تلك التحية المسمومة حينما كان يرد عليهم بقوله : « وعليكم » ، فدعوتهم مردودة عليهم .

وكانوا يقولون له « راعنا » وهذه اللفظة وإن كانت تحمل معنى ظاهرياً أى راعنا سمعك والتفت لحديثنا ، فإنها تحمل معنى ثانياً هو وصف بالرعونة والطيش عندما تحرف وينطق بها « راعينا » .

ولذا نهى الله ، سبحانه ، الصحابة ومنعهم من أن تدور هذه اللفظة على ألسنتهم عند خطاب النبى صلى الله عليه وسلم :

« يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم »[1] .

(١) آية ١٠٤ من سورة البقرة .

وقد فضح القرآن الشريف صنيع اليهود فى هذا المجال فقال :

(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع وراعنا ، ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين . . »(١)

تبجح ! !

ودفعهم التبجح إلى أن يذهب أحبارهم ورؤساؤهم إلى الرسول عليه السلام فيعرضوا عليه مخططاً يهوديًّا ، كله مناورات ، وسياسة خادعة خبيثة يريدون من ورائها فتنة محمد نفسه وقالوا له عند ذهابهم إليه : إنك قد علمت منزلتنا فى قومنا ، وأنا إذا اتبعناك اتبعك اليهود جميعاً ولم يخالفونا ، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، فنحتكم إليك ، فتحكم لنا ، فنتبعك ، ونؤمن بك فنزل فيهم قول القرآن(٢)

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

خيانة . . !

ولما علم الله سبحانه غدرهم ، وسوء طويتهم ، وفساد جبلتهم وسواد ذات صدورهم حذّر رسول الله منهم فقال : (ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلا) .

---

(١) آية ٤٦ من سورة النساء .

(٢) آية ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .

وفى واقعنا اليوم ما تزال خياناتهم تترى ، ومؤامراتهم الخسيسة ما تزال تطلع علينا ، ونسمع بها ونقرأ عنها مصداقاً لقول الله .. ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا » .



تطاول . . ! !

ذهب أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى اليهود يعرض عليهم أن يحكّموا صوت العقل والمنطق ، وصوت الشريعة الحقة ، فيؤمنوا بمحمد الذى يعترف بالتوراة وبموسى ، والذى بشرت التوراة بمبعثه ، وأن يؤمنوا بآل محمد . ويقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق فى سبيله ، فسخروا من أبى بكر ، ومن دعوته هذه وقالوا : إذا كان الله يطلب منا قرضاً فهو إذن فقير ونحن أغنياء ، ويرد الله سبحانه عليهم مهدداً ، مذكراً إياهم بمواقف آبائهم الإجرامية من كل دعوة إلهية :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »[1] .

ولما حارب المسلمون اليهود . وأثرت هذه الحرب فى حالة الاقتصاد اليهودى نضح هذا التأثير على أخلاقياتهم ، دفعهم إلى التطاول وسوء الأدب فى حق الله فأخذوا يقولون إن يد الله مغلولة عنهم ، ويقول القرآن فى سورة المائدة[2] :

(١) آية ١٨٢ من آل عمران .

(٢) آية ٦٤ من سورة المائدة .

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » .

ممالأة . . ! !

ذهب الزعيمان اليهوديان : « حيي بن أخطب » و « كعب بن الأشرف » إلى المشركين القرشيين فى مكة ، فقال لهما القرشيون : أنتم أهل الكتاب ، وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالا : ما أنتم ومحمد ؟ قالوا : نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء (نذبح الناقة الضخمة) ونسقى الماء على اللبن . ونفك العانى (نطلق الأسير) ونسقى الحجيج ، ومحمد صنبور (رجل ذليل ضعيف) قطع أرحامنا ، وأتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟

فقال الزعيمان : أنتم خير وأهدى سبيلا . قال القرشيون : فديننا خير أم دينه ؟ قال الزعيمان : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .

وفى ذلك نزل قول الله :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً »(١) .

« فالآية(٢) تسجل عليهم هذا الموقف المخزى ، إذ أنهم وهم أهل كتاب ،

(١) آية ٥٣ : من سورة النساء .

(٢) من كتاب المجتمع الإسلامى للشيخ مدنى .

قد آمنوا « بالجبت » وهو الردىء الذى لا قيمة له . ولذلك يطلق على السحر، وعلى الصنم ، وذلك أنهم حكموا بأن الذين يتبعون الأوثان ، ويدينون بالخرافات والأوهام ، على هدى ، فقد صدقوهم أو تظاهروا بأنهم يصدقونهم ويؤمنون بما لهم من جبت ، وكذلك هم يؤمنون بالطاغوت ، وهو : كل ما سوى الله ممن يؤثَّر على الله ، من صنم ؛ أو شيطان ، أو رئيس، أو غير ذلك متى أدى إلى طغيان من آثره وحكَّمه . وتلك سبَّة فى جبين اليهود ومخزاة فى تاريخهم الأسود فكيف يسوغ لأهل كتاب سماوى أن يؤيدوا أو يباركوا أهل الوثنية والطواغيت . ولكنهم إنما فعلوا ذلك حسداً للمؤمنين ، فانساقوا بإيحاء هذا الحسد ودفعه إلى هذا الموقف. وقد نقل الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » تعليقاً على هذا الموقف بقلم أحد كبار اليهود فى العصر الحاضر ، وهو الدكتور إسرائيل ولفنسون مؤلف كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » ، ونحن ننقل هذا التعليق بنصه ، لما فيه من الإنصاف أو الاعتراف ، على الرغم من أنه صادر من يهودى ، قال الدكتور إسرائيل : «كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم . لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم ، فى سبيل أن يخذلوا المشركين . هذا فضلا من أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام ، والوقوف منهم موقف الخصومة » .

« أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ، أم

لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ».

وقد عقبت الآيات على هذا الموقف بالإشارة إليهم ، وإلى أنهم ملعونون من الله ، ثم أشارت إلى أن هذا إنما صدر منهم عن خلق الضن بقولة الحق حسداً منهم لصاحب الحق ، لو أنهم لو كان لهم نصيب من الملك لما آتوا الناس نقيراً ، والنقير : هو النقطة فى ظهر النواة ، والمراد : أيسر الأشياء وأقلها . فهم يبخلون حتى بمثل ذلك ولو كان لهم نصيب من الملك ، لما هم عليه من البخل ، والحسد ، والرغبة عن إيصال الحق إلى أصحابه .

ثم أفصحت الآيات عن الباعث الأصلى فيهم إلى هذا كله ، وهو الحسد : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) والحقيقة أن اليهود وقفوا من الرسالة المحمدية هذا الموقف مدفوعين بعامل الحسد ، لِمَ لَمْ يكونوا هم أصحاب هذا الفضل ؟ ولم خص به محمد من دونهم ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يؤثروا فى الرسول فينحاز إليهم ويسير فى فلكهم . وقد رد الله عليهم بأن تاريخهم يشهد أنهم يحسدون ويحقدون حتى على من أوتوا الملك والحكمة منهم . فإن الله ، قد جعل فى أسباط بنى إسرائيل ، الذين هم من ذرية إبراهيم ، النبوة ، وأنزل عليهم الكتاب وحكموا فيهم بالسنن وهى الحكمة وجعل منهم الملوك ، ومع هذا فمنهم من آمن به ، أى بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ومنهم من صد عنه ، أى كفر به وأعرض عنه ، وسعى فى صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم ، أى من بنى إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل »[1] .

---

(١) ابن كثير فى تفسيره ص ٤٨٨ جـ ٢ .

مفتاح معاملاتهم المالية

وفى معاملاتهم المالية والاقتصادية يسجل القرآن عليهم ما نراه إلى اليوم منهم ، من مادية صرفة وجشع ، وأنانية ، وعلاقات غير إنسانية . ومعاملات غير مشروعة من : رشوة ، وربا ، وغصب ، وأكل أموال الآخرين بدون سند ، ومن غير وجه حق. شعارهم الاقتصادى ومبدؤهم فى المعاملات يعانه القرآن الكريم « ليس علينا فى الأميين سبيل » .

والأميون عندهم هم من ليسوا يهوداً ، فإذا أكلوا أموال هؤلاء بالباطل ، وإذا اغتصبوا حقوقهم بغير وجه حق ، واستحلوا ما ليس لهم فهذا هو الدين عندهم ، وهذه هى المعاملة المثلى فى نظرهم ، وهذه هى شريعتهم المالية : شريعة الغصب والسلب والنهب :

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » .

وتقول سورة النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً »(١) .

وفى سورة الأنعام تفصيل لبعض هذا التحريم ، يقول الله :

« وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط

(١) آيه ١٦٠ من سورة النساء .

بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم : وإنّا لصادقون[١] » .

وفى سورة النحل إشارة إلى هذا التحريم :

« وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[٢] .

وأخيراً . .

فإنا نكشف هنا عن موقف للقرآن كلّه نصفةٌ وعدل ، فهو حينما سجّل على اليهود — فى آيات قاربت الألف عدّاً — تاريخهم ووقائعهم ووقيعتهم ، وفضح مؤامرتهم ، وعرّى نفسياتهم ، وأبان تنكرهم للدعوة الإلهية ، وحجاجهم ولجاجهم ، وما قاموا به من تحريف وزيف وحجب للحقائق وإلباسهم الحق ثوب الباطل ، فإن القرآن المنصف لم يطلق هذه الأحكام إطلاقاً ، بل استثنى قلة قليلة من اليهود ، كان رائدها نشدان الحقيقة ، وطلبتها الحق والوصول إليه والثبات عليه ، فلم تذعن إلا لصوت الفكر والعلم ، ولم تخضع لوعد ، ولم تخنع لوعيد .

رأت هذه الفئة اليهودية القليلة ، ما فى تاريخهم من ظلال وضباب ، وما فى حاضرهم من مؤامرات ومناورات ، وما فى وثائقهم من تدايس وتحريف ، رأوا كل ذلك ، ورأوا معه كذلك أدلة وشواهد ومعالم .

رأوا القرآن ينطق بالحق فاتّبعوا دستوره .

ورأوا الرسول يهدى إلى الحق فاتّبعوا نوره . .

ورأوا دلائل الحق فى دعوة الحق فآمنوا بالله . . والله هو الحق المبين . هذه الفئة — على قلتها — لم يهضمها القرآن حقها ، فسجّل عليها ، وسجّل لها ، سجل عليها تفكرها وتعقلها وتدبرها ، وسجل لها لقاء ذلك ما أعده لها يوم اللقاء ، من نعيم مقيم وثواب عظيم .

---

(١) آية ١٤٦ من سورة الأنعام . (٢) آية ١١٨ من سورة النحل .

عن ذلك يقول القرآن :

« فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ، لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » .

التوراة . . والألواح والصحف

وفى مخطوطة . . وجيزة المقال فى بيان ملل الضلال يقول مؤلفها أحمد الدمشقى ص ١٨ (وهى تحت رقم ١١٦٣ هـ بدار الكتب المصرية) : « قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه . : واليهود أعم من بنى إسرائيل ، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا فى اليهودية ، وليسوا من بنى إسرائيل .

وكتابهم الذين يتمسكون به « التوراة » . وهو الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام .

قال أبو جعفر النحاس فى « صناعة الكتاب » وهى أى التوراة : مشتقة من قولهم : ورت نارى ، وواريتها إذا استخرجتُ ضوءها . لأنه قد استُخرج بها أحكام شريعة موسى عليه السلام . وكان النحاس يجنح إلى أن لفظ التوراة عربى ، والذى يظهر أنه عبرانى معرب ، لأن لغة موسى كانت العبرانية فناسب أن يكون من لغته التى يفهمها قومه .

قال الشهرستانى : وهى أوّل منزل على بنى إسرائيل سمى كتاباً ، إذ ما قبلها من المنزل إنما كان مواعظ ونحوها » .

قال الإمام الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل « التوراة هو أول كتاب نزل من السماء ، أعنى : أن ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتاباً ، بل صحفاً ، وقد ورد فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده » فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب .

وأنزل عليه أيضاً « الألواح » على شبه مختصر ما فى « التوراة » تشتمل على الأقسام العلمية . والعملية قال الله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة) إشارة إلى تمام القسم العلمى . (وتفصيلا لكل شىء) إشارة إلى تمام القسم العملى » .

* * *

ويبدو فى كلام الشهرستانى شىء من التفصيل ، بل من التفضيل غير الدقيق فهو ، قد فصل وفرق بين التوراة والألواح ، ثم أثبت أن التوراة أول كتاب إلهى وهو حينما يثبت ذلك ويحكم به يفتقر فى حكمه إلى دليل .

وهو ترجيح بلا مرجح ، وتخصيص من غير برهان عقلى أو نقلى ! !

واذا كان الرسل كثيرين . منهم من أعلمنا الله به ومنهم من استأثر المولى بعلمه فإذا كان ذلك شأن الرسل ، وكل رسول معه كتاب ، فمن باب أولى أن يكون شأن الكتب السماوية ، منها ما عُرف ومنها ما لم يعرف ، فإذا قطعنا بأن كتاباً كان هو الأول عليها كان ذلك ترجيحاً بلا مرجح .

أما الحديث الذى ساقه فإنه يشير إلى أن التوراة كتاب إلهى لا أنه أول كتاب إلهى :

على أن اتجاهه هذا لا يساعده منطوق الآية الشريفة : « إنّ هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » فقد أثبتت الآية أن لإبراهيم صحفاً

ولموسى صحفاً .

وقد روى الثعلبي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله ، كم من كتاب أنزل الله عز وجل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله تعالى مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام عشر صحائف ، وعلى إبراهيم الخليل عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وأنزل الله تعالى على التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا (١) .

ومن هذا الحديث يتضح أنه لا فرق بين الصحف والكتب وأن المراد بالصحف هي الكتب و بالتالى يصير كلام الشهرستانى تفرقة من غير موجب .

* * *

وذهب الجلالان فى تفسيرهما إلى أن الألواح هي التوراة نفسها ، وقالت الحاشية حاشية الجلالين ص ١٩٥ « إن الله لقن موسى التوراة ثم أمره بكتابتها فنقلها من صدره إلى الألواح ».

وقالت حاشية الجمل على تفسير الجلالين ص ١٨٩ جـ ٢ عند قوله تعالى : « وكتبنا له فى الألواح » قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا

---

(١) فى جـ ٤ ص ٥٢٣ حاشية الجلالين : عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان فى صحف إبراهيم وموسى قال يا أبا ذر اقرأ : قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا . . الآيه .

قلت يا رسول الله : فما كانت صحف موسى قال : كانت عبراً كلها عجبت بالموت لمن كيف يفرح عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك عجبت لمن رأى الدنيا وفعلها بأهلها كيف يطمئن إليها عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل . أخرج هذا الحديث رزين فى كتابه .

وذكره ابن الأثير فى كتاب جامع الأصول ولم يعلم عليه شئ .

لموسى فى ألواح التوراة قال البغوى : وفى الحديث « كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعاً ، وجاء فى الحديث « خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده » وقال الكلبي: من زبرجدة خضراء، وقال سعيد بن جبير: من ياقوتة حمراء ، وقال ابن جريج: من زمردة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من النور ، وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من زبرجد . وقال وهيب: أمر الله تعالى بقطع الألواح من صخرة صماء ليَّنها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه السلام صريف الأقلام بالكلمات العشرة ، وكان ذلك فى أول يوم من ذى الحجة وكان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى . وقيل : إن موسى خرَّ صعقاً يوم عرفة فأعطاه الله التوراة يوم النحر . وهذا أقرب إلى الصحيح » .

واختلفوا فى عدد الألواح ، فروى عن ابن عباس أنها كانت سبعة ألواح وروى عنه أنها اثنان ، واختاره الفراء قال: وإنما جمعت على عادة العرب فى إطلاق الجمع على ما زاد على الواحد .

وقال وهب : كانت عشرة ألواح ، وقال مقاتل: كانت تسعة .

وقال الربيع بن أنس « نزلت التوراة وهى وقرٌ أى حمل سبعين بعيراً يقرأ الجزءُ منها فى سنة ، ولم يقرأها إلا أربعة هم: موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى والمراد بقولهم لم يقرأها يعنى لم يحفظها .

ثم يقول التفسير : (ص ١٩٣ من ذلك الجزء السالف) عند قوله تعالى : «وألقى الألواح» أى ألواح التوراة غضباً لربه فتكسرت . وتقول الحاشية : (فتكسرت وكانت سبعة رفع منها ستة وبقى واحد . أى رفع ما فى الستة من الإخبار بالغيب وبقى ما فى السابع من المواعظ والأحكام) .

وقال ابن عباس وعمرو بن دينار (ص ١٩٤ من الحاشية السابقة) : لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردت عليه فى اوحين وفيها ما فى الأولى بعينه » .

ولا ندرى ما الذى حدا ببعض المفسرين هنا لأن يثبتوا أن الألواح تكسرت من موسى عند القائها : (أى أن إلقاءها استدعى كسرها) وأنها لما تكسرت رفع ما فى هذا المنكسر . . إلخ .

وماذا عليهم لو ذهبوا إلى ما ذهب إليه البعض[١] من أن الألواح لم تتكسر ، ولم يرفع من التوراة شيء . وأن المراد بإلقائها أنه وضعها فى موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه ، لا رغبة عنها . فلما فرغ عاد إليها فأخذها بعينها .

وهذا فى نظرنا هو أرجح الأقوال . لأنه يوصد علينا أبواباً كثيرة تفتحها التفسيرات السابقة المخالفة لهذا الرأى والتى كثرت فيها اللوازم . إذ لزم من إلقاء الألواح كسر بعضها ، ولزم من الكسر ضياع ورفع ما فى هذه الألواح المتكسرة من تعاليم ومفاهيم وأخبار وتكاليف ، وإنها كانت سبعة رفع منها ستة وبقى واحد أى رفع ما فى الستة من الأخبار بالغيب وبقى ما فى السابع من المواعظ والأحكام .

على أن ابن عباس رضى الله عنه قد حام حول هذا الرأى الراجح عندما قال : إنه لم يترتب على الكسر رفع التعاليم ، وأن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فصام أربعين يوماً فردت عليه فى لوحين وفيهما ما فى الأولى بعينه .

وتجميعاً لما بين الآراء وتقريباً لها : نقول : إنه كانت هنك صحف لبعض رسل الله عليهم السلام بدل الكتب السماوية أو معها « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » .

---

(١) حاشية الجلالين ص ١٩٣ جـ ٢ .

الزبور

جاء فى الجزء الأول ص ٤٤٨ من حاشية الجمل على الجلالين ، نقلا عن الخازن : « الزبور : هو اسم للكتاب الذى أنزل على داود ، وهو ١٥٠ سورة ، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام ، بل فيها تسبيح وتقديس ، وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواعظ .

وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ، وتقوم علماء بنى إسرائيل خلفه ، ويقوم الناس خلف العلماء ، وتقوم الجن خلف الناس ، وتجىء الدواب التى فى الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطيور على رؤوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود » .

وهو بهذا مجرد أدعية وتوسلات .

وجاء فى ص ٩ من كتاب إظهار الحق «يدعى البعض أن التوراة نسخت بنزول الزبور وأن الزبور نسخ بنزول الإنجيل ، وهذا بهتان لا أثر له فى القرآن ولا فى التفاسير . والزبور عندنا ليس بناسخ للتوراة ولا بمنسوخ بالإنجيل . وكان داود عليه السلام على شريعة موسى . وكان الزبور أدعية له » .

وفى كتاب قصص الأنبياء ص ٣١١ : « إن الله أعطى لداود الزبور كما فى قوله تعالى :

« وآتينا داود زبورا » وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه ، والتضرع له ، وبعض أخبار مستقلة . كما فى قوله سبحانه وتعالى :

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى أنه تضمن الأخبار بشأن النبي الآتى وهو « محمد » صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما فى الزبور الخامس والأربعين (١) .

وكان داود عليه الصلاة والسلام حسن الصوت ، حسن الإنشاد ، حتى أنه إلى اليوم مضرب المثل بحسن الصوت ؛ فيقال للحسن الصوت : إنه أعطى مزماراً من مزامير داود ، عليه السلام .

والزبور يسمى عند أهل الكتاب « المزامير » وعددها مائة وخمسين مزمورا .

وليست كلها لداود ، بل بعض المزامير منسوبة لقورح إمام المغنين ، وبعضها منسوب إلى داود ، وبعضها منسوب للمغنين على السن (آلة) ؛ وبعضها غير منسوب ، والكثير منها منسوب إلى داود .

وليس فى الزبور أحكام ، ولا أوامر ، ولا نواه . بل كله كما وصفنا .

وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين ، كالمزمور الذى أوله « على أنهار بابل » (وهو المزمور السابع والثلاثون بعد المئة) فإنه أُلِّف بعد سبي الإسرائيليين إلى بابل فى حادثة « بختنصر » .

---

(١) نهاية هذا المزمور تقول : « عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء فى كل الأرض سأذكر اسمك فى كل دور فدور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد » . ويرجع إلى ما كتبناه بشأن هذه البشارة فى هذه الرسالة تحت عنوان « محمد فى الزبور » .

الصابئون

من خلال الضباب التاريخى لم تستطع الرؤية العلمية أن تكشف وجه الحق فى أمر الصابئين .

لذا لم يختلف العلماء والمفسرون ورجال البحث العلمى والمؤرخون قدر اختلافهم فى شأن الصابئين وتاريخهم ، وطقوسهم ، وعقيدتهم ، لم يعرفوا الكلمة الأخيرة فى هذا المجال ، ولم يقتربوا منها ، بل اتجهوا اتجاهات مختلفة حينا ومتناقضة أحياناً .

فالصابئة هل هى ملّة أرضية تؤمن بظواهر الطبيعة ، أم تتخذ الأصنام آلهة ، أم تعبد الكواكب والأجرام السماوية ، أم هى طائفة تؤمن بكثير من الأنبياء . . وهل هى ديانة قديمة موغلة فى القـــدم . أم هى فرقة من النصارى لها بعض ما للنصرانية من طقوس وتقاليد دينية .

وهل الصابئون هم من كانوا على دين « صابئ بن شيث بن آدم » . . ؟ أم هى طائفة من اليهود ؟ أم هم قوم بين اليهود والمجوس ؟ !

عن كل هذا وغيره تحدثت مصادر ومراجع عربية كثيرة قديمة وحديثة . فالمسعودى فى « مروج الذهب » وابن النديم فى « الفهرست » والشهرستانى فى « الملل والنحل » وابن تيمية فى « الجواب الصحيح » كل هؤلاء القـــدامى وغيرهم من المفسرين والمؤرخين تحدثوا . . واتجهوا . . ولم يقطعوا برأى . . تحدثوا حديثاً لم يميز صابئة الجاهلية ولا صابئة التاريخ بوجه محدد دقيق .

هذا فضلا عن الكتب الحديثة التى دارت فى هذه الدائرة المفرغة ، والتى لم تستطع أن تضيف جديداً أو تزيد على ما قاله الأولون إلا محاولات واتجاهات

واجتهادات لم نكشف النقاب ، ولم تحدد ملامح الصابئة قديماً وملامحهم فى العصور المتعاقبة .

وعن مبدأ الدين الصابئى والتطورات التى طرأت عليه .

وموقف صابئة القرآن . . ممن قبلهم . . وطقوسهم . وتعاليمهم . وهل انقرض أصحاب ذلك الدين . . عن هذا يقول السيد عبد الرازق حسن فى خاتمة كتابه (الصابئة قديماً وحديثاً) :

« ان الباحث لا يستطيع أن يصل بصورة قطعية إلى مبدأ الدين الصابئى ، وإلى التطورات التى طرأت عليه فى القرون المتوسطة .

وهل هؤلاء الذين يدعون أنهم صابئة هم الصابئة الأقدمون الذين ورد ذكرهم فى القرآن ونوّه عنهم مؤرخو القرون الوسطى ؟ أو أنهم طائفة أخرى انتحلت هذا الاسم وادّعته ؟

إننا لا نستطيع أن نجزم بأن فى كثير من تعاليمهم وطقوسهم الدينية الشىء الكثير من تعاليم الدين الصابئى القديم وإن كنا نجهل طرق توصّلهم إلى تلك الطقوس .

أما الكتب الموجودة بأيديهم فهى مع قدمها لا تكاد تفيد اليقين بأنها كتب الصابئين الأقدمين أو أنها باقية من قبل الطوفان أو بعده أو من زمن يوحنا المعمدان بأيدى هذه الطائفة » .

وقد أثبت المؤلف أن لفظة « صابئة » لفظة عامة تتناول بحسب مفهومها قسماً واحداً من المتدينين بهذا الدين إلا أن البحث التاريخى يدلنا على فرق متعددة ومذاهب متشعبة تندمج كلها تحت هذا الاسم ويجمعها جامع هذا المفهوم

على ما بينها من اختلاف فى العقيدة والفروع وعلى ما أصابها من تطور فى الزمان والمكان .

وعن موقف العلماء والمحدثين من فرق الصابئة قال المؤلف ص ١٦ :

« وقد تطرق العلماء والمحدثون إلى تقسيم الصابئة وبيان الفرق التى نشأت منها وعرّفوا كل قسم بما له من معتقدات وبما يمتاز به من عبادة وما يقطنه من مكان إلا أن القسم الأغلب من أولئك الباحثين كان معتمداً فى بحثه على غيره وكان ، ناقلا مجرداً غير متبحر ولا متوغل .

ولعل أحسن من توسع فى هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستنداً إلى العقل وإلى النقل هو الإمام أبو الحسن على بن محمد المكنى بأبى على بن سالم التغلبى الفقيه الأصولى الملقب بسيف الدين الآمدى المتوفى عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر فى كتاب خطى له يدعى (كتاب أبكار الأفكار) أن أشهر فرق هذه الملة أربع . وهى :

الفرقة الأولى : أصحاب الروحانيات : ويزعم أصحابها أن الكواكب الفلكية هياكل هذه الروحانيات . أى هناك رابطة بين الإنسان وبين الإله المعبود .

الفرقة الثانية : أصحاب الهياكل : وهذه الهياكل هى المدبرة لكل ما فى عالم الكون .

الفرقة الثالثة : أصحاب الأشخاص : وهم الذين زعموا أنه إذا كان لا بد من متوسط مرئى — فالكواكب وإن كانت مرئية ، إلا أنها قد ترى فى وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها نهاراً — فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نصب الأعين تكون وسيلة

إلى الهياكل التى هى وسيلة إلى الروحانيات التى هى وسيلة إلى الله تعالى .

فاتخذوا لذلك أصناماً وصورة على صور الهياكل السبعة ، كل صنم من جسم مشارك فى طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب .

الفرقة الرابعة : الحلولية (وهم الذين سماهم ابن بطوطة بالحرانية)

زعموا أن الإله واحد فى ذاته وأنه خلق أجرام الأفلاك وما فيها من كواكب ، وجعل الكواكب مدبرة لما فى العالم السفلى ، والإله يظهر ويحل فى الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد فى ذاته .

ثم علّق المؤلف على تقسيم الآمدى هذا بقوله :

لعل التقسيم الذى ذكره الآمدى كان فيما يخص الصابئة على الإطلاق فى مختلف عصورها .

ثم قال : « ومن المتعذر جداً أن يوفق الباحث إلى معرفة ما بين هذه الفرق من رابطة » . ثم حكم المؤلف قائلا : « وقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن بلاد العرب ومصر قبل الإسلام وقبل النصرانية واليهودية ، وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل » .

ولم يورد المؤلف الدليل التاريخى على ذلك الحكم السالف على الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن ولم يوثق متجهه التوثيق العلمى . وله العذر ! ! فليست هناك معالم تاريخية على الطريق . . تضىء للباحث طريقه وتأخذ بيده .

ويقول الدكتور جواد على فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام — القسم الدينى ج ٦ ص ٣١٠) :

« نجد فى القرآن الكريم إشارة إلى الصابئين وقد ذكروا بين اليهود والنصارى فى موضع من سورة البقرة (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (آية : ٦٢)

وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى فى موضع من سورة المائدة آية ٦٩ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وفى سورة الحج آية ١٧ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . . »

ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة كذلك فليس لديهم شىء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم .

وقد ربط العلماء الإسلاميون بين هؤلاء الصابئة المذكورين فى القرآن الكريم وبين صابئة حران وصابئة العراق وجعلوهم طائفتين فى الأصل ، طائفة هم :

صابئة حنفاء : وهم فى نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كان بحران وممن كان على دعوته .

وصابئة مشركون : وهم من فســدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب .

غير أننا إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة « صبأ » و « صابىء » فى الموارد الإسلامية نرى أن هذه الموارد تستعمل لفظة صبأ بمعنى : خرج من شىء إلى شىء ، وخرج من دين إلى غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمى النبى

صلى الله عليه وسلم « صابئاً » والصحابة « الصـــباة » أى الخارجين على دين قومهم .

وهى تستعمل لفظة « الصابئة » فى كثير من الأحوال فى مقام « حنفاء » كالذى تراه فى ربطهم إبراهيم بهاتين الديانتين ، وعدهم قدماء الصابئة فى جملة الحنفاء فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة عند ظهور الإسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم أى على عبادة الأوثان المنادين بالتوحيد »

ثم يقول : « فالصابئون إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفين لهم فى ديانتهم ، ولما كان الحنفاء قد انشقوا على قومهم فى مخالفتهم لهم بتعبدهم للأصنام فهم صابئة فى نظر المشركين » .

وأخيراً قال : ولسنا نجد فى الموارد الإسلامية شيئاً مهمًّا عن صابئة الجاهليين ، *وكل ما ذكروه عن الصابئة إنما هو متأخر أخذ عن الصابئة أو عمن اتصل بهم فى الإسلام .

ويدل هذا المذكور عنهم على قلة بضاعة الإخباريين فيهم وقلة من باع لهم تلك الأخبار .

والظاهر أن الصابئة أنفسهم كانوا فى حيرة من أمرهم . وأن علمهم بماضيهم وبعقائدهم لم يكن بذى بال .

وكذلك ساق الباحث المعاصر الأستاذ « محمد عزة دروزة » فى كتابه « عصر النبى عليه السلام وبيئته قبل البعثة » ساق حديثاً عن الصابئين فى ص ٤١٩ وعن الآيات القرآنية التى تعرضت لذكرهم . وعن آراء المفسرين فيها وقال :

إن المفسرين قالوا عن هؤلاء الصابئين أنهم :

١ ــ طائفة من المجوس .

٢ ــ عبدة الملائكة .

٣ — عبدة الكواكب .

٤ — يعبدون الشمس ويصلُّون إلها خمس مرات فى اليوم .

٥ — بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرأون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة قد أخذوا من كل دين شيئاً .

٦ — إن أصل دينهم هو دين نوح .

٧ — إنهم الذين لا دين لهم ! ! .

وقد غاب عن المفسرين أن ذكر المجوس والمشركين فى آية الحج مع الصابئين ينبغى أن يبعدهم عن المجوسية والشرك الذى منه عبادة الكواكب والملائكة مع الله . وأن ذكرهم فى آيتى البقرة والمائدة مع المؤمنين واليهود والنصارى أى مع الموحدين توحيداً صريحاً أو مؤولا يسوغ القول أنهم هم الآخرون موحدون بشكل من الأشكال .

ونذكر العرب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للذى يفارق دين آبائه ويدخل فى دين جديد « صابىء » وأنهم سموا النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم وسموا به المسلمين الأولين لأول عهد الإسلام . وكانوا يقولون عنهم « الصبأة والصابئين » ففى قصة إسلام عمر رضى الله عنه التى رواها ابن هشام (ج ١ ص ٣١١) إن عمر رضى الله عنه كان يقول عن النبى صلى الله عليه وسلم إنه صابىء ، وأنه لما أسلم وجاء لأول مرة بعد إسلامه إلى فناء الكعبة شامخ الأنف قال المجتمعون إن ابن الخطاب قد أقبل عليكم بوجه صابىء ، وفى صحيح البخارى أن امرأة بدوية عبرت عن النبى صلى الله عليه وسلم بقولها « ذلك الذى يقولون عنه الصابىء » . وفى « أسد الغابة » حديث عن الحارث الغامدى أنه رأى جماعة من قريش قد تجمعوا على رجل من مكة فقال لأبيه ما هذه الجماعة ؟ فقال : هؤلاء قوم اجتمعوا على صابىء لهم فأشرفنا

فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى عبادة الله وحده .

فإطلاق التسمية على النبي صلى الله عايه وسلم والذين آمنوا به فى أول عهد الإسلام قد يزيد قوة فى استدلال كون الكلمة القرآنية عنت الموحدين بشكل ما . لأن القرآن سلك أصحابها فى سلكهم فى آيتى البقرة والمائدة ، أو على الأقل عنت الذين انحرفوا عن دين العرب وتقاليدهم الشركية .

لهذا كله نرى من المعقول أن يكون الاسم قد استعمل فى الآيات القرآنية للتعبير أو الإشارة إلى جماعة ما فى بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قبل البعثة يدينون بالتوحيد بشكل ما ، ويطاق عليهم هذا الاسم من حيث معناه اللغوى على اعتبار أنهم صبأوا عن دين آبائهم واعتنقوا أو اتبعوا ديناً أوعقيدة جديدة توحيدية ، ليست هى اليهودية ولا النصرانية . وأنه أطاق على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به لأول عهدهم لأنه استعمال مألوف — وذكرهم فى آيات مدنية فى عداد أصحاب الأديان الأخرى يحمل على القول أنه ظل منهم أفراد على ما كانوا عليه ولم يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم .

أما أقوال المفسرين عنهم فإننا لا نراها تخرج عن حد التخمينات وتعددها وتموجها مؤيدان لذلك ».

وبعد أن تحدث عن الحنفاء . وعن كلمة « حنيف » وقال إنها وجمعها كانتا تطلقان على الذين كانوا يميلون عن دين الشرك ويوحدون الله قبل البعثة من العرب عقّب على هذا قائلا : وواضح أن هذا المعنى يتحد مع صبأ والصابئين . وخلص فى النهاية إلى إصدار رأيه فى هذا المجال فقال :

ومهما يكن من أمر فإننا نميل إلى الظن ، بل إلى الترجيح ، إن الصابئين والحنفاء شيء واحد أو طبقة واحدة . وإنهم أولئك الذين تخلوا عن دين الآباء الشركى أو الوثنى من مستنيرى عرب الحجاز . ووحدوا الله ولم يستريحوا إلى

اليهودية والنصرانية أو لم يسترح بعضهم إليها، لما رأوا فيهما من مشاكل وانقسامات وفى أهلهما من انحرافات ومتناقضات، ومنهم من عبد الله على ملة إبراهيم أو ما ظنه كذلك، ومنهم من كان يبحث عنها ليتعبد عليها» . ثم أضاف إلى ذلك وجهة نظر جديدة من حيث إنها وجهة نظر تخالف ما استقر فى بعض الأذهان فقال (ونميل إلى الترجيح بأن هؤلاء للصابئين أو الحنفاء أو المتعبدين على ملة إبراهيم عليه السلام لم يكونوا عدداً قليلا ، فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة فى سلك واحد وتحت اسم مستقل ، ووصول أسماء نحو عشرة أشخاص إلينا فى كتب كتبت بعد قرن ونصف أو قرنين أو أكثر عن روايات ظلت تتناقلها الأفواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التى نرجحها) .

* * *

ولعل مرد هذا الاتجاه السالف الذى ساقه الأستاذ عزة دروزة والذى ساقه الدكتور جواد من أن الصابئة هم الصابئة الحنفاء لعل مرده إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[1] ، عندما فصل القول فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فقال إن الآية لم تمدح واحداً من اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل الذى كان فى دينهما ، وإنما معنى الآية : أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والذين هادوا : الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتعديل .

---

(١) فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جـ ٢ ص ٦٣ مطبعة المدنى .

والصابئون وهم الصابئون الحنفاء ، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذى بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة وهو « عمرو بن لحى » وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه — أى أمعاءه فى النار » وهو أول من بحر البحير وسيب السوائب وغيَّر دين إبراهيم .

وكذلك بنو إسحق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ونحوهم هم الذين مدحهم الله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ..

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر » .

الباب الرابع

المسيحية

المسيح فى القرآن

رسمت آيات قرآنية صورة صادقة . بينة المعالم ، واضحة القسمات للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ولولادته ولرسالته ولرفعه ، وللشبه التى أثيرت حوله .

وقد رسمت هذه الصورة ثلاث وثلاثون آية من ثلاث عشرة سورة .

ويرجع إلى كتاب «قصص الأنبياء» للشيخ عبد الوهاب النجار، حيث أورد فى ص ٣٧٢ هذه الآيات التى ذُكر فيها سيدنا عيسى فى جدول إحصائى تناول أسماء السور وأرقامها وعدد الآيات وأرقامها .

إعداد :

« إذ قالت امرأة عمران ربِّ إنِّى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت ربى إنى وضعتها أنثى ،والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنّى لك هذا قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

(آل عمران : ٣٧)

« يكشف هذا النص القرآنى عن قلب « امرأة عمران » أم مريم ، وما يعمره من إيمان وما يغمره من يقين ، إذ ابتّهلت فى دعاء خاشع تسأل ربها أن يقبل نذرها : وهو ذلك الجنين الذى لما ير النور . . نذرته وهو فى أحشائها خالصاً لله ولخدمة بيت الله ، محرراً من كل قيد إلا قيد العبودية لله . . وظلت فترة حملها تعيش على الأمل . . أمل أن يكون جنينها ولداً ذكراً .

فالنذر للمعابد لم يكن معهودا وقتئذ إلا للصبيان ، ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة ، ووضعت حملها وألفته على غير ما أملّت ورجت . . وفى دعاء حزين ومناجاة تنضح بالأسى والاعتذار تبتّهل إلى بارئها وتقول : رب إنى وضعتها أنثى — وأنت أعلم بما وضعت — وليس الذكر الذى كنت أرجوه كالأنثى التى وضعتها ، وإنى سميتّها مريم وإنى أعيذها بك وذريتّها من الشيطان الرجيم .

وكان نتيجة هذه الرغبة الإيمانية وجزاء هذا الإيمان الذى عمر قلب الأم وغمر وجدانها أن تقبل الله الوليدة بقبول حسن وخصّها بمميزات لم تكن لغيرها : فأعدها لإستقبال نفخة الروح وكلمة الله بمولد عيسى بن مريم على غير مثال فى الخلق ، وأنبتّها نباتا حسنا فجعلها تعيش فى حضانة الطهر والسمو . . حضانة النبى زكريا والد يحيى عليهما السلام ، إذ توفى أبوها عمران وكانت مريم آنئذ صغيرة تحتاج إلى من يكفلها ويقوم على عنايتّها ورعايتّها فقدمتّها أمها إلى رعاة الهيكل فتنازعوا : أيهم يكفل مريم ، ولما ألقوا القرعة على ذلك كان الكافل لها زكريا والد يحيى عليهما السلام[1] » .

طهارة

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك

---

(١) ص ٧٤ من كتاب « الدعاء فى القرآن » لمحمود بن الشريف . سلسلة «اقرأ» نشر: دار المعارف

على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » .

(آل عمران : ٤٣)

بشارة

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد ، وكهلا ومن الصالحين ، قالت رب أنىّ يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر . قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » .

(آل عمران : ٤٨)

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت إنّى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا قالت أنىّ يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » .

(مريم : ٢١)

وجيه صالح ، ونبى مقرّب ، وبارٌ مبارك . . هو رحمة للناس عند مبعثه وهو آية للناس عند مولده . . آية على كمال الله وتمام قدرته ، فولادته تم عن طريق غير مألوف . ينفخ الملك جبريل فى جيب قميص مريم فتحمل . . وبالقرب من مدينة « بيت لحم » على بعد عدة كيلومترات من « بيت المقدس »

فاجأها المخاض . . فاعتمدت على جذع نخلة . . والنخلة يابسة والزمن شتاء . . والريح صرٌّ . .

ومع آلام الوضع كانت هناك آلام نفسية تهزها وخواطر تملأ رأسها . كيف تأتى إلى هذا المكان فارغة وتئوب حاملة ؟ ماذا يقول قومها عنها آنئذ وهى العفيفة الطاهرة . وهتفت :

« ياليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا » .

وأحاطتها رعاية الله وعنايته فسرعان ما سكن روعها وسكت ألمها عندما وضعت ابنها الذى ما أن لمس الأرض حتى ناداها من تحتها : « لا تحزنى ، قد جعل ربُّك تحتك سريا » : ماء من عين تفيض به ومعه غذاء ودواء للنفساء من رطب يتساقط عليها بدون عناء من النخلة التى ركنت إليها . . فكان شفاء آلام الجسد من الأكل من ذلك الرطب والارتوآء من الماء . . وشفاء آلام النفس فى الامتناع عن الكلام مع الأناسى إذ سيكفيها الله مؤنة ذلك وسيتولى سبحانه التدليل على براءتها وعفتها وحصانتها .

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجآها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فنادها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلى واشربى وقرّى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسياً » .

(مريم : ٢٦)

« فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبد الله آتانى الكتاب

وجعلنى نبيًّا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبَّاراً شقيا والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » .

(مريم : ٣٤)

« والقرآن يسوق مثلا لهؤلاء المنكرين الذين أنكروا عيسى ورسالته متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية ، فقد خلق من غير أب . ويرد الله — سبحانه — عليهم فى هذا المثل الآتى بأنه لا غرابة فى ذلك ، فإن كان عيسى قد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام قد خلق من غير أب » :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

(آل عمران : ٥٩)

يقول الطبرى (ص ٤٦٨ من تفسيره) :

« إن الله عزَّ وجل أنزل هذه الآية احتجاجا لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران ، الذين حاجوه فى عيسى . وذلك أن رهطا من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال : من هو! قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله ! ! فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته ، قالوا : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه فدخل فى جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره . فهل رأيت إنسانا قط خلق من غير أب ؟ فأنزل الله عز وجل :

« إن مثل عيسى عند الله »[1] .

---

(١) من كتاب « الأمثال فى القرآن » لمحمود بن الشريف ص ٣٦ — طبعة دار المعارف .

« إن[1] قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » كلام حق ، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشرى على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ،وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال « وخلق منها زوجها »، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى . وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح فى بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء ، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذى هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الانسان أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هى من جنس بدن الإنسان » .

وقال رحمة الله الهندى — فى كتابه إظهار الحق جـ ٢ ص ٩ « قال لوقا فى الباب الثالث من انجيله فى بيان نسب المسيح عليه السلام أنه ابن يوسف وآدم ابن الله . وظاهر أن آدم عليه السلام ليس ابنا لله بالمعنى الحقيقى ، ولا الها ، لكن لما ولد بلا أبوين نسبه إلى الله . ولله در لوقا . لقد أجاد ها هنا لأنه لما كان المسيح عليه السلام مولوداً بلا أب فقط نسبه إلى يوسف النجار ولما كان آدم عليه السلام مولوداً بلا أبوين نسبه إلى الله .

« فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا والسلام علىّ

---

(١) ص ٣٠٤ جـ٢ من كتاب « الجواب الصحيح »لابن تيمية — مطبعة المدنى .

يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

(الآيات من ٢٧ إلى ٣٣ من سورة مريم)

« ولما[١] ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم . سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية ، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر وخصوصا أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر مادى لا مجال للريب فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها فى هذه المفاجأة ، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ، ويأتى على قواعده ويفجؤهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها ، ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهد بالولادة : نطق السيد المسيح فى المهد ليكون كلامه إعلانا صريحا ببراءة أمه وأنه لم يكن إلا عبد الله ولد من غير أب ».

والذى يرجع إلى أناجيل متى ولوقا وبرنابا وأناجيل العهد الجديد التى تحدثت عن ولادة المسيح يرى الأناجيل جميعاً تكاد تخلو من مثل هذه الصورة القرآنية التفصيلية التى سجلها القرآن لهذا الميلاد الفريد من الظروف المكانية التى أحاطت بالمولد وبمريم إبان المخاض من عين تفيض ونخلة تساقط ، ومن الظروف النفسية التى أحاطت بالوالدة والتى ترتب عليها نذر الصوم ومن الظروف الاجتماعية التى أدت إلى تأنيب قومها لها وقتئذ . ومن الإعداد الإلهى والإعجاز الذى جعل الوليد ينطق فى مهده بأنه عبد الله ورسوله وبأنه النبى البار المبارك المحافظ على

---

(١) ص ١٠ من كتاب « محاضرات فى النصرانية » لأبى زهرة .
الناشر : معهد الدراسات الإسلامية .

التعاليم المنفذ للوصايا .

ولا مشاحة في أن هذا القول من الوليد كان معجزة لهذا الوليد ، وكان شاهدا له على أنه نبي ورسول .

ومن هذا نستطيع أن نحدد ابتداء نبوة المسيح : إن منطوق الآية وظاهرها يفيد أن المسيح نبي وهو في المهد ، ولا غرابة في ذلك ، فالقرآن يقول في شأن يحيي بن زكريا « وآتيناه الحكم صبيا » هذا فضلا عن اعتراف المسيح في تلك الآية ، وهو في المهد بأن الله جعله نبيا وآتاه الكتاب . والتعبير بصيغة الماضي في آتاني وجعلني كل ذلك يرجح أنه بعث في المهد وهو صبي صغير .

ولا حاجة بنا بعدئذ لأن نجاري البعض[1] الذين قالوا إن المسيح نبيء على رأس الثلاثين ولا برهان لهم على هذا ، إلا ما تكلف من تمحلات لغوية ، ولا أن نقول كما قال بعض علماء التوحيد الذين قالوا إن الرسالة لا تكون إلا بعد الأربعين . ولا غرو فنحن أمام شخصية جعلها الإعداد الالهي والإعجاز الالهي لا تسير على سنن العادة ولا تجرى على وفق المألوف ، فعيسى عليه السلام مخلوق غير عادي في مولده . وفي مبعثه ، وفي مماته .

ويحاول بعض المفسرين على الرغم من أن النصوص النبوية لا تسعفه بما يؤيد رأيه من أن مدة الحمل كانت كما هي العادة تسعة أشهر هلالية .

وإذا كان أمر الحمل على غير العادة فلماذا نخضعه للمدة العادية وهي تسعة أشهر هلالية ؟

ولو كانت هناك مدة للحمل هذا كان لا بد أن ترى آثاره وأعراضه على مريم ولا سيما في الأشهر الأخيرة منه ، وكان لابد أن يلحظ قومها هذه

---

(١) من هؤلاء ابن الأثير في كتابه « الكامل » قال : أتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة ، وظل رسولا سنتين إذ رفع إلى السماء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وأياما .

الآثار فلا يكون مولده مفاجأة لهم ، لأن من تحمل لابد أن تضع . وبالتالى لم يكن لحملتهم عليها مكان بعد أن رأوا حملها إبانّ تسعة أشهر . . ولم يكن هناك كذلك مبرر لأن تجزع مريم عند الولادة لأن من حملت وهى تعلم طيلة تسعة أشهر أنها حامل لا تحزن عند الولادة .

وإذا كان القرآن أثبت جزع مريم عند الولادة وأثبت تقريع قومها لها بعد أن عادت إليهم وهى تحمله فكل ذلك يميل بنا إلى أن الولادة كانت عقب الحمل مباشرة من غير فاصل زمنى .

يقول أبو الحسن ابن الأثير فى كتابه « الكامل » اختلف فى مدة حمل عيسى فقيل تسعة أشهر وهو قول النصارى ، وقيل ثمانية أشهر فكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره ، وقيل ستة أشهر ، وقيل ثلاث ساعات . وقيل ساعة واحدة وهو أشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا » عقّبه بالفاء .

بشر :

« إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله . وكلمته القاها إلى مريم وروح منه » (النساء : ١٧١)

* * *

لا غلو ولا أباطيل ، ولا ناسوت ولا لاهوت ، ولا أقانيم ثلاثة : هو بشر مخلوق لا إله خالق ذلك هو ابن مريم . لا ابن الله .

وبعد أن أثبت القرآن بنوة عيسى إلى مريم أثبت له بعد ذلك بعض صفات . . ألقى القرآن الأضواء فى هذه الآية على ثلاث منها . صفات ثلاث ، أو تثليث قرآنى — إن جاز هذا التعبير :

(١) رسول الله (٢) وكلمة الله (٣) وروح الله .

(١) عن الرسالة تتحدث آيات كثيرة من القرآن : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » . (٤٩ – آل عمران)

« ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » (٧٥ – المائدة)

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ؛ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » (٢٥٣ – البقرة)

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل » (٢٧ – الحديد)

« وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم » (١٦ – المائدة)

حرَّف اليهود شريعة موسى وحرفوا التوراة . وعبدوا يهوذا ، لذا بعث الله فيهم عيسى لردهم للتوحيد ولعبادة الإله الواحد .

وكذلك تحدد هذه الآية الآتية الكريمة رسالة عيسى ومنهجه فى الدعوة وأهداف رسالته ، ومعجزاته . وتعاليمه ووصاياه :

« ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابرىء الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حُرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم ، فاعبدوه هذا صراط مستقيم » . (٥١ – آل عمران)

إنه رسول من عند الله مؤيد بالدلائل والآيات ، وأنه هاد إلى الله ، يهدى بنى إسرائيل إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم . وداعية يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته وعبادته . وأنه يُحلّ لهم بعض ما حرمته عليهم التوراة تلك التوراة التى يؤمن بما فيها من دعوة للتوحيد وإلى الألوهية الحقة .

(٢) كلمة الله

معنى وصف عيسى بالكلمة : أنه المكوَّن بالكلمة من غير أب[١] أى أنه تكون بكلمته وأمره الذى هو « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة .

قال الله لعيسى كن فكان ، كان عيسى بكن . وليس عيسى هو « الكن » ولكن بالكن كان فعيسى بالكلمة « كان » وليس عيسى هو الكلمة ، أى أنه كوِّن بالكلمة .

« وقوله تعالى : [٢] « وكلمته ألقاها إلى مريم » قال معمر عن قتادة : وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان .

وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ».

(٣) وروح منه :

قال تفسير الجلالين جـ١ ص ٤٥١ فى قوله تعالى « وروح منه » : « وروح منه » أى : ذو روح منه ، أضيف إليه تعالى تشريفاً له . كما يقال « بيت الله » و « ناقة الله » .

وساقت حاشية الجمل على تفسير الجلالين ص ٤٥٢ « أن طبيبا نصرانيا جاء للرشيد فناظر على بن الحسين الواقدى ذات يوم فقال له : إن فى كتابكم ما يدل

(١) جـ ١ ص ٤٥١ تفسير الجلالين حاشية الجمل .

(٢) ص ١٧٧ من كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية .

على أن عيسى جزء من الله وتلا قوله تعالى : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فقرأ له الواقدى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » وقال : إذن يلزم أن تكون جميع تلك الإشياء جزءا منه سبحانه فانقطع النصرانى وأسلم » .

على أن الروح ليس خصيصة قرآنية اختص بها عيسى بل وردت لفظة « الروح » فى القرآن لمعانى عدة ، فأطلقت على آدم ، وعلى « القرآن » وعلى الوحى بمعناه العام وعلى من نزل بالوحى ، وعلى النصر ، وعلى نوع ممتاز من مخلوقات الله أعظم من الملائكة :

على آدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »

(٢٩ : الحجر)

وعلى القرآن : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

(٥٢ : الشورى)

وعلى مطلق الوحى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده »

(٢ : النحل)

وعلى جبريل : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا »

(١٧٣ : مريم)

« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين »

(١٩٣ : الشعراء)

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا »

(١٠٢ : النحل)

كما فسرت[١] الروح بجبريل فى قوله تعالى (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) .

وعلى النصر : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه »
(٢٢ : المجادلة)

وعلى النوع الممتاز المختار من الملائكة :

« يوم يقوم الروح والملائكة صفا » (٣٨ : النبأ)

« تعرج الملائكة والروح إليه » (٤ : المعارج)

« تنزل الملائكة والروح فيها » (٤ : القدر)

أما حقيقة الروح[١] وما هيتها ومفهومها فهو بهذه المعانى كلها من أمر الله لا يعلم حقيقتها إلا الله ، مصداقا لقول الله :

« ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٨٥ : الإسراء)

---

(١) قال صاحب تفسير المنار (جـ ١ ص ٣٧٧) ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى جبريل الذى ينزل على الأنبياء ، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى: وذكر بعضهم وجها آخر وهو أنها روح عيسى نفسه ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعاذته من الشيطان أن يكون له حظ فيه ، أو لأنه أنزل عليه الإنجيل بالتعاليم التى تقدس النفوس ، بل قال بعضهم إن روح القدس هو الإنجيل .

(١) يرجع إلى فصل فى معنى الروح ص ١٢٦ جـ ٢ من كتاب الجواب الصحيح تحت عنوان « فصل فى معنى الروح » و « فصل فى عدم خصوصية روح القدس بالمسيح » وإلى كتاب قصص الأنبياء ص ٤٦٢ وإلى كتاب سيرة الرسول لعزة دروزة ص ١٥٣ جـ٢ عندما قال : « إذا جاء فى القرآن أن عيسى كلمة الله وروح منه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التى تمت بولادته بلا أب » .

معجزاته

« إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراةو الإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

(١١٠ : المائدة)

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » (١١٥ : المائدة)

ويقول القرآن فى سورة الزخرف :

« ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

وحول معجزات عيسى عليه السلام ساق الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه

قصص الأنبياء ص ٤١٠ رأيا نقله عن أبي مسلم قال أنه « لا يستلزم أن تلك الخوارق حصلت منه بالفعل ، وليس في آيات القرآن ما يدل على أنه فعل تلك العجائب ، وغاية ما تدل عليه الآيات أنه كان عنده استعداد وفيه قوة على عمل ذلك . هكذا قال أبو مسلم الذى ينقل عنه الفخر الرازى كثيراً ، ومع تسليمنا بما يقول فإن النفس مطمئنة إلى أنه عمل هذه العجائب أمام أعين بني إسرائيل وذلك ظاهر من قوله تعالى :

« وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

ونقول إن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا وقعت بالفعل . إذ كيف يؤمن بعض الناس باستعداد عند الرسول لأن تقع منه المعجزة . وما الحكمة من المعجزة آنئذ ما دامت لم تقع ؟!! على أن الآية الكريمة السالفة قررت أن المعجزة وقعت بالفعل لا بالقوة . وبذلك انهار اتجاه أبي مسلم ومن نقل عنه . وأحسن من قول أبي مسلم ذلك التعليل الذى ساقه الشيخ محمد أبو زهرة في كتابة النصرانية ص ١٥ حول هذه المعجزات . إذ بعد أن ساق مع شيء من التفصيل أنواع هذه المعجزات العيسوية الخمسة من : إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وإنزال المائدة من السماء ، وإنبائه بأمور غائبة عن حسه لم يعاينها . وتصويره من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً . وقرر أن الخالق في كل ذلك إنما كان هو الله الذى أجرى الخلق على يد عيسى ، وبعد أن أورد رأى ابن كثير (في كتابة البداية والنهاية) من أن هذه المعجزات جاءت مناسبة لأهل الزمن الذى وقعت فيه [1] وأن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى وإحياء الموتى لأن القوم

---

(١) يرجع في هذا أيضاً إلى تفسير المنار جـ١ ص ٢١٧ « حول إعطاء الله كل رسول من المعجزات بما يناسب قومه وأهل عصره ».

كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ليكون عجزهم حجة عليهم وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى معرفة الطب – قرر فى النهاية رأيه الذى قال فيه :

« وفى الحق إن الذى نراه تعليلا مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لأنهم أطباء فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء ، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة ، مصدق لما يأتى به الرسول ، وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح . وبرهان قاطع على وجودها . هذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حيا ، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه فكانت معه الحياة . . وهذا ميت قد أكله البلى وأخذت أشلاؤه فى التحلل وأوشكت أن تصير رميماً يناديه المسيح عليه السلام فإذا هو حى يجيب نداء من ناداه . وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيَّره البلى حلت فيه بذلك النداء ففاضت عليه بالحياة . وهكذا . . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته وتناسب أخص رسالته وهو الدعوة إلى تربية الروح والإيمان بالبعث والنشور وأن هناك حياة أخرى يجازى المحسن فيها بإحسانه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى انكاره ؟ أو تسمح لمنكر البعث والنشور أن يستمر على جحوده وقد أسلفنا القول فى أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الإعتراف بوجود الآخرة وعدم الإيمان باليوم الآخر ، إن لم يكن بالقول فبالعمل ، فكان إحياء الموتى صوتاً قويا يحملهم على الإيمان حملا » .

الحواريون . . فى القرآن

الحواريون [1] : هم أنصار المسيح عيسى بن مريم عليه السلام . وخاصته الذين استجابوا له ولدعوته . وبنو إسرائيل : هم قومه الذين نشر بينهم دعوة ربهم وربه وأذاع فى مجاليهم كلمة الحق فأعرضوا وعاندوا ! ! « فلما أحس عيسى منهم الكفر : قال : من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . (٥٤ : آل عمران)

ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى ويشتد وموجات الإنكار تعلو وتزيد ، وبوادر الكفر تسرى فى قوة بين بنى إسرائيل تدعو إلى الكفر به وبرسالته وبمرسله . وإلى الإنكار والجحود لآياته ومعجزاته ، آنئذ جأر عيسى عليه السلام بدعوته وصيحته : من أنصارى إلى الله ومن نصيرى للتمسك بعقيدة الله ؟ فلباها تلاميذه وحواريوه الذين آمنوا به وتتلمذوا له وتعلموا منه . . وأعلنوها — وهم القلة وسط جحافل الشرك — أعلنوها عالية مدوية نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد يا عيسى بأننا مسلمون .

ثم كان دعاؤهم : ربنا آمنا بما أنزلت من حق . . ومن رسول . . ومن كتاب ، شهدنا بوجودك وبوحدانيتك وأسلمنا وجهنا وضميرنا وأمرنا لك دون سواك فاكتبنا يوم القيامة مع الشاهدين ومع الذين أنعمت عليهم من النبيين

---

(١) ص ٧٧ من كتاب «الدعاء فى القرآن» لمحمود بن الشريف وعن أصل لفظة الحواريون ومعناها واشتقاقها ، وعن عدد الحواريين وأسمائهم يرجع إلى ذلك بالتفصيل فى كتب عدة منها : قصص الأنبياء ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ وحاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٧٧ وكتاب سيرة الرسول لعزة دروزة جـ١ ص١٣٧ . وكتاب الأسفار المقدسة لعلى عبد الواحد وافى .

والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

والحواريون هم « المبشرون » بلغة العصر الحديث . وهم الدعاة الذين أرسلهم المسيح فى حياته للتبشير بديانته ، ولدعوة اليهود إلى المسيحية الصافية الخالصة .

ولقد أثنى عليهم القرآن لنصرتهم الله وإيمانهم برسالة عيسى وشهادتهم له :

« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم
للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله »

(الصف : ١٤)

* * *

الإنجيل كما يصوره القرآن

« وآتيناه الإنجيل فيه : هدى ، ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » . (المائدة : ٤٦)

تضمنت آيات قرآنية عدة ذكر « الإنجيل » من سورة آل عمران [١] والمائدة [٢] والأعراف [٣] والتوبة [٤] والفتح [٥] والحديد [٦] . ذكر فى هذه المواطن كلها بصريح لفظ « الإنجيل » كما تضمنت آيات أخرى إشارة إليه كما فى سورة مريم (وآتانى الكتاب) وفى سورة البقرة وآل عمران (وما أوتى موسى وعيسى) .

والإنجيل – كما حدثنا القرآن – كتاب إلهى أنزل على عيسى هداية ونورا لبنى إسرائيل دعاهم فيه إلى عبادة الله الواحد وبشّرهم فيه بالرسول النبى الأمى وباقتراب زمن بعثه بشريعة جديدة تحمل الخير والسماحة والمعروف وتحل الطيبات وتحرم الخبائث وتضع عن الاناس إصرهم وأغلالهم وفيه مع هده البشارة بهذا النبى إشارة إلى أصحابه ومثّل لهم [٧] .

---

(١) آية رقم ٣ ، ٤ ، ٤٨ ، ٦٥ .

(٢) آية رقم ٤٧ – ٦٦ ، ١١٠ .

(٣) آية رقم ١٥٧ .

(٤) آية رقم ١١١ .

(٥) آية رقم ٢٩ .

(٦) آية رقم ٢٧ .

(٧) ويسوق القرآن الكريم هذا المثل فى الآية الأخيرة من سورة الفتح فيقول (محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنو وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) .

وفيه وعد المؤمنين بالمغفره والمثوبة .

كما قرر القرآن أن الإنجيل قد تناوله التحريف والتبديل .

تلك هى مضامين الإنجيل الإلهى كما حددها القرآن .

لذا دعا القرآن، فى صراحة ووضوح، أهل الإنجيل الإلهى الذين علموا هذه المضامين وعقلوها وآمنو بها دعاهم إلى العمل بها والحكم بما فيها (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) والحكم بما فى الإنجيل هو الإعتراف الصريح برسالة عيسى وبشريته وإنسانيته والإعتراف فى الوقت نفسه بمحمد وبرسالته ومبعثه ، إذ الإنجيل الحقيقى بشر بمحمد وبرسالته « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل »

(الأعراف : ١٥٧)

ونجد التعبير القرآنى يقول « مكتوباً » عندهم ، فهى ليست إشارة بعيدة ولكنها تدوين وكتابة لصفات ذلك الرسول وسماته. ومن حكم بهذا وسلّم به من أهل الأنجيل فهو مسلم . وهو الحكم العدل وهو العـــالم بما فى الإنجيل العامل به .

ومن لم يحكم من أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من نبوة عيسى ومحمد فأولئك هم الخارجون على تعاليم الإنجيل الإلهى وعلى مفاهيمه الحقة ووصاياه الحقيقية ؟

كذلك دعا القرآن أهل الكتاب جميعاً إلى إقامة ما فى هذه الكتب ، وإقامتها إنما يكون بالإيمان بما فيها وبما تضمنته من إيمان بمحمد، يقول ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والنحل (ص ١٥٨ ج١) « وأما قول الله عز وجل :

« يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » . [من آية ٦٨ من سورة المائدة]

فحق لا مرية فيه ، وهكذا نقول ، ولا سبيل لهم إلى إقامتهما أبداً لرفع ما اسقطوا منهما . فليسوا على شيء إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل الله منهما وجد أو عدم ، ويكذبون بما بُدِّل فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهما . وهذه هي إقامتهما حقاً » .

ثم قال في ص ١٥٩ جـ ١ وأما قوله تعالى « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » فحق على ظاهره . لأن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وإتباع دينه ولا يكونون أبداً حاكمين بما أنزل الله فيه إلا باتباعهم دين محمد صلى الله عليه وسلم . فإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل في الإنجيل الذي ينتمون إليه فهم أهله ، ولم يأمرهم قط بما يسمى إنجيلا وليس بإنجيل ولا أنزل الله .

وأما قوله تعالى :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

فحق كما ذكرنا قبل ولا سبيل لهم إلى إقامة التوراة والإنجيل المنزلين بعد تبديلهما إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل حقاً ، لإيمانهم بالمنزل فيهما وجحدهم ما لم ينزل فيهما وهذه هي إقامتهما حقاً » .

جاء في إنجيل مرقص في الإصحاح الأول منه : « جاء يسوع إلى الجليل يكرز (يبشر) ببشارة ملكوت الله . ويقول : قد كمل الزمان . واقترب ملكوت الله . فتوبوا . . وآمنوا بالإنجيل » .

هناك إذن إنجيل[١] أصيل أنزله الله على عيسى . . إنجيل إلهى مقدس . ولكن أين ذلك الإنجيل ؟ وما مسيره ومصيره ؟

يقول المرحوم عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء جـ ٣٩ : « فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذى ذكره القرآن الكريم ؟ إن الإنجيل الذى أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن ، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ ، لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحشو » .

ويقول الشيخ أبو زهرة (ص ٤٩ من كتاب النصرانية) :

« إننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت فى القرن الأول رسالة تعتبر أصلا لهذه الأناجيل فيها ما جاء به المسيح وخلاصة أحواله ، وهذا ترجمة ما قاله : « نارتن » فى كتاب له : « قال الهارن فى كتابه أنه كان فى ابتداء الملة المسيحية فى بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هى الإنجيل الأصلى .

والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ولم يروا أحواله بأعينهم ، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب . وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب ».

ويقول رحمه الله الهندى فى كتابه إظهار الحق ص ١١٣ : « إن التوراة الأصلى وكذا الإنجيل الأصلى فقدا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . والموجود الآن بمنزلة كتابين من السير مجموعين من الروايات الصحيحة والكاذبة ، ولا نقول

---

(١) كلمة إنجيل معربة عن الأصل اليونانى « أنكليون » بمعنى البشارة والتعليم انظر (ص ٣٠ من كتاب إظهار الحق).

إنهما كانا موجودين على أصالتهما إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقع فيهما التحريف حاشا وكلا .

وكلام بولس على تقدير صحة النسبة إليه أيضاً ليس بمقبول عندنا، لأنه عندنا من الكاذبين الذين كانوا قد ظهروا فى الطبقة الأولى ، وإن كان مقدساً عند أهل التثليث ، فلا نشترى قوله بحبة ! ! والحواريون الباقون بعد عروج عيسى عليه السلام إلى السماء نعتقد فى حقهم الصلاح ولا نعتقد فى حقهم النبوة ، وأقوالهم عندنا كأقوال المجتهدين الصالحين محتملة الخطأ . وفقدان السند المتصل إلى آخر القرن الثانى ، وفقدان الإنجيل العبرانى الأصلى لمتى وبقاء ترجمته التى لم يعلم اسم صاحبها أيضاً إلى الآن باليقين . ثم وقوع التحريف فيها صارت أسباباً لإرتفاع الأمان عن أقوالهم . وها هنا سبب ثالث أيضاً وهو أنهم فى كثير من الأوقات ما كانوا يفهمون مراد المسيح من أقواله . ولوقا ومرقص ليسا من الحواريين ولم يثبت بدليل كونهما من ذوى الإلهام ».

ثم يقول فى ص ١١٤ « وأما هذه التواريخ والرسائل الموجودة الآن ليست التوراة والإنجيل المذكورين فى القرآن ، فليسا واجبا التسليم . بل حكمهما وحكم سائر الكتب من العهد العتيق أن كل رواية من رواياتها إن صدقها القرآن فهى مقبولة يقينا . وإن كذبها القرآن فهى مردودة يقينا وإن كان القرآن ساكتا عن التصديق والتكذيب فنسكت عنه فلا نصدق ولا نكذب ».

ويقول فى ص ١١٥ : « قال صاحب تخجيل من حرف الإنجيل » فى الباب الثانى من كتابه فى حق هذه الأناجيل المشهورة هكذا : إنها ليست هى الأناجيل الحق المبعوث بها الرسول المنزلة من عند الله ».

ثم يقول فى ص ١١٦ : « وقال الإمام القرطبى فى كتابه المسمى بكتاب الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام فى الباب الثالث هكذا : إن

الكتاب الذى بيد النصارى الذى يسمونه الإنجيل ليس هو الإنجيل الذى قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس » إنتهى كلامه بلفظه، ثم أورد الدليل على هذه الدعوة وأثبت أن الحواريين ما كانوا أنبياء ولا معصومين عن الغلط ، وأن ما ادعوه من كراماتهم لم ينقل شىء منها على التواتر ، بل هى أخبار آحاد غير صحيحة ، ولو سلمنا صحتها لما دلت على صدقهم فى كل الأحوال وعلى نبوتهم ،لأنهم لم يدعوا النبوة لأنفسهم ، وإنما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام . ثم قال : فظهر من هذا البحث أن الإنجيل المدعى لم ينقل تواترا ولم يقم دليل على عصمة ناقليه ، فإذن يجوز الغلط والسهو على ناقليه . فلا يحصل العلم بشىء منه ، ولا غلبة الظن فلا يلتفت إليه ولا يعول فى الاحتجاج عليه . وهذا كاف فى رده وبيان قبول تحريفه وعدم الثقة بمضمونه » .

كما قال فى ص ١١٧ : « وقال صاحب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون فى بيان الإنجيل : كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على عيسى بن مريم عليهما السلام ، ثم ردّ كون هذه الأناجيل الأربعة الإنجيل الأصلى بعبارة طويلة فقال : « وأما الذى جاء به عيسى فهو إنجيل واحد لا تدافع فيه ولا اختلاف ، وهؤلاء كذبوا على الله سبحانه وتعالى وعلى نبيه عيسى عليه السلام. وقال صاحب « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى : إن هذه التوراة التى بأيدى اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين فى العلم ، وهم يعلمون قطعاً أن ذلك ليس فى التوراة التى أنزلها الله على موسى ولا فى الإنجيل الذى أنزله على المسيح، وكيف يكون فى الإنجيل الذى أنزله على المسيح قصة صلبه وما جرى له . وأنه أصابه كذا وكذا ، وأنه قام من القبر بعد ثلاث . وغير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى ».

إن هذه الأناجيل التى لم يملها المسيح ، ولم توح إليه ، والتى كتبت من بعده فقدت قداستها وصارت سجلات تواريخ وكتباً فى السيرة فحسب . وفقدت مع ذلك سندها إلى الحواريين وإلى الكتاب الذين كتبوها ، يقول رحمه الله ص ٣٣ فى كتابه « إن أهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد العتيق والجديد ، واعلم — أرشدك الله تعالى — أنه لا بد لكون الكتاب سماوياً واجب التسليم أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلانى ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل ؛ والإستناد إلى شخص ذى إلهام بمجرد الظن والوهم لا يكفى فى إثبات أنه من تصنيف ذلك الشخص ، وكذلك مجرد إدعاء فرقة أو فرق لا يكفى فيه » .

ثم أورد رحمة الله الهندى — رحمه الله — عدة أدلة على عدم وجود سند لدى أهل الكتاب متصل بكتبهم وقال « وإذا عرفت حال التوراة الذى هو أس الملة الإسرائيلية فاسمع حال كتاب « يوشع » الذى هو فى المنزلة الثانية من التوراة ، فأقول لم يظهر لهم إلى الآن بالجزم إسم مصنفه ولا زمان تصنيفه . وأفترقوا إلى خمسة أقوال ، وبعد أن فند هذه الأقوال وبين ما فيها من إختلاف قال : وكتاب القضاة الذى هو فى المنزلة الثالثة فيه إختلاف عظيم : لم يعلم مصنفه . فقال بعضهم أنه من تصنيف فنيحاس . وقال بعضهم أنه تصنيف حزقيا وقال بعضهم أنه تصنيف أرمياً وقال بعضهم أنه تصنيف عزرا ، وبين عزرا وفنيحاس أزيد من تسعمائة سنة . ولو كان عندهم سند لما وقع هذا الإختلاف الفاحش . وهذه الأقوال كلها غير صحيحة عند اليهود وهم ينسبونه رجما بالغيب إلى صمويل فحصلت فيه ستة أقوال « وكتاب راعوث »الذى هو فى المنزلة الرابعة فيه إختلاف أيضاً .

وبعد أن أورد هذه الاختلافات وأبان تناقضها قال وكتاب « أمثال سليمان »

حالة سقيم أيضاً ، وأثبت أنه جمع بعد مائتين وسبعين سنة من وفاة سليمان عليه السلام .

ثم أخذ يفند بقية الكتب ويدلل على أنها مقطوعة السند وليست من تصنيف شخص معين ، حتى وصل إلى إنجيل متى فقال : «إن إنجيل متى كان باللسان العبرانى وفقد ، بسبب تحريف الفرق المسيحية » والموجود الآن ترجمته ، ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة حتى لم يعلم باليقين إسم المترجم أيضاً إلى هذا الحين .

ثم ساق عدة آراء وأدلة لبعض الباحثين الأجانب أيّد بها رأيه فى هذا الصدد .

وقال بعد ذلك : « ولم يثبت بالسند الكامل أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا من تصنيفه ، بل ها هنا أمور تدل على خلافه » ثم ساق هذه الأمور .

* * *

لم يكن بدعا بعد ذلك كله أن تتناقض هذه الأناجيل الموضوعة وتختلف فى مولد المسيح ونسبه وصفاته ومماته . . يقول العلامة المقريزى فى المجلد الأول من تاريخه فى ذكر التواريخ التى كانت للأمم قبل تاريخ القبط : أتزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط . وتزعم النصارى أن التوراة « السبعين » التى هى بأيديهم لم يقع فيها تحريف ولا تبديل . وتقول اليهود فيه خلاف ذلك ، وتقول السامرية بأن توراتهم هى الحق وما عداها باطل وليس فى اختلافهم ما يزيل الشك ، وهذا الاختلاف بعينه بين النصارى أيضاً فى الإنجيل ، وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ مجموعة فى مصحف واحد : أحدها إنجيل متى والثانى لمارقوس والثالث للوقا والرابع ليوحنا . قد ألف كل من هؤلاء الأربعة إنجيلا على حسب دعوته فى بلاده وهى مختلفة اختلافاً كثيراً حتى فى صفات

المسيح عليه السلام وأيام دعوته ووقت الصلب بزعمهم وفى نسبه أيضاً . وهذا الإختلاف لا يحتمل مثله ، ومع هذا فعند كل من أصحاب مرقيون وأصحاب ابن ويصان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل . ولأصحاب مانى إنجيل على حدة يخالف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره ويزعمون أنه هو الصحيح وما عداه باطل ، ولهم أيضاً إنجيل يسمى إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس . والنصارى وغيرهم ينكرونه . وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت ، ولم يكن للقياس والرأى مدخل فى تميز حق ذلك من باطله امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم ولم يعول على شىء من أقوالهم فيه ».

* * *

ويرجع فى هذا المجال إلى كتاب محاضرات فى النصرانية ،وإلى كتاب الأسفار المقدسة، وإلى ص ٥٥ من كتاب تاريخ الأديان المقارن لمحمد بن فتح الله بدران حيث يقول : « إن العالم جميعاً يعلم أن « التوراة والإنجيل » ترجمت من لغات كثيرة إلى لغات أخرى وأنها كتبت بعد زمان نزولها والرسالة بها ، فليست نص كلام الله ، وليست نص كلام المرسلين . وإنما كتبها أتباع المرسلين بعد فترات طويلة من رسالتهم .

أما القرآن فقد كتب فى زمان نزوله من عند الله مباشرة آية آية وكلمة كلمة فى نفس الوقت الذى كانت تنزل فيه الآية أو الكلمة . وكتب بطريقة تذهل العلماء ، فهى وحدها الطريقة العلمية المأمونة للتوثيق ولم توجد فى أى كتاب . والعالم كله يشهد أنه ليس على ظهر الأرض الآن كتاب غير القرآن الكريم بلغ فيه التوثيق بعض هذا الحد ، والعلماء جميعاً فى أنحاء الدنيا يشهدون أنه لم يدون كتاب كما دون القرآن . فكان هناك فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة تخصصوا لأن يكتبوا كل آية تنزل من القرآن بأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله – فى مكانها كما هى فى المصحف الآن – وكانوا يسمون « كتاب

الوحى » ،ومن حواليهم عشرات ومئات من الصحابة يكتب كل منهم ما يريد .

وبهذا يتميز « القرآن » عن التوراة والإنجيل فى التثبت من نصه من الناحية العلمية ، ومن الدقة فى تدوينه ، بحيث يصبح هو المرجع الوحيد — العلمى والدينى — الذى نعتمد عليه .

ثم إن الأناجيل كثيرة والقرآن واحد . ومن عجب أن الأناجيل تنسب إلى واضعيها من البشر . وقد اعتمد المسيحيون فى الجيل الرابع بعد ميلاد المسيح رسمياً منها أربعة منسوبة إلى من ألفوها . وهى : إنجيل لوقا ، ويوحنا ، ومرقص ومتى . وهؤلاء الأربعة لم يكونوا من الحواريين .

ولكن القرآن « قرآن الله » ولم ينسب لأبى بكر وعمر « مثلا » بل ولم ينسب إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم نفسه . الذى أنزل الله عليه القرآن ، وإنما هو من الله ومنسوب إلى الله فقط .

ومن هنا أيضاً كان الفرق الكبير العالمى فى دقة المرجع وصحته وما يتبع ذلك من وجوب تفرده بالتوثيق والضبط ووجوب الإعتماد على هذا المرجع الوحيد المنسوب إلى قائله . وهو القرآن المنسوب إلى الله .

ثم إنا نلاحظ أن هناك إختلافات كثيرة وجوهرية بين طبعات التوراة والإنجيل وترجماتها لأسباب كثيرة ، منها : الأخطاء الناتجة من عدم الدقة فى الترجمة أو الطباعة . ومنها الأخطاء والتغييرات المتعمدة بالتحريف والتأويل. ومنها الإختلافات الناشئة عن طريق النطق بالحروف المكتوبة . لأن كل كلمة مكتوبة إن لم تكن مضبوطة بالشكل أو النطق تختلف قراءاتها كثيراً ، وليس فى العالم كله كتاب ضبط ضبطاً علمياً متقنا من حيث النطق إلا القرآن الكريم .

فقد وصل إلينا — وسيبقى فى الإنسانية كلها — مضبوطاً هكذا عن طريقين : طريق التواتر الكتابى ، والتواتر النطقى معاً .

أعنى القرآن هو الكتاب الوحيد الذى بقى مضبوطاً عن طريقين لم ولن يتوافر لأى كتاب آخر هذان الطريقان هما : الضبط فى السطور ، والضبط فى الصدور.

وبهذا يكون القرآن هو المرجع الوحيد لهذه المادة وأولا بالذات (أى البحث فى الأديان والملل والنحل) .

ولعلنا لو أردنا أن نقارن علميا من ناحية واحدة فقط بين هذه الكتب لرأينا العجب . فإن الأناجيل مثلا لم تكن كلام الله باجماع العالم كله . والقرآن هو كلام الله ، فلا يصح أن يقارن كلام المخلوقين بكلام الخالق، ثم ان الأناجيل أيضاً ليست هى كلام سيدنا عيسى عليه السلام ، وعلى هذا أيضاً فلا يمكن مقارنتها بكتب الحديث التى تخصصت فى ضبط كلام خاتم المرسلين محمد عليه السلام ، مثل : « البخارى » و « مسلم » .

غاية ما هناك أن الأناجيل . وفيها كلام من واضعيها حول سيرة سيدنا عيسى عليه السلام وبعض أعماله يمكن أن تشبه إلى حد قريب أو بعيد كتب السيرة خصوصاً الكتب التى لم يعتن أصحابها بالتثبيت من الرواية عن فلان عن فلان . . (العنعنة) .

* * *

كذلك عقد ابن تيمية فى كتابه الجواب الصحيح ص ٢٢٣ جـ ٢ عقد فصلا قال فيه: فصل فى شهادة علمائهم على التحريف،رد فيه على هؤلاء الذين قالوا إن هذه الكتب التى بأيديهم من التوراة والإنجيل وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها وهى على هيئتها وأثبت أن هذا كذب ظاهر ودعوى مجردة وساق من الأوجه والأدلة الكثير على هذا الزيف . وأثبت أن الحواريين ليسوا معصومين بل يجوز على أحدهم الغلط فى بعض ما ينقله . وأنهم ليسوا أنبياء ، وأنهم رسل المسيح لا رسل الله .

ثم حكم بأن ترجمة الإنجيل (من العبرية إلى اللاتينية واليونانية والعربية) وهو ما عبّر عنه بالنسخ قد أحدثت اختلافاً .وقال: معلوم أنه بكل لسان عدة نسخ ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد — مع كثرة النسخ بها فى مشارق الأرض ومغاربها . لم يكن لأحد أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد ثم قال« وكل من شهد من النصارى وغيرهم بأن كل نسخة فى العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهد زور شهد بما لا يعلم فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب تختلف ويزيد بعضها وينقص بعضها . والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد فى نقله على نسخ المصاحف بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له فى صدورهم . بخلاف كتب النصارى فإن النصارى لم يحفظوها كلها فى قلوبهم تلقيا لها عن الحواريين حفظا منقولا بالتواتر ، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها ، فضلا عن أن يحفظها كلها أهل التواتر ، فضلا عن أن يحفظ كل لسان منها من تواتر بهم ذلك اللسان » .

* * *

إنجيل برنابا

برنابا[١] : حوارى من حوارى المسيح[٢] . وداعية من دعاة المسيحية فى عهدها الأول .

ظهر له إنجيل منقطع السند ، يعرف باسم « انجيل برنابا » .

واستدلوا على ظهوره أول مرة بأنه إبان القرن الخامس الميلادى ورد ذكره مع الأناجيل التى حرمت الكنيسة الكاثوليكية بروما قراءتها فى عهد البابا « جلاسيوس الأول » (٤٩٢ — ٤٩٦م) وإن كان بعض الباحثين يشك فى هذا الأمر والبعض الآخر يقرر أن هذا الأمر لم يكن ، « إن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم فى ذلك المنشور الذى أصدره جلاسيوس[٣] » ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير[٤] .

وأيما كان الأمر ، فقد اتفقوا على أن سند ذلك الإنجيل قد انقطع ، وأن نسخه قد اختفت ولم يعرف شىء من محتوياتها منذ القرن الخامس الميلادى إلى أوائل القرن الثامن عشر إبان سنة ١٧٠٩ عندما عثر « كريمر » مستشار ملك بروسيا على نسخة من هذا الإنجيل مكتوبة بالإيطالية وبهامشها تعليقات باللغة العربية .

---

(١) ذكرت ترجمته بتفصيل وافى فى كتاب الدكتور وافى الأسفار المقدسة ص ٦١ ، وفى كتاب محاضرات فى النصرانية لأبى زهرة حـ ١ ص٥٨ وكتاب قصص الأنبياء ص ٤٠٥ ، وفى مقدمة إنجيل برنابا لناشره محمد رشيد رضا ومترجمه محمد سعادة بك .

(٢) و إن كانت الكنيسة أسقطت اسمه من الحواريين « لما رأت انجيله يخالف ما تهوى فحذفت اسمه واسم سمعان من بين التلاميذ لأنهما كانا متطابقين فى الرأى » ص ٤٠٥ من كتاب قصص الأنبياء .

(٣) ص ٤٠٤ كتاب قصص الأنبياء .

(٤) ص ٥٥ من كتاب أبى زهرة عن النصرانية .

عن هذا الإنجيل يقول الشيخ أبو زهرة (ص ٥٨ من كتابه) « وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير، وسمو التفكير والحكمة الواسعة، والدقة البارعة، والعبارة المحكمة، والمعنى المنسجم، حتى أنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى لسمو العبارة وبراعة التصوير.

ولماذا أنكره المسيحيون؟ على أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة؟ والجواب عن ذلك: أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة. ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين. ليعرف أى الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى، أذلك الإنجيل بما خالف أم الرسائل والأناجيل التى توارثوها؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار، كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل ! !

والامور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى أربعة أمور:

أولها: أنه لم يعتبر المسيح ابن الله، ولم يعتبره إلها، وقد ذكر ذلك فى مقدمته، فقال: « يأيها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بنبيه يسوع المسيح رحمة عظيمة للعالمين، وخصه بمعجزات إتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين فأخذوا يبشرون بتعاليم ممعنة فى الكفر داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذى أمر به الله، ومجوزين كل لحم نجس. وقد ضل مع هؤلاء بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسف والأسى. وهذا هو ما دعانى لأن أسطر ذلك الحق الذى رأيته ».

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين: أنه قد « قدم على المسيح كبير الكهنة مع الوالى الرومانى والملك هيردوس ملك اليهود، فذكر له كبير الكهنة

أن فريقاً من الناس يقولون إنه إله وأن فريقاً آخر يقولون إنه ابن الله ، وطلب إليه أن يعمل على إزالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله ، فقال له يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تخمد الفتنة؟ وهل جننت أنت أيضاً ؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً ؟ ثم قال : إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قاله الناس عنى من أننى أعظم من بشر ، لأنى مولود من امرأة وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر ».

ويقول فى آخر الفصل السبعين : « إن يسوع قد نظر إلى الحواريين عندما بلغه افتتان الناس به وادعاؤهم أنه إله أو أنه ابن الله ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى ذلك . فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله ، فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلا : إذهب وانصرف عنى لأنك أنت الشيطان .

الأمر الثانى : أن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو : إسماعيل ، وليس باسحاق كما هو مذكور فى التوراة ، وكما يعتقد المسيحيون ، وهذا هو نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا ابراهيم ، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله ، فأجاب ابراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله فكلم الله حينئذ ابراهيم قائلا : خذ ابنك بكرك وأصعد إلى الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون اسحق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين ؟ ! !

الأمر الثالث : هو أن مسيا أو المسيح المنتظر ، ليس هو يسوع ، بل محمد وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول ، وقال إنه

رسول الله ، وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا « إن الآيات التى يظهرها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه « مسيا » الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » .

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاما وافياً فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح به فصرح بما يعلن حقيقته ويبين ما له من شأن .

الأمر الرابع : أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب . ولكن شبه لهم ، فألقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول فى ذلك إنجيل برنابا « الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه « يسوع » كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع معتقدين أنه كان نبياً كاذباً ، وأن الخوارق التى ظهرت على يديه إنما ظهرت بصناعة السحر » ثم يذكر أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه وليزيل ما علق بنفوس الناس من شك فى أمره ومن اعتقاد بأنه صلب ، وأنه نزل ثلاثة أيام ، ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات وقال لهم : إن الله قد وهبنى أن أعيش أتحسبوننى أنا والله كاذبين ، الحق أقول لكم : أننى لم أمت ، بل الذى صلب هو يهوذا الخائن احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، وكونوا شهودى فى كل إسرائيل وفى العالم أجمع على جميع الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

هذا هو إنجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها ، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح ، وألوهيته . وكان هذا شعارها الذى بها تعرف وعلامتها التى بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ، وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى وهو ينسب إلى قديس من قديسهم . فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحين وفى مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية . ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقاراً رجة فكرية عنيفة اهتزت بسببها المشاعر والمنازع فالكنيسة والمتعصبون من المسيحين يرفضونه رفضاً باتا ما دام قد أتى بما لا يعرفون هم . ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها إلى نقضه جملة أو قبوله جملة . أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ومتنها أقرب إلى العقل والفكر من متنه . ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته وموازنة نصوصه بالتوراة والإنجيل ورسائل رسلهم ، بل بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ومما هو مشهور عند المسلمين ، وأن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه وبين ما جاء فى رسائل بولس ليعرف القارىء الباحث أيهما أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق وأوثق به ».

* * *

على أن الحلقة المفقودة فى هذا البحث هى : أين النسخة الأصلية التى نقلت عنها الترجمة الإيطالية ؟ فليست الإيطالية هى لغة برنابا ، بل لغته العبرية

فهناك إذن أصل عبرى نقلت عنه ، أين هذا الأصل؟ لم تحدثنا الكتب والمصادر التى تحدثت عن هذا الإنجيل بأى حديث عن الأصل المنقول عنه . وما دام الأصل لا وجود له ، ولا سند، فنحن فى مندوحة وحل من عدم الاعتراف به . والدليل إذا تطرق إليه الإحتمال سقط به الاستدلال ولا دليل هنا يقطع ويجزم بأن هذا إنجيل برنابا ، فيجوز أن يكون هذا الإنجيل لمفكر إيطالى اعترف بمحمد وبرسالته وبعيسى وبرسالته فأخرج هذا الإنجيل ونسبه لبرنابا .

ولا سيما « أن بعض ما يشتمل عليه هذا الكتاب نفسه يحمل على الظن بأنه موضوع ، وخاصة ما يقرره من أمور تمثل روايات ذكرها بعض مؤلفى المسلمين ولا يطمئن إلى مثلها المحققون منهم ، كما يقرره عن آدم وأنه لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إله إلا الله محمد رسول الله وما ينسبه إلى المسيح من أقوال تمثل تحقيقات الفقهاء والمؤرخين لا كلام الأنبياء كالأقوال التى ينسبها إلى المسيح بشأن الذبيح ، وما يذكر من أن المسيح قد قدمه من أدلة على أنه هو « إسماعيل » لا أسحق[١] » .

وما دمنا لا نعترف بالأناجيل الحالية الأربعة ، ولا بالأناجيل الموجودة حالياً على اعتبار أنها فقدت السند وفقدت الأصل الإنحيلى الذى نقلت عنه وهو الإنجيل الحقيقى المنزل على عيسى والذى بشر به عيسى ، إذا كنا لا نعترف بهذه الأناجيل لفقدها الأصل فمن باب أولى أن لا نعترف بالإنجيل الإيطالى ما دام الإنجيل « البرنابى » العبرى الأصلى لا وجود له ولا إشارة إليه ولا سند له .

فتقويم إنجيل برنابا فى الرأى الذى نراه ، هو : شهادة من مفكر كأية

---

(١) ص ٨٨ من كتاب الأسفار المقدسة .

شهادة شهد بها بعض مفكرى الغرب ومنصفيه كتولستوى واللورد هيدلى[1] ، أو شهاده من راهب مسيحى متخصص فى العقيديات دارس للتاريخ العقيدى باحث فى اليهودية والمسيحية. والإسلام فحرر هذا الإنجيل الذى أودع فيه خلاصة بحثه ودرسه وإيمانه وإعتقاده « وأن[2] المسيحيين يجهلون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة ، حتى لقد يقول الدكتور سعادة : إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماما عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد لها مثيلا بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين كالمفسرين ، حتى أنه لينذر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب أنجيل برنابا ».

وإلى أن تظهر الأيام الدليل الدامغ على أصالة أنجيل برنابا فإننا نرجئ رأى أبى زهرة مع وجاهة ذلك الرأى الذى يقول فيه[3]« إن هذه بينات شاهدة ، وإن لم تبلغ مبلغ اليقين والجزم بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا صحيحة : لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص . وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلا وكاتبه يدل على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحى غير الإخصائى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الإخصائيين وأن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو إنجيل . .

هذه بينات شاهدة تشهد بأن الإنجيل الذى كشف وعرف صحيح النسبة ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئاً يظن

---

(١) يرجع إلى ترجمة اللورد هيدلى فى كتابنا « رواد خالدون » .

(٢) ص ٥٦ من كتاب النصرانية لأبى زهرة .

(٣) ص ٥٦ من كتاب النصرانية .

فى حمله إتهاماً له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفياً للتهمة عن نفسه .

قد يقول قائل : إن هذه البيانات كلها مرجحة ، وليست يقينية ، ونحن نقول إن مسائل التاريخ كلها ترجيح وليست يقينية جازمة ، فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الإحتمال فانا نأخذ بذلك الظن . لأنه المأخذ فى مسائل التاريخ(١) والإحتمال الذى لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه بجوار الاحتمال الناشىء عن دليل .

ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهرانى المسيحيين وفى مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليس لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أن ليس لهم يد فى إنشائه ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبته . ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صريح فى التبشير باسم النبى ، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص . ونحن نرد على الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخ يعرف العربية على ضعف فيها ، لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة . . وسقيم العبارة فى أحيان كثيرة . ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامى ، ولا يتخذ من صلبه الإيطالى دليلا على أصله المسيحى . أما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحاً وليس فيه تلميح ، فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح فالنص الإيطالى الذى بين أيدينا

---

(١) قد يرد عليه البعض بان هذا مسلم فى المسائل التاريخية ولكن الذى أثاره برنابا مفاهيم عقيدية وأصول إلهية وشتان بينهما و بين مسائل التاريخ ونظرياته .

ترجمة لا نص . وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى فلم يسعفه فى لغة التلميح فنطق بالصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب من أصلها العربى .

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور ، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظرة المسيحى بهذا الإنجيل . مع أن فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم على المسيحى . فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الإيطالية فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً . ولو بطريق الوهم البعيد . هى تناقض أخبار التاريخ الإسلامى مناقضة تامة . وإلا لاحتج المجادل عن الإسلام بها ففيها أقوى دليل . والتاريخ لم يحفظ ذلك . وهذى سجلاته ليستبطنوها . وليعرفوا دخائلها . فلن يجدوا فيها شيئاً يقوّى دعواهم ويثبت قضيتهم ».

ونحن مع تسليمنا بكل هاتيك المقدمات والنتائج التى أدت إليها إلا أننا نقول إن الإسلام غنى عن كل شهادة مشكوك فى نسبتها . ونذهب مع الدكتور وافى الذى قال[١] : « إن الإسلام ليس فى حاجة إلى كتاب كهذا تحوم حوله شكوك كثيرة لتأييد ما يذكره القرآن عن المسيح وحقيقة ديانته وتبشيره بالرسول ، فالقرآن ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذى نتخذه دليلا فى الحكم على أناجيلهم المزعومة ومبلغ تحريفها للإنجيل الذى أنزله الله على عيسى ، ولا ينبغى أن نتخذ سفراً مشكوكاً فى صحة نسبته إلى صاحبه دليلا على ذلك ، ولا أن نعتمد عليه لإقناع المسيحيين ببطلان ما أقروه من أناجيل » .

---

(١) ص ٨٨ من كتابه الأسفار المقدسة .

آراء مسيحية . . حول الأناجيل . .

انجيل يوحنا :

جاء فى دائرة المعارف البريطانية – التى أشرف على تحرير المسائل المسيحية فيها خمسمائة من علماء النصارى – : « أما انجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض ، وهما القديسان يوحنا ومتى وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح . فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل لبعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه . وأنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا . ولو بأوهى رابطة . ذلك الرجل الفلسفى الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى بالحوارى يوحنا الصياد الجليل . فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى ، لخبطهم على غير هدى » .

وفى دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم « لاروس القرن العشرين » قالت : إنه ينسب ليوحنا هذا الانجيل وثلاثة أسفار أخرى من العهد الجديد ؛ ولكن البحوث الحديثة فى مسائل الأديان لا تسلم بصحة هذه النسبة » .

ويقول أرنست رنان فى كتابه « تاريخ المسيح »[1] : « وفى الحقيقة أننا مهما

---

(١) ترجمة فرح أنطون ص ٦٠ « الباب الرابع » والناشر مطبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٠٤ وفى الصفحات الأولى من هذا الكتاب مقدمة تحليلية مستفيضة عن حياة الفيلسوف المؤرخ أرنست رنان.

فيتشنا الإنجيل فإننا لا نجد فيه تقرير عقيدة لاهوتية وكل ما فيه من المعتقدات مقتبس من أفكار يسوع ومؤول تأويلا ، فكان شأن يسوع مع تلامذته كشأن أرسطو مع علماء « السكولاستيك » فإن هؤلاء بإعلانهم أن أرسطو هو المعلم الوحيد ، وأن العلم الذى وضعه علم كامل لا ينقصه شيء قد ناقضوا فكر أرسطو نفسه ، ولو شهد أرسطو مجادلاتهم وسمع قولهم هذا لنبذ هذا التعليم الضيق . وكان فى جانب خصومهم ، أى فى جانب العلم التدريجى الذى ينكر التقليد الأعمى ، بل إنه كان يصفق استحساناً لأقوال معارضيه ومجادليه متى رآهم قد أصابوا . وهكذا يسوع فإنه لو عاد إلينا اليوم فإنه لا يعتبر من تلامذته أولئك الذين يرومون حبس فكره فى عبارات يسطرونها فى كتاب ، بل أولئك الذين يحذون حذوه ويكملون فعله فى عالمى : الروح والفكر » .

ثم يقول : « وأن كتبة الإنجيل أنفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى أنهم لعدم وصولهم إلى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن أفكاره ، فى كتاباتهم كثير من الأخطاء والمتناقضات ، وفى كل سطر منها يشعر القارئ بأن هناك جمالا آلهيا . ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وإبرازه . لأنه لا يفهمه . ولذلك يبدله بفكره الخاص وجملة الكلام : أن تلامذة يسوع قد أضعفوا جمال صورته بدل أن يزيدوها زينة ، وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين أيديهم ضعفا » .

وتولستوى[1] ينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بإلهام ويعلن فى جرأة أنها حرفت وعراها التغيير والتبديل ، فيقول فى صراحة المستمسك بالعروة الوثقى : « إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الإلهى . فالمسلمون

---

(١) تولستوى مفكر غربى حر يرجع فى ترجمة حياته وتاريخه إلى كتاب فى جزأين من تأليف المرحوم « محمود الخفيف » أسماه تولستوى .

يعتقدون بنبوة موسى وعيسى . ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية ، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء ، وأنه قد أوضح فى قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية ، كما قالاها دون زيادة ولا نقص . وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه ويتمسك به ويسير بموجب أحكامه ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح ، ويسمى المسلمون ديانتهم المحمدية . بخلاف الكنيسة المسيحية التى تسير الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من روح القدس ، فكان الأحرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية»[١].

« الأناجيل الحالية غير صحيحة »[٢] :

أعاد — الفونس ايتين دينيه — قراءة الأناجيل من جديد محاولا جهده أن يراها تتسم بسمة الحق : فيؤمن بابن الله وبالكاثوليكية . ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلا عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها . فمن أقوال المسيح التى فيها حطة واحقار لأمه العذراء ما صدر عنه فى عرس « قانا » : « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك . ودعا أيضا يسوع تلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة » (انجيل يوحنا الإصحاح الثانى عشر) .

ومن أقواله التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها ، لأنه لم يكن موسم تين : « فنظر شجرة تين من بعيد ، عليها ورق ، وجاء

(١) انظر كتاب النصرانية لأبى زهرة ص ٢٠٤

(٢) من كتاب محمد رسول الله تأليف : اتيين دينيه وترجمة : الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد عبد الحليم محمود . الناشر : دار المعارف .

لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها لم يجد شيئا إلا ورقاً . لأنه لم يكن وقت التين ، فأجاب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون » (انجيل مرقص : الاصحاح الحادى عشر) .

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب : « وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (إنجيل متى : الاصحاح الخامس عشر) .

ومن أقواله التى توجب كراهية الأقرباء : « إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته . حتى نفسه أيضا . فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » (انجيل لوقا : ١٤) . ومن أقواله التى فيها اعتراف بالجهل[١] : «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب » (انجيل مرقص الاصحاح الثالث عشر) .

هذه النصوص تبعث فى النفس الشك فى صحة الأناجيل التى بين أيدينا وأداه ذلك إلى البحث فى صحة الأناجيل وفى قيمتها من الناحية التاريخية ، وكانت نتيجة بحثه : أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه ، ولا شك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر ، أو أنه باد ، أو أنه قد أبيد » .

---

(١) قال ابن تيمية ص ٢٢٣ جـ ٢ من كتابه الجواب الصحيح . (وأما قول المسيح عليه السلام لما سئل عن علم الساعة فقال لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب فقط فنفى عن نفسه علم الساعة . وهذا يدل على شيئين : على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت ، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة ، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم ما يعلمه الله ، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد ، فان لو كان الاتحاد حقاً كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه فانه هو الله عندهم ، والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت ، فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يحيى ويميت .

« القرآن . . وعقيدة التثليث »

فى حكم واضح صريح بين القرآن الكريم أسس المسيحية الحقة ، التى نادى بها المسيح . ودعا إليها وعرف لها ، المسيحية المبرأة من التحريف والتخريف . المسيحية الإلهية الأصيلة ، لا المسيحية البشرية الموضوعة .

فأثبت أن عيسى بشر . وأنه رسول مؤيد بكتاب إلهى وبوحى سماوى ، وأنه نادى بعقيدة التوحيد ، فدعا إلى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؛ وقرر أنه لم يقتل ولم يصلب ، بل توفاه الله ورفعه إليه .

وعن عقيدة التثليث فى المسيحية ، جلى القرآن هذه القضية وعرض زيفها وزعمها وعرض حيثياته للحكم الذى أصدره عليها ، ودعا أهلها دعوة منطقية بأن لا يغلو فى دينهم ولا يشتطوا فى عقيدتهم وأن يلتزموا جادة الإيمان الحق بأن يحكموا عقولهم ، ويحكموا بما أنزل الله إليهم فى إنجيلهم وأن يلتزموا بمضامينه وما فيه من دعوة إلهية صريحة لعبادة الله الواحد الأحد والإيمان برسوله عيسى وبمحمد الذى يجدون اسمه وصفته فى إنجيلهم .

وعقيدة التثليث تزخر بمزاعم وأضاليل وأباطيل . فهى تزعم أن الله ثالث ثلاثة . . وأنه ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية : الله الأب ، والله الابن ، والله الروح القدس . فالمسيح إله ، وهو ابن الله وفى الوقت نفسه هو بشر وإله هو لاهوت وناسوت ، هو الله وابن لله ، وأصل من الأصول الثلاثة المكونة لله ، تعالى الله .

ويصدر القرآن حكمه فى هذه القضية العقيدية ويحكم بكفر من اعتنقها أو اعتقد فيها :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم .

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون (المائدة : ٧٥) .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ». (المائدة : ١٧)

ونرى القرآن يقرن لفظ المسيح أو عيسى بكلمة ابن مريم ليقرع آذان النصارى بأنه ابن مريم لا ابن الله . «كما ينبه القرآن المسيحيين إلى أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ومن البين أن الذى يأكل الطعام فيتحول فى جسمه دما ولحما وعظاما ، وينضح عرقا ، ويخرج فضلة لو بقيت فى الجسم لأضرته . . من الواضح أن كائنا من هذا النمط لا يمكن أن يكون إلا بشرا . خاضعا لكل قوانين البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مرتبته كرسول[1] ».

(١) ص ٧٤ من كتاب التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود .

والقرآن يسجل أن دعوة عيسى كانت إلى التوحيد الكامل . .

ويسوق القرآن أقوال المسيح فى هذا المجال :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد » . (المائدة : ١١٦)

هذا هو قول المسيح ؛ أو اعترافه — إن جاز هذا التعبير — دوى فى ذلك النص القرآنى . وسيظل يدوى أبد الدهر بأنه إنسان بشر يتبرأ من دعوى الألوهية وينفى ما لصقه به المحرفون والمخرفون من أتباعه وأشياعه ، ويعترف بأن علمه محدود وأجله محدود . وأنه عبد خاضع ورسول أمين لا يبلغ إلا ما أمره مولاه أن يبلغه .

وسيظل ذلك النص القرآنى بما يحمل من دلائل على جوهر المسيحية الحقة ونقائها — سيظل مسجلا على أهل التثليث غلوهم وميهم ، ولعلهم إن كانوا أتباع المسيح حقا أن يثوبوا إلى عقيدته الحقة .

كما سجل القرآن كذلك دعوة المسيح لبنى إسرائيل بركائزها ومفاهيمها وبنتائجها وعواقبها .« وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » . (المائدة : ٧٢)

هذا هو عيسى فى كتاب الله ، وقوله وقومه ، وموقفهم بإزائه . .

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن

يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

(مريم : ٣٦) .

وهذه هى قضية الألوهية الحقيقية . وقصتها « إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله » .

انصاف :

وعن مخالفة هذه العقيدة المسيحية للحق والواقع ومجافاتها للعقل والمنطق أفردت كتب إسلامية كثيرة صفحات طوالا ناقشت فيها هذه العقيدة وأثبتت زيفها وزيغها . والكتب الاسلامية فى هذا المجال أكثر من أن تحصى فى القديم والحديث .

على أنه ليس فى كتب النصارى ما يدل فى وضوح وصراحة على أن المسيح قال بهذه الأقانيم الثلاثة . بل فيها ما يدل على إنسانيته وبشريته وعبوديته ووحدانيته لله ، وأن المتصفح للانجيل القارئ له بعين الحيدة والنصفة لتقع عينه على عبارات واضحة صريحة محددة على أن الله واحد وأن عيسى مرسل وأنه ابن الإنسان لا ابن الله .

شواهد من الإنجيل :

١ ــ عن عبوديته :

فى الآية ١٧ من الإصحاح ٢٠ من إنجيل يوحنا :

قال المسيح فى خطاب مريم المجدلية « لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ولكن اذهبى إلى أخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

فحكم ببشريته وإنسانيته عندما قال أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم وهذا قول يضع حدا لتخرصاتهم وتقولاتهم وأباطيلهم ، وما دام حواريوه وتلاميذه عباداً لله فكذلك هو عبد الله . .

وهذا النص الإنجيلى يطابق ما حكى الله عنه فى القرآن (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) و « قال إنى عبد الله » .

ب — عن رسالته :

من إنجيل يوحنا آية ٢٤ باب ١٤ قال المسيح :

(الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للأب الذى أرسلنى) .

فنى ذلك اعتراف برسالته وبأن دعوته وحى من عند الله .

جـ — وحدانية الله :

من انجيل متى باب ٢٣ آية ٩ :

(لا تدعو لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات)

فهذا اعتراف صريح بوحدانية الله .

وفى الآية ٢٢ من هذا الباب « ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه » . وهذا اعتراف بالألوهية المطلقة البعيدة عن الشرك والتثليث .

د — إنسانيته وأنه ابن الإنسان لا ابن الله :

من إنجيل متى إصحاح ٢٦ آية ٦٤ :

(قال يسوع : أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان) .

وفى إنجيل متى : الإصحاح الثامن آية ٢٠ يقول المسيح عن نفسه :

(أما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه) .

وكذلك وردت لفظة ابن الإنسان فى الاصحاح التاسع آية ٦ من هذا الإنجيل السابق . وفى الاصحاح ١٣ آية ٣٧ . على أن متى قال أول كلمة فى إنجيله فى الاصحاح الأول «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم » فذكر نسبه الصحيح ولم يقل إنه ابن الله ولا أنه إله من إله .

٦ وفى إنجيل يوحنا الإصحاح الأول آية ٥١ « الحق الحق أقول لكم ، من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة السماء يصعدون وينزلون على ابن الإنسان ».

على أن المتتبع لإطلاق لفظ الابن فى الأناجيل يجدها تحمل معانى عدة ، فهى تطلق على : الصالحين ، وعلى المؤمنين بالمسيح . وعلى المحبين . وعلى المطيعين لأمر الله ، وعلى العاملين بالأعمال الحسنة ، وعلى أبناء الأشراف (كما جاء فى سفر الخليقة باب ٦) : (فرأى بنو الله (أى بنو الأشراف) بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لهم نساء من كل ما اختاروه) والمراد ببنات الناس : بنات العامة .

وعلى المحبين للسلام : (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون) (إنجيل متى : ٤٤) . وكل هذه استعمالات مجازية لكلمة ابن . . لا يراد بها مدلولها الحقيقى .

كذلك كلمة الأب لها استعمال مجازى ساقه رحمه الله الهندى فى كتابه إظهار الحق ص ٩ جـ ٢ عندما قال : « وفى الباب الثامن من إنجيل يوحنا فى المكالمة التى وقعت بين اليهود والمسيح هكذا : أنتم تعملون أعمال أبيكم ! ! فقالوا له : أننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله . فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى . . . أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا . . . إلخ) .

فاليهود ادعوا : أن لنا أباً واحداً وهو الله . وقال المسيح عليه السلام ، لا بل أبوكم الشيطان . وظاهر أن الله والشيطان ليس أبا لهم بالمعنى الحقيقى ، فلا بد من الحمل على المعنى المجازى . فغرض اليهود نحن صالحون ومطيعون لأمر الله وغرض المسيح عليه السلام أنكم لستم كذلك بل أنتم طالحون مطيعون للشيطان » .

وعن عقيدة التثليث عند المسيحيين والتعليق على بطلانها تقول مخطوطة « قبس الأنوار فى الرد على النصارى والكفار » (ص ٩) :

(القاعدة الثانية وهى الإيمان بالتثليث ، فعندهم لا يمكن دخول الجنة إلا بالايمان به ، فيؤمنون بأن الله ثالث ثلاثة وأن عيسى هو ولد الله ، وأن له طبيعتين : ناسوتية ولاهوتية وتلك الطبيعتان صارتا شيئاً واحداً فصار اللاهوت إنسانا محدثا تاما مخلوقا ، وصار الناسوت إلها تاما خالقا غير مخلوق .

وبعضهم يقول الثلاثة هم : الله . وعيسى ، ومريم .

فيلزمهم على مقتضى قولهم أن المسيح ابن الله أن تكون ذاته كذات الله وله علم كعلمه وقدرة كقدرته إلى سائر الصفات الأزليه .

وهذا باطل بنص أناجيلهم .

فنى إنجيل ماركوس — فى الفصل الحادى عشر — أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن الساعة التى هى القيامة ، فقال لهم إن ذلك اليوم لا يعلمه الملائكة الذين فى السماء ولا يعلمه إلا الأب وحده يعنى الله تعالى .

فهذا إقرار من عيسى بأنه ناقص علم عن الملائكة .

وأن الله هو المنفرد بعلم الساعة وقيامها ، وأن عيسى لا يعلم إلا ما علمه الله .

وفى الفصل العشرين من إنجيل « متى » : أن عيسى حين عزم اليهود على

أخذه وقتله تغير فى تلك الليلة وحزن حزناً شديداً .

فكل من يحزن ويتغير فليس بإله ولا بابن آله عند كل ذى عقل صحيح .

وكيف يتقرر فى عقل السليم أن الله مازج بعض مخلوقاته حتى صار شيئاً واحداً ؟ فتعالى الله الملك الحق عما يشركون .

وأيضاً : أين كان لاهوته لما مات ناسوته لا سيما على قولهم إنهما اتحدا وتمازجا والتحما . فما الذى فرق بينهما عندما ضرب جسده بالسياط على زعمهم وعصب رأسه وصلب على خشبة وطعن بالرمح حتى مات وهو يصيح خوفاً وجزعا . فأين غاب لاهوته عن ناسوته فى هذه الشدائد مع الممازجة والالتحام على قولهم . وهم يزعمون أن لاهوته فارقه عند الصلب والقتل وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء وكان ناسوته فى القبر مدفوناً حتى رجع إليه لاهوته فأخرجه من القبر ورجع إليه وصعد به إلى السماء . ! !

فكل هذه دعاوى باطلة .

وفى أناجيلهم ما يشهد بأنه ليس له إلا طبيعة واحدة وهى « الآدمية » ففى إنجيل متى فى الفصل العاشر : أن عيسى عليه السلام لما انتقل إلى المدينة التى ولد بها استخف الناس به فقال : لا يستخف بنبى إلا فى مدينته . فهذا إقرار بأنه نبى من جملة الأنبياء وليس للأنبياء كلهم إلا طبيعة واحدة وهى « الآدمية » .

ويعلق المؤلف على هذه العقيدة فيقول :

حاشا أن يكون الخالق الأزلى قد استحال لحما ودما ويكون له ولد فى الأرض أو فى السماء . وتعالى الله أن يحل فى بشر ويموت ، كيف . وهو

الحى الذى لا يموت ، أو يصير بذاته القدسية فى بطن امرأة وهو الذى وسع كرسيه السموات والأرض .

لا بد فى الذى صير أحدهما أبا والآخر ابنا أن يكون غيرهما وأيضاً فما الذى خصص هذا بالأبوة وهذا بالبنوة دون التعاكس ؟»

ويرجع كذلك فى الرد على معتنقى عقيدة « التثليث » إلى مخطوطة : تحفة اللبيب فى الرد على أهل الصليب ؛ (وهى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦ لاهوت) لمؤلفها عبد الله بن عبد الله الترجمان .

كما يرجع كذلك إلى صفحات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ من كتاب قصص الأنبياء للنجار ، وصفحات ٣٦٤ ، ٣٦٥ ح ٢ من كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية .

ولصفحات ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ج ١ ، وأوائل ج ٢ من كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى ففيها الكثير من هذه الشواهد التى سقنا بعض النماذج منها فيما سلف .

فلا جرم بعد هذا أن أنكر بعض المنصفين المسيحيين هذا التثليث .

يقول ابن حزم فى كتابه « الفصل » ص ٤٧ ج ١ فى باب « الكلام على النصارى »:

« والنصارى فرق ، منهم ؛ أصحاب « أريوس » وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله : التوحيد المجرد . وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السموات والأرض ،وكان فى زمن قسطنطين الأول بأن القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم . وكان على مذهب إريوس هذا .

ومنهم أصحاب بولس الشمشاطى وكان بطريركيا بأنطاكية بعد ظهور النصرانية

وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى فى بطن مريم من غير ذكر . وأنه إنسان لا إلهية فيه ، وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس .

وكان منهم أصحاب « مقدنيوس » وكان بطريركيا فى القسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين ابن قسطنطين بانى القسطنطينية وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه .

وكان من قول مقدنيوس هذا : التوحيد المجرد . وأن عيسى عبد مخلوق إنسان نبى رسول الله كسائر الأنبياء، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عز وجل) »

ويقول[1] الدكتور وافى فى كتابه الأسفار المقدسة ص ١٠٠ :

« ومن أهم الفرق المسيحية التى ظلت عقائدها محافظة على التوحيد . فرقة ابيون ، وفرقة بولس الشمشاطى . وفرقة اريوس .

(١) أما فرقة ابيون أو الأبيونيين (أتباع أبيون) فكانت تقر جميع شرائع موسى . وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم وتنكر ألوهية المسيح . وتعتبره مجرد بشر رسول . وقد تم انقراض هذه الفرقة فى القرن الرابع الميلادى .

(٢) وأما فرقة الشمشاطى . فهم أتباع بولس الشمشاطى كان بولس الشمشاطى هذا أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٠ م . وأنكر ألوهية المسيح وقرر أنه مجرد بشر رسول . وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ م إلى سنة ٢٦٩ م ثلاث مجامع للنظر فى شأنه ،

---

(١) ذكرت المرجع والمصدر فى هذه الجزئية لما فى المرجع من زيادات أوضحت ما فى المصدر من إجمال .

وانتهى الأمر بحرمانه وطرده ، وقد بقى لمذهبه أتباع على الرغم من ذلك حتى القرن السابع الميلادى .

وبعد أن نقل الدكتور وافى ما ساقه ابن حزم فى هذا الشأن ، قال : «ويقول ابن البطريق فى بيان مذهبه: « أن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره . وأن ابتداء الابن من مريم (أى أنه محدث وليس قديما) . ويقولون إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد . ولا يؤمنون بالكلمة (أى الابن) ولا بروح القدس وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقانيون » .

(٣) وأما الأريسيون ، فهم أتباع «أريوس » وكان أريوس هذا قسيساً فى كنيسة الإسكندرية ، وكان داعياً قوى التأثير . واضح الحجة ، جريئاً فى المجاهرة برأيه وقد أخذ على نفسه فى أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بألوهية المسيح وبنوته للأب ، فقام يقرر أن المسيح ليس إلها ، ولا ابنا لله ، وإنما هو بشر مخلوق ، وأنكر جميع ما جاء فى الأناجيل من العبارات التى توهم بألوهية المسيح .

ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول : «كان يقول إن الآب وحده الله ، والابن مخلوق مصنوع . وقد كان الآب حيثما لم يكن الابن » وقد تبعه مشايعون كثيرون . فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى ، وعلى رأسها مبليثوس وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد . أقوياء فى المجاهرة بما يعتقدون كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية ، وذلك على الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهداً فى محاربته ومحاربة آرائه . وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرد من الكنيسة .

ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس وكفره ، وأصدر قراره بألوهية المسيح ، وما زال يضمحل ويتناقص عدد أتباعه حتى انقرض كل الانقراض فى أواخر القرن الخامس الميلادى » .

وتحت عنوان « عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح » تحدث الشيخ أبو زهرة فى كتابه النصرانية ص ٢٠٣ فقال : « وجدنا علماء كثيرين قد صرحوا فى قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا ، وأنه لم يكن أكثر من بشر . وقد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها فهذا « رينان » قد جهر بذلك فى قوة وجرأة ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الإصرار على رأيه والذود عنه .

وهذا « تولستوى » ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح ؛ وتنتهى نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح . بل طمسها . والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضاً وإخفاء .

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف . فهو يقول : « إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر . ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولا للجدل أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره . فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صفته الإلهية الكمالية ،

بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم وآخرها فى عصرنا الحالى ، والمستمسكة بها جميع الكنائس وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلها ، دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار: موسى ، والزبر ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله » .

هو إذن ينكر ألوهية المسيح ، وينكر ألوهية روح القدس . ويعتقد بأن « الله واحد أحد فرد صمد » .

* * *

وقالت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية عند كلمة « ثالوث » : « إن عقيدة الثالوث ، وإن لم تكن موجودة فى العهد الجديد « الإنجيل » ولا فى أعمال الآباء الرسوليين ، ولا فى تلاميذهم الأقربين إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنتى الواقف مع التقليد يزعمون أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمان رغما من أدلة التاريخ الذى يرينا كيف ظهرت هذه العقيدة وكيف نمت . وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك . نعم إن العادة فى التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الأب والابن والروح القدس ولكننا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهمه الآن نصارى اليوم . وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق ، وما كان بطرس أحد حواريه يعتبره إلا رجلا موحى إليه من عند الله . ثم قالت دائرة المعارف بعد ذلك : كان الشأن فى تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى

كانت عالية مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التى ولد فيها « المسيح » والتى تسمى بها النصارى) والاثبيوتيين ، وجميع الفرق النصرانية التى تكونت من اليهودية اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس وما كان أحد إذ ذاك يتهمهم بأنهم مبتدعون أو ملحدون . قال جوستين مارشوز (مؤرخ لاتينى فى القرن الثانى) « إنه كان فى زمنه فى الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح ويعتبرونه إنسانا محضا وإن كان أرقى من غيره من الناس وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل » .

التثليث عقيدة وثنية :

وما التثليث فى العقيدة المسيحية إلا لون من ألوان العبادة الوثنية والشرك فهو ليس بطارئ على العقيدة المسيحية . ولكنه يمتد بجذور عميقة فى أرض العقيدة إلى الوثنية العالمية القديمة . . ويتصل بها بأقوى الوشائج والصلات .

فالعقيدة المسيحية التى زعمت أن الله ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح قدس. هى نفس العقيدة التى كان يدين بها قدماء المصريين فى ثالوثهم: ايزيس وأوزوريس وحورس . وهى نفس الثالوث الجاهلى العربى : « اللات والعزى ومناة الثالثة » .

وهى نفس الثالوث البرهمى فى الديانة الهندية : براهما وسيفا وفشنو .

وهى نفس الثالوث الإلهى لقبائل البانتو الأفريقية : ميزيمو وبيبو ومولنجو .

هذه هى الاتجاهات العقيدية التى تدين بالتثليث .

عن الثالوث الأفريقى يقول العقاد فى كتابه « الله » : « وقبائل البانتو الأفريقيون يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع :

نوع هو بمثابة الأطياف الانسانية الراحلة وهو الذى يسمونه ميزمو .

ونوع هو أرواح لم تكن قط فى أجسام البشر وهو الذى يسمونه بيبو .

ويزعمونه قابلا للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء .

ونوع مفرد لا جمع له وليس من الأطياف ولا من الأرواح المتعددة ويسمونه « مولنجو » .

وعن الثالوث البرهمى يقول فى نفس المرجع السابق :

« فالبرهمية ، وقد ذاع أنها دين بغير إله مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين والملائكة والأرواح ، وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالوث المؤلف من : برهما ، وفشنو ، وسيفا . وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة فضلا عن صفات الشخوص» .

وعن الثالوث البرهمى يقول الدكتور وافى[1] « إن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها فى آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة ، وإن كان ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين فى نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ، وذلك أنها تقرر أن الآلهة براهما كان قبل الوجود وأنه خلق العالم وسمى نفسه « الخالق » ثم انبثق منه الإله « سيفا » وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذه الآله وشأنه لفنيت السموات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث محافظ مجدد هو الإله « فيشنو » .

ويرجع أيضا فى تبيان هذا الثالوث البرهمى إلى كتاب مقارنات الأديان للشيخ أبى زهرة ص ٢٣ ، ٢٨ .

ويقول صاحب كتاب محمد فى التوراة والانجيل والقرآن ص ٥٣ :

« ويقول المسيو أرثر فندلاى أيضا فى كتابه (الكون المنشور) فى صحيفة ١٥٧ مقارنا المسيحية بالوثنية الفرعونية « وتماما مثل ما كان يردد المصريون :

---

(١) ص ١٠٧ من كتابه الأسفار المقدسة .

(لما كان أوزوريس يحيا حقا فسوف أحيا)

(ولما كان أوزوريس لن يموت فلن أموت)

نفس هذه العبارات يرددها المسيحيون الأولون والمتأخرون بقولهم :

لما كان المسيح يحيا فسوف أحيا .

ولما كان المسيح لن يموت فلن أموت .

وللتأكد من هذا كله انظر إلى : (يوحنا ٦ : ٣٢ — ٥٩) تجد صدق التشابه فى المقارنة التى أتى بها السير أرثر فندلاى والتى دونت فى العهد الجديد .

ويسترسل السير أرثر فندلاى فيقول :

« نفس العبارات التى قيلت لأوزوريس نسبت إلى المسيح ، ولما أضيف اسم عيسى إلى قائمة الآلهة المخلصين أصبحت كل القصص التى قيلت عن الآلهة الوثنية تقال بالمثل تماما عن عيسى المسيح . ومن تلك :

قصة الولادة من العذراء — قصة المحاكمة قبل الموت ، وطريقة الإعدام وطريقة القيامة وطريقة الصعود ، وقصة القيامة بالجسد .

تلكم القصص التى كانت تتكرر فى المعابد القديمة صيغت فى ألفاظ وركزت حول المسيح عيسى بدلا من أوزوريس الفراعنة » .

وعن عقيدة التثليث المصرية يقول العقاد[1] : ثم استقر الأمر لثلاثة من الآلهة هم : أوزوريس وإيزيس وحورس .

وقال الفيلسوف فريد وجدى « نعم كان الثلوث موجوداً فى ديانة قدماء المصريين بالنسبة لآلهتهم الوطنية » .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه مقارنات الأديان ص ٢٨ :

---

(١) ص ٦٣ من كتابه الله .

« والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت فى إنسان اسمه « كرشنا » والتقى فيه الإله بالإنسان ، أو حل اللاهوت فى الناسوت فى كرشنا ، كما يعبر المسيحيون عن المسيح ، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية لأنه قدم شخصه فداء للخليقة عن ذنبها الأول ، ويقولون إن عمله لا يقدر عليه أحد سواه . ويعتقدون أن الإله « وشنو » وهو الابن وثانى الأقانيم قد حل فيه ، ومن الغريب أنهم يذكرون حول « كرشنا » من الأساطير والعجائب ما يشبه ما جاء بالأناجيل عن المسيح ، والقول الجملى أن الهنود يعتقدون فى كرشنا ما يعتقده المسيحيون فى المسيح » .

وقد عقد صاحب كتاب « العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية[1] » موازنة بين أقوال الهنود فى كرشنا وأقوال المسيحيين فى المسيح فتقارب الاعتقادان حتى أوشكا أن يتطابقا ، وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرفة فقد علم إذن المشتق والمشتق منه . والأصل وما تفرع عنه . وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم . ثم نقل بعض هذه الموازنات التى جاء فيها :

أقوال الهنود الوثنيين فى كرشنا « ابن الله » :

كرشنا : هو المخلص والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله . والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس ، وهو الآب والابن والروح القدس .

وأقوال النصارى المسيحيين فى يسوع المسيح « ابن الله » :

يسوع المسيح :

« هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الآب والابن والروح القدس » .

---

(١) ومؤلف هذا الكتاب هو « محمد طاهر البيروتى » .

إلى غير ذلك من الموازنات المتطابقة التى استغرقت الصفحات من ٣٠ إلى ٤٢ من كتاب مقارنات الأديان لأبى زهرة والتى نقلها بنصها من المصدر السالف الذكر للبيروتى .

وللإمام البوصيرى قصيدة موضوعية منطقية دامغة الحجة قوية الدلالة قال فيها :

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعتم أن الإله لحاجـــة يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذى لم يستطع صرفا له عنه ولا تحويلا
يا ليت شعرى حين مات بزعمهم من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قـــول منزه لإلهه سبحان قاتل نفسه . فأقولا
أو جل من جعل اليهود بزعمكم شوك القتاد لرأسه أكليلا
ومضى لحبل صليبه مستسلما للموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهتدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر وأضلهم رأوا القبيح جميلا

وفاة المسيح :

من أبرز نقاط الخلاف بين الإسلام والمسيحية ، مسألة صلب المسيح فالإسلام يقرر – فى وضوح وتأكيد – أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، يقول القرآن (فى آية ٥٥ من سورة آل عمران) « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك

ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » .

وفى سورة النساء : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه، وما صلبوه . ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه . . . »(١٥٨) .

وعن معنى الوفاة والرفع والتطهير ساق صاحب كتاب قصص الأنبياء عدة آراء لعديد من المفسرين بلغت تسعا ثم اختار منها أوجهها لديه ؛ وهو أن المراد من قوله تعالى: (يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) هو أنى مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك . وأن الآية كناية عن عصمته من الأعداء .

ثم تساءل : أين مكان عيسى وما الذى آل إليه أمره ؟ وأجاب عن ذلك بقوله : إن الله تعالى أبهم أمره علينا ولم يقصه . فنحن نفوض العلم بذلك إلى الله تعالى ، فليكن أنه أماته فى الأرض ، أو أنامه كما أنام أهل الكهف ، أو أصعده إلى السماء لا نقطع بشيء من هذه الأشياء بعينه — بل نبهمه كما أبهمه الله .

ومن أراد أن يقطع بشيء فعليه دليل ما قطع به ، وتفويض العلم إلى الله أسلم فى العاقبة وأكثر احتياطا للدين ، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد الله به على نفسه . وليس عنده عليه سلطان مبين ».

وللإمام المرحوم الشيخ محمود شلتوت فتوى[١] قرر فيها أن معنى قوله تعالى (يا عيسى إنى متوفيك) أى مميتك إماتة عادية ، إذ المعنى اللغوى الوضعى والمعنى القرآنى

---

(١) يرجع إلى كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت من ص ٥٢ إلى ص ٥٧ ، وإلى ما نشرته مجلة الرسالة فى سنتها العاشرة .

المراد لكلمة « متوفيك » إنما هو مميتك إماتة عادية ، ومن قال إن عيسى حى فى السماء فذلك إدعاء وزعم منه .

كما قرر أن معنى الرفع فى (ورافعك إلىّ) رفع مكانة لا رفع جسد ، بدليل التعقيب الذى جاء بجانب الرفع . وهو قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم .

ويؤيد ذلك كذلك أن الرفع جاء فى القرآن كثيراً بهذا المعنى (فى بيوت إذن الله أن ترفع — نرفع درجات من نشاء — ورفعنا لك ذكرك — ورفعناه مكانا عليا — يرفع الله الذين آمنوا . . . الخ) .

وحكم لذلك بأن التعبير بقوله (ورافعك إلى) وقوله (بل رفعه الله إليه) كالتعبير فى قولهم : لحق فلان بالرفيق الأعلى ، وفى (ن الله معنا) وفى (عند مليك مقتدر) وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول فى الكنف المقدس . فمن أين يؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه) ؟ اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآنى الواضح . خضوعا لقصص وروايات لم يقم على الظن بها — فضلا عن اليقين — برهان ولا شبه برهان ! !

وبعد ذلك ساق من الأدلة ووجهات النظر ما قوى به متجهه السالف هذا ثم أثبت أنه ليس فى القرآن ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء . وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .

وأن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ، ورافعه إليه . وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبه . ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه .

وأن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه فيها حى إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعى فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه .

ومن الأدلة التى ساقها فى هذا المتجه آراء للأئمة : محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، فنقل ما أورده الشيخ محمد عبده (فى الجزء الثالث من تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ » قال الشيخ محمد عبده إن للعلماء هنا طريقتين : إحداهما وهى المشهورة : أنه رفع بجسمه حيا وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى .

والطريقة الثانية : أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر منه وهو « الإماتة العادية » وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح . . »

وأورد كذلك ما قاله الشيخ رشيد رضا (فى الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين للمنار) : الذى قال فيه : وجملة القول إنه ليس فى القرآن نص صريح فى أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حيا حياة دنيوية بهما ، بحيث يحتاج بحسب سُنن الله تعالى إلى غذاء وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وإنما هى عقيدة أكثر النصارى وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين » .

أما المغفور له الإمام المراغى فقد قال :

« ليس فى القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه ، وعلى أنه حى بجسمه وروحه ، وقول الله سبحانه (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) الظاهر منه أنه

توفاه وأماته ثم رفعه ، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفع درجات عند الله ، كما قال فى إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا » وهذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين، فهو عند هؤلاء توفاه الله وفاة عادية ثم رفع درجاته عنده فهو حى حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء ؛ لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حى الآن بجسده وروحه . وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذى يسوغ تفسير القرآن بها .

ثم قال : ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التى توجب على المسلم عقيدة ، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر .

وأخيراً قال : وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حى بجسمه وروحه . والذى يخالف فى ذلك لا يعد كافراً فى نظر الشريعة الإسلامية ».

* * *

« والأئمة المحدثون الذين اتجهوا هذا الاتجاه كلهم قد استقوا من معين واحد واستمدوا رأيهم من رأى الإمام الرازى الذى قال :

« واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله (ورافعك إلىّ) هو رفع الدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة ».

* * *

أما النصارى فإنهم جعلوا خاتمة أمر المسيح عليه السلام خاتمة شنيعة ، ومأساة مروعة ، وجعلوا الاعتقاد بحصولها — على الوجه الذى صوروه — أصلا من أصول

دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم ، ولا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ، ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقالوا إن المسيح صلب فداء للبشر وتخليصا لهم من الخطايا ، وتضحية من أجلهم .

يقول الكاتب المسيحي عوض سمعان فى كتابه (قضية الغفران فى المسيحية) ص ١٤٣ :

« لقد كانت حياة المسيح بأسرها تفيض حبًّا للناس وعطفا عليهم ،فلم يعش لنفسه قط بل قضى حياته بأسرها يعلم الجهال ويطعم الجياع ويشفى المرضى ويقيم الموتى لكن لو كان قد ظل عائشا على الأرض إلى الآن يقوم بهذه الخدمات دون أن يحمل عنا قصاص خطايانا لكانت هذه الخدمات — مع سموها وفائدتها — لا شيء بالنسبة إلى ما أجراه على الصليب لأجلنا . لماذا ؟ لأننا كنا نفيد منها أثناء وجودنا على الأرض فقط ، لكن كنا ننتقل بعد ذلك إلى دينونة أبدية مرعبة إنما بفضل موته الكفارى رفعت هذه الدينونة عنا ، وتهاطلت علينا عوضا عنها بركات روحية أبدية لا تحصى ولا تعد .

ثم يقول « قد يظن بعضهم أننا أعطينا الصليب مكانة أكثر مما يستحقه ، لكن أليست التضحية أسمى الصفات وأنبلها؟أليس نظام الطبيعة قائما على التضحية فالجماد يقدم نفسه لغذاء النبات ، والنبات يقدم ذاته لغذاء الحيوان ، والحيوان يقدم ذاته لغذاء الإنسان ؟ وكان من الواجب بناء على هذا الناموس الطبيعى أن يقدم الإنسان ذاته لأجل مجد الله ، لكنه عوضا عن أن يقوم بذلك قدمها ضحية على مذبح شهواته فمات واحتاج إلى حياة . ولما كان الله وحده هو ينبوع الحياة لذلك أتاه بملء محبته الأزلية فى المسيح وبذل نفسه فداء عنه لكى تكون له

حياة ، وحياة أبدية أيضاً (يوحنا ١٠ : ١٠) فهل تضحية مثل هذه تتعارض مع العقل ؟ » .

ونحن نقول إن العقل المتحرر ليتساءل : لم كان هذا ؟ إله ينزل ليفدى البشر ، ويرضى بأن يصلب ويعذب ليكون فداء عن أخطاء البشرية ! ! لماذا هذا ؟ بل ولم كل هذا ؟ فلماذا لم يرفع عن البشر أصرهم والأغلال التى فى أعناقهم ويغفر لهم رأسا . من غير أن يكلف نفسه كل هذه المشاق ! ! يا له من إله لم يختصر الطريق .

ولماذا لم ينزل عقب ظهور آدم . . عقب خطيئة أب البشر ؟ !

ولماذا لم ينزل آخر الزمان . . عقب خطيئة كل البشر ؟ !

وهل عدم الإله المزعوم وسيلة أخرى ينقذ بها البشر من خطاياهم غير قتاه ؟

وهل عجز عن خلق شخص يقوم بهذه المهمة نيابة عنه إن كان لا بد منها ! !

وما قيمة هذه المهمة ؟ هل ستلغى العقاب عن المخطئين وتجعلهم يسدرون فى خطئهم ويتمادون فيه ما دام الفادى قد فداهم بنفسه ؟ .

أم سيعذبهم جزاء خطئهم ، وما قيمة الفداء إذن ؟ !

انكار :

لقد أنكرت بعض العقول المسيحية المتحررة المفكرة أنكرت صلب المسيح كما جاء فى الكتاب المسيحى السالف الذكر ص ١٢٨ قال (على الرغم من الأدلة الواضحة التى تثبت أن موت المسيح كان كفارة عنا إلا أن بعض الفلاسفة المنتمين إلى المسيحية أمثال : مرقيون وستروس ورينان وهولتزمان ينكرون هذه الحقيقة » .

وتحت عنوان « تاريخ إنكار موت المسيح وأسبابه » قال فى ص ٨٩ من المرجع السابق أيضا : « ظهر فى القرن الثانى للميلاد فلاسفة أطلقوا على أنفسهم : « الغنوسيين » وهى كلمة يونانية معناها أهل العلم والمعرفة ، أقبلوا على فحص تعاليم المسيحية فأنكروا صلب المسيح ، وقالوا إن سمعان القيروانى رضى أن يصلب عوضا عن المسيح ، لذلك جعل الله هيئته مثل هيئة المسيح وترك سمعان ليصلب عوضا عنه .

وقال الدوكيتيون إن المسيح لم يصلب مطلقا ، إنما تراءى للناس أنهم صلبوه ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسمهم هذا ، لأنه مشتق من فعل يونانى معناه « يظهر » أو « يتراءى » للدلالة على عقيدتهم هذه .

وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا أن فكرة عدم صلب المسيح لم تندثر كما اندثر غيرها من أفكار الفلاسفة التى ظهرت فى القرون الأولى للمسيحية ، بل كانت تظهر من وقت إلى آخر فى بلدان متعددة بواسطة أشخاص كانوا يدعون العلم والمعرفة :

فى سنة ١٧٥ م قام فريق من نسل كهنة طيبة الورعين الذين اعتنقوا المسيحية وقالوا « حاشا للمسيح من الصلب ، بل أنه رفع إلى السماء سالما » .

وفى سنة ٣٧٠ م ظهرت طائفة « الهرموسيين » لكنها لم تلبث طويلا حتى انقسمت إلى قسمين ، فانقاد الفريق الأول وراء اثناسيوس الرسولى بطريرك الإسكندرية وآمن بصلب المسيح ، وانقاد الفريق الآخر وراء الغنوسيين وأنكر صلبه وقال : « إنه لم يصلب ولكن شبّه للناظرين أنهم صلبوه » .

وفى سنة ٥٢٠ م هرب ساويرس أسقف سوريا إلى الإسكندرية فوجد بها قوماً من الفلاسفة ينادون بأن المسيح لم يصلب بل شبّه للناس أنهم صلبوه .

وفى سنة ٥٦٠ م ظهر راهب يدعى « تيودوروس » وأنكر بشرية المسيح ، وبالتالى أنكر صلبه » .

وفى سنة ٦١٠ م نادى الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص بأن المسيح لم يصلب بل شبّه للناظرين أنهم صلبوه .

* * *

قال أحد شعراء المسلمين :

عجبا للمسيح بين النصارى وإلى الله والدا نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان ما يقولون حقا فسلوهم فأين كان أبوه
فإن كان راضيا بأذاهم فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإن كان ساخطا غير راضى فاعبدوهم لأنهم غلبوه

وفى هذا المعنى يقول صاحب كتاب إظهار الحق : ص ١٦ ج ٢ :

« إنكم يا أصحاب عقيدة الصلب تعترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حيا على الخشبة وقد مزقوا ضلعه وأنه كان يحتال فى الهرب منهم وفى الاختفاء عنهم وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد ، فإن كان إلها أو كان الإله حالا فيه أو كان جزء من الإله حالا فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه ولم لم يهلكهم بالكلية ؟ وأى حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتيال فى الفرار منهم ؟ » .

عقيدة الفداء والصلب عقيدة وثنية :

وفى كتاب العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية ، موازنات ومقارنات بين الديانة البرهمية والهندية والديانة المسيحية أثبتت فيها أن عقيدة الفداء والصلب فى المسيحية

مردها إلى العقيدة الوثنية فى الديانة البرهمية التى سبقت المسيحية بأجيال وأجيال وأوضحت المقارنات أن الهنود يعتقدون أن « كرشنا » صلب ومات على الصليب كما أن المسيحيين يقولون أن يسوع صلب ومات على الصليب وأن الهنود الوثنيين قالوا فى بوذا ابن الله وأنه تجسد بواسطة حلول روح للقدس على العذراء « مايا » .

كما أن النصارى قالوا إن المسيح ابن الله وأنه تجسد بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم .

ونضيف إلى ذلك أن عقيدة الحلول المسيحية هذه تمتد جذورها إلى عقيدة سبقتها بأجيال وأجيال وهى عقيدة بعض الصابئين الذين يقولون « بالحلولية » وهم الذين يزعمون وحدة الإله وأنه يحل فى الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها ويتشكل بأشكالها .

تناقض ! !

على أن لنا وقفة ها هنا نسوق فيها تناقضا غاب إدراكه عن أصحاب عقيدة التجسد والتصليب .

فهم يزعمون أن الله — جل وعلا عن هذا علوا كبيراً — تجسد بعد أن نزل من بطن مريم وصلب ليخلص البشر من خطيئة آدم أب البشر[١] .

فيكون مبدأ التجسد — على هذا الزعم — هو بعد أن نزل من بطن مريم وقبل ذلك لم يكن هناك تجسد .

على أن كتابهم — المقدس — أثبت التجسد منذ عهد إبراهيم . .

(يرجع إلى الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين حيث ذكر أن الله وملكين معه قدموا على إبراهيم ...) .

---

(١) يرجع إلى الأناجيل : متى ولوقا ويوحنا وما فيها من أقوال حول الصلب والتجسد .

فإذا كان تجسّد زمن إبراهيم أو قبل زمن إبراهيم ، فأين كانت مريم ، وكيف تجسد آنئذ ؟ .

وإذا كان التجسد زمن مريم فماذا يقولون فى نصوصهم السالفة تلك التى نادت بالتجسد من قبل ؟

هل ينكرونها فيكونون من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟

لقد سكتوا . وسكتت كتبهم عن هذه التساؤلات وعن ذلك الملحظ ، فهل يا ترى غاب عنهم هذا الملحظ ؟ إننا نسوقه من غير ما تعليق أو تعقيب ! !

مصادر ومراجع

والمؤلفات الكثيرة فى هذه المناحى المسيحية التى سقناها أكثر من أن تحصى ، وهى ما بين مؤلفة أو مترجمة ، وما بين قديمة أو حديثة وما بين مخطوطة ومطبوعة .

وهناك كتب مخطوطة تناولت بسط العقائد المسيحية والرد عليها من جهة النظرة العقلية ومن وجهة النظرةالإسلامية .

من أمهات المخطوطات فى هذا المجال :

(١) رسالة فى الرد على النصارى لأيوب صبرى ، أسماها « بهجة التفريح بحقيقة المسيح » (وهى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٧ عقائد — خزانة تيمورية) .

(٢) الرسالة الصمصامية فى الرد على الطائفة النصرانية لعبد الله بن دستان مصطفى (مخطوطه رقم ١٢٤ عقائد — مكتبة تيمور) .

(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة لأحمد بن ادريس القرافى . (مخطوطة تحت رقم ١٧٩ عقائد — خزانة تيمورية) .

(٤) البراهين الساباطية فى الرد على النصرانية . لجواد ساباط الحسنى الحنفى . (مخطوطة رقم ٢٤٦ — عقائد — تيمورية) .

(٥) منتخب كتاب « تخجيل من حرف الإنجيل » الأصل للإمام أبى البقاء صالح بن حسين الجعفرى والمنتخب للشيخ أبى الفصل المالكى السعودى . ومعه رسالة فى الرد على النصارى للمولى عبد الله بن الحاج مصطفى .

(تحت رقم ٣٠٥ عقائد بدار الكتب المصرية) .

(٦) مخطوطة قبس الأنوار فى الرد على النصارى والكفار .

وقد استشهدنا ببعض ما ورد فيها عند الحديث عن التثليث فى المسيحية .

ونسأل الله أن يهيئ لهذه المخطوطات من ينفض غبار القدم عنها حتى ترى الضوء ، وتخرج فى ثوب حديث يزينه التمحيص والتحقيق، وجمال الطبع وحسن الإخراج والتخريج .

الباب الخامس

الإسلام

« إن الدين عند الله الإسلام »

« قرآن كريم »

(من آية ١٩ من سورة آل عمران)

الإسلام بكتابه ووحيه . . بأبعاده وآماده . بقيمه ومثله .

الإسلام بأصوله ورسوله ، وحكمه وأحكامه . وسماته وصفاته ، ومميزاته وخصائصه .

الإسلام بشريعته الكاملة .

الإسلام بكل هذه المفاهيم وما تحمل هو دين الله الذى إرتضاه لعباده.

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

إمتاز الإسلام بهذا الثالوث : بالقرآن ، والرسول . والشريعة .

وامتاز الثالوث الإسلامى بالخاتمية :

فالقرآن خاتم الكتب الإلهية ، ورسوله خاتم الأنبياء . وشريعته خاتمة الشرائع السماوية .

وبهذا كله كان الإسلام ديناً عاماً خالداً . . ديناً للإنسانية منذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . .

١ ـ القرآن :

وقد أوضح القرآن أنه حوى الأصول الصحيحة التى جاءت بها الأديان السابقة :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً . والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٢).

توحيد وتصديق :

« ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » .

فى مطلع تلك الآيات تتصدر قضية عامة ، وكلية هامة هى أساس العقيدة وأساس الإيمان . . قضية التوحيد . هذه القضية التى اشتركت الكتب المقدسة كلها فى الدعوة إليها والتى جاءت بها الشرائع السماوية جميعاً . فما من رسول إلا نادى بالتوحيد ، وما من كتاب سماوى إلا هدى إلى أن الله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إن رسالات السماء تكاد تكون فى عمومها : رسالة واحدة يكمل بعضها بعضاً ، أساسها التوحيد . ثم تفريعات وتشريعات دعمت هذا الأساس الواحد . وفى النهاية استكمل البناء بالرسالة المحمدية يقول الرسول عليه السلام :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : هلا وضعت اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

فلا جرم أن اعتز الإسلام برسالات الرسل جميعاً . . ولا جرم أن صدق القرآن ما قبله من الكتب السماوية غير أن القرآن ناسخ للكتب السماوية السابقة..

ناسخ لكل فرقان سابق . . نسخ التوراة والإنجيل والزبور . . نسخ كل هذا وغيره ، لأنه الكتاب الكامل الخالد الذى أتى الإنسانية بعد أن بلغت رشدها وأتى العقل بعد أن بلغ نضجه وعلمه ، وبعد أن صلح للبشرية بتعاليمه وآدابه وتشريعاته لذا كانت مفاهيمه وأصوله وركائزه لا يعتورها تعديل ولا تبديل من أجل ذلك كتب له الخلود وكتبت له الخاتمية .

وما كانت الكتب السماوية السابقة على القرآن إلا خطوات تمهيدية على طريق الإيمان مهدت للخطوة الأخيرة . . وللغرض النهائى . وللكتاب المحفوظ القرآن الكريم .

ولو أراد الله أن تكون هذه الكتب السماوية السالفة هداية للانسانية عامة فى كل مكان وآن لحفظها وصانها وحال دون تحريفها .

لذا لم يحفظ الله إلا كتابه الخالد القرآن إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وغدا القرآن الصورة الأخيرة للكتاب الإلهى المساير لحاجات البشر .

وغدا القرآن كما قال محمد صلى الله عليه وسلم :

عليكم بكتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم . والصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء . ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ومن حكم به عدل . ومن خاصم به أفلح ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وكما تحدث الرسول عن القرآن كذلك تحدث القرآن عن القرآن :

وسنورد هنا مقتطفات وأقباساً من حديث القرآن عن القرآن :

فى أول سورة البقرة يقول القرآن عن القرآن :

« ألم ذلك الكتاب . لا ريب فيه هدى للمتقين » .

« ذلك الكتاب » كلمتان تبلور فيهما ما يوحى بهذلك التعبير من « كمالية» ذلك الكتاب، وما تضمنه من عباذات وعادات . : من دنيا ودين . . من كليات وأقضية، من قواعد ومفاهيم . . ذلك الكتاب الكامل لن يكون بعده كتاب هو خاتم الكتب كما أن المنزل عليه هو خاتم الرسل به كملت الشريعة وتمت العقيدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

والشريعة بأحكامها والعقيدة بأصولها قد حددها ذلك الكتاب ووحد الجميع تحت راية التوحيد، وحد لكل طريقه وإبان المنهج وأوضح الهدف ووضع المعالم تنير وتهدى وتكشف للانسانية كلها وللعالم أجمع طريقه العقيدى .

أتى البشرية بعد أن بلغت ونمت فنسخ ما قبله من كتب وكتب له البقاء والخلود والحفظ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولعلماء البلاغة وقفة طويلة عند ذلك التعبير الإلهى ، فالتعبير بالإشارة . . الإشارة البعيدة باللام والكاف « ذلك » يراد بها بعد مرتبته فى الكمال التى تقصر العقول البشرية والطاقات الإنسانية عن التطاول إليها أو بلوغ مداها وأبعادها .

وتضمن ذلك التعبير الجامع قضايا وكليات وأصولا وأسساً فرعها الله بعد ذلك بقوله :

لا ريب فيه :

ما كان حديثاً مفترى ، ولا إفكا ملسوساً ، ولا أساطير كواذب كذلك لم يكن من عنديات محمد ، بل هو حق لأنه من عند الحق والله هو الحق المبين .

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما) .

لا مجال فيه للشك ولا للجدال ، ولا للرأى ولا للريب . بل التسليم المطلق والإذعان والخضوع . . لما جاء به ولما احتواه إذ هو هدية الحق إلى الخلق وهداية للناس من رب الناس، نزل على رسول أمى فأصلح به العقائد والنفسيات فأنى يكون للشك فيه مجال أو مكان .

(ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

هدى للمتقين :

المتقون : الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون . . هؤلاء هاديهم القرآن ورائدهم الفرقان وحاديهم كتاب الله هم فى حاجة إلى زيادة من الإيمان وزيادة من التقوى يأخذ الفرقان بيدهم فى كل هذه المجالات ويهديهم إلى ما هو أرفع وأنفع . وإلى ما هو أصلح وأسعد ، فالأتقياء دوماً فى حاجة إلى مرشد وموجه وهاد، والقرآن هدى للمتقين . يجدون فيه ما يشحذ هممهم وما يشحن طاقاتهم بمدد إلهى لا ينفد ولا يبيد . وإذا كان هداية للمتقين . فلا جرم إن كان هاد للحيارى . . وللمستشرفين للنور . . وللمتطلعين إلى الحق . والمتطلبين للهداية .

وللإمام محمد عبده منحى دقيق فى تفسير قول الله « هدى للمتقين » تفادى به ما قد يقال من أن المتقى مهدى . فكيف يكون القرآن هدى له ؟ !

فقال (ص ١٢٧ من تفسير المنار) : « كان من الجاهلين من مقت عبادة

الأصنام وأدرك أن فاطر السموات والأرض لا يرضيه الخضوع لها ، وأن الإله الحق يحب الخير ويبغض الشر فكان منهم من اعتزل الناس لذلك ، وكانوا لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهال وتعظيم جانب الربوبية وذلك ما كان يسمى « صلاة » فى لسانهم وبعض الخيرات التى يهتدى إليها العقل فى معاملات الخلق، وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) .

وبقوله : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد : بالمتقين .

ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء فى وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين ، بل أولئك هم الذين كان فى قلوبهم اشمئزاز مما عليه أقوامهم ، وفى نفوسهم شىء من التشوف إلى هداية يهتدون بها . ويشعرون باستعدادهم لها ، إذا جاءهم شىء من عند الله تعالى . فالمتقون فى هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضرباً من الرشاد ، ووجد فى أنفسهم شىء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على توقّ سخط الله تعالى والسعى فى مرضاته بحسب ما وصل إليه علمهم وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم » .

صفات . . وسمات قرآنية القرآن :

فى كتاب الله مواطن متفرقة تجمعها وحدة واحدة .

فقد عددت آيات من الفرقان مختلف السمات التى وصفت القرآن ، وأبانت

النعوت التى انفرد بها ذلك الكتاب الكامل ، فأبانت أنه :

ذكر وذكرى :

« إن هو إلا ذكر للعالمين » (التكوير : ٢٧)

« وإنه لذكر لك ولقومك » (الزخرف : ٤٤) .

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا » (الإسراء : ٤١) .

« إن هو إلا ذكرى للعالمين » (الأنعام : ٩٠) .

« لتنذر به وذكرى للمؤمنين » (الأعراف ٢) .

هو حق :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

هو للمؤمنين نعمة وهدى ورحمة . وهو على الكافرين نقمة « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

جمع فأوعى :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (الأنعام : ٣٨) .

وفيه تبيان لكل شىء :

« ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء » (النحل : ٨٩) .

هو فصل مفصَّل :

« إنه لقول فصل » « ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم » .

(آية ٥٢ من سورة الأعراف) .

هو موعظة ونور وشفاء لما فى الصدور :

« يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

(آية ٥٧ من سورة يونس)

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » .

(آية ١٧٤ من سورة النساء)

« إنه[1] كتاب متشابه مثان . ومعنى تشابهه أن بعضه يشبه بعضاً فى قوة نسجه وعمق تأثيره وإحكام بلاغته . فكل جزء مؤثر بألفاظه وأفكاره وأخيلته تصويره ، ومعنى أنه مثان: أن ما فيه من معان يثنى فى مواضع مختلفة ، ومناسبات عديدة ، فيكون لهذا التكرار أثره فى الهداية والإرشاد ، وهو بهذا التكرار يؤدى رسالته التى جاء من أجلها .

ولذا كان تشابهه وتكرير ما جاء به من عظات مؤثراً أكبر الأثر فى القلوب حتى لتقشعر منه جلود أولئك الذين يتدبرونه وتنفعل له قلوبهم ، ثم لا يلبثون أن تطمئن أفئدتهم إلى هداه ، وتهدأ نفوسهم إلى ذكر الله « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء » .

ويعرف القرآن بما له من تأثير قوى بالغ حتى لتتأثر به صم الحجارة إن أدركت معناه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .

والقرآن هاد للبشرية وللإنسانية جمعاء ، ينتشلها من وهدة الظلام إلى ذروة

---

(١) ص ٢٨٤ من كتاب بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى .

النور وسناء الإشراق (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور).

والقرآن هدى له فعالية فى النفس وسحر وسلطان فى الوجدان، جاء عتبة ابن ربيعة إلى رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت بهم جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم . وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليه أموراً تنظر فيها . لعلك تقبل منى بعضها..

فقال له الرسول عليه السلام : قل يا أبا الوليد اسمع . .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : قل . فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . . » .

وكان عتبة يصغى وينصت وقد ملكت عليه نفسه تلك الآيات البينات .

ولما انتهى الرسول من القراءة قال لعتبة : قد سمعت يا أبا الوليد ماسمعت ،

(١) ص ٣١٣ من سورة ابن هشام .

فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى قومه حائراً مشدوهاً وقد تغير وجهه فقالوا له :

ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وأن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . فهز كتفيه وتركهم قائلا : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم » .

ثم إذا أضيف إلى الإيقاع القرآنى حسن الترتيل كان للفرقان وقع أشد وتأثير أبلغ . ولا عجب أن أمر بذلك القرآن فقال « ورتل القرآن ترتيلا » .

لذا كان أبو بكر رضى الله عنه حينما يقرأ القرآن فى بيته بمكة كان يتعمد أن يجود قراءته ويتمهل فى تلاوته حتى تصل إلى الأذهان المرهفة التى كانت محيطة به وإلى قلوب بعض المشركين الذين كان يعلم أن قراءته تصل إلى مسامعهم ، وما كان يرجو من وراء ذلك إلا أن يؤثر عليهم بروعة التنزيل وحلاوة الترتيل فيأتوا مسلمين مستسلمين . وقد كان له ما أراد حتى ضجت قريش بصنيعه فبيتوا أمرهم بليل وتظاهروا على إخراجه من مكة لولا أن قطع عليهم « ابن الدغنة » ما حاكوه بإعلانه حمايته لأبى بكر .

شفاء . . ورحمة :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » :

إن التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة قد وضع حداً لذلك الخلاف الذى أثار عجاجته إتجاهات بعض المفسرين :

فالبعض منهم نظر إلى منطوق الآية وظاهرها وتغلبت عليه عاطفته الدينية فأثبت أن القرآن شفاء . شفاء لعديد من الآلام والأسقام ودواء ناجع نافع لبعض الأوصاب الجسدية . وآزره فى هذا المذهب وذلك الاتجاه ما ورد من أحاديث حول التداوى ببعض آيات القرآن وألفاظه .

واستبعد آخرون تلك الوجهة وقالوا : إن القرآن كتاب هدى روحى وتوجيه معنوى ، وليس مبضع جراح يستأصل عفنا أو جرعة تذهب سقماً .

وأوّل كل ما جاء من أحاديث تخالف وجهته .

والحق أن المتأمل فى التعبير القرآنى فى هذه الآية يجد فيه الفيصل. فالآية تقول « وننزل من القرآن ما هو شفاء » منه . وليس كله . شفاء ورحمة . شفاء قد يكون جسدياً ورحمة قد تكون نفسية . رحمة من آلام الوجدان والنفس التى قد تكون أقسى من آلام الجسد والحس .

ليس القرآن كله شفاء جسدياً ولكن بعضه يكون كذلك . ويصدق عليه ذلك بحكم ذلك التعبير القرآنى السالف .

ثم هو بعد ذلك ليس علاجاً شافياً لكل من « هب ودب » . بل لمن يحمل خاصية مستقلة . وخصيصة معينة وصفة شخصتها الآية : «للمؤمنين» لمن يحمل على كتفيه تبعات الإيمان . ومن يحمل فى أعماقه الاعتقاد المطلق والإذعان التام والتسليم الكامل والإيمان الذى لا حدود له بكل ما جاء فى القرآن ، فكان من القرآن شفاء لما يهمه أو يؤلمه ولما يؤرقه أو يقلقه . . والاعتقاد — كما أثبت الطب النفسى الحديث — من أهم العوامل فى الشفاء . . أما الظالمون فلن يجدى معهم هذا العلاج الخاص المشخّص لطائفة خاصة . لذا كان التعقيب القرآنى عقيب ذلك (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) من ذلك ما ورد بسند فى كتاب الرسالة القشيرية ج ٢ :

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفى ، قال حدثنا عبد العزيز بن الفضل قال حدثنا محمد بن أحمد المروزى.قال حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : قال أبو حمزه نصر بن الفرج خادم أبى معاوية الأسود قال : كان أبو معاوية قد ذهب بصره ، فإذا أراد أن يقرأ القرآن نشر المصحف ، فيرد الله عليه بصره ، فإذا ما أطبق المصحف ذهب بصره .

القرآن . . والعلم .

يحلو لبعض الباحثين المحدثين أن يطوع بعض آيات القرآن لتتساوق مع الظواهر العلمية ، ولتتفق فى مفهومها أو منطوقها الظاهرى مع المخترعات الحديثة ومع النظريات العلمية المستحدثة .

ثم خطا بعضهم خطوات فأظهر عدة تواليف أجهد نفسه فيها واتجه بهاتيك الآيات القرآنية اتجاهاً علمياً محضاً . فحمل الألفاظ ما لا تطيق ، ووجه المعانى وجهة تتواءم مع الوجهات العلمية المتعارف عليها أو المسلم بها .

إن هذا العمل مغالاة ! ! وذلك الصنيع . وإن كنا نحمد لأصحابه نيتهم وهدفهم إلا أننا لسنا معهم ، ولكل وجهته . .

فكتب العقيدة لا يطلب منها أن تطابق مسائل العلم ، لا سيما وأن العلوم متطورة ، تتجدد مع الزمن على سنة التقدم ، فلا تزال العلوم الإنسانية بين ناقص يتم . وغامض يتضح ، وموزع يتجمع . وخطأ يترب من الصواب . وتخمين يترقى إلى اليقين ، وما من نظرية علمية إلا وهى عرضة للنقد أو للنقض . إن لم يكن اليوم فغداً ، إذ العلم متطور متجدد لا تقف نظرياته عند حد ، فماذا يكون موقف هؤلاء لو وجد فى المستقبل ما يهدم النظريات العلمية المسلم بها الآن ؟

والمرحوم الأستاذ العقاد أثبت فى كتابه « الفلسفة القرآنية » أن القرآن ليس

فى حاجة إلى مثل إتجاهات هؤلاء ؟ لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكماً من الأحكام يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم .

والقرآن الكريم يطابق العلم أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة ولا تتعرض للنقائض والأظانين كلما تبدلت القواعد العلمية أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يبطل التخمين .

وتحت عنوان « أى علم يقصده القرآن » يقول الأستاذ محمد شديد فى كتابه : « منهج القرآن فى التربية » ص ١٣٧ : « والعلم الذى يشيد به القرآن ويدعو إليه هو العلم بمفهومه الشامل الذى ينتظم كل ما يتصل بالحياة ، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الدينى كما يتبادر إلى بعض الأذهان ، أو ماذاع فى عهود التخلف عن القرآن فقد دعا إلى النظر فى ظواهر الوجود ومظاهر الحياة ، كما دعا إلى دراسة الكائن البشرى (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون).

ووجه إلى علم النبات والجماد والحيوان والأجناس : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) .

(من سورة فاطر : آية ٢٨)

وجعل من الكون كتاباً للمعرفة ووجه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صنع الله فيه ، ودعا إلى التفكير فى آياته ، واستكناه أسراره وفهم نظمه ونواميسه . ففتح بهذا العرض والتوجيه باب العلم وحرر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل . وأغرى بالبحث والدراسة والعلم ، فلقد خلق الله سبحانه كل شىء وسيره وفق قانون ، وهيأ الإنسان لمعرفة هذا القانون واستعماله بما فطره عليه من

إستعداد لفهمه وتسخيره .

ولعل فى قصة سليمان مع ملكة سبأ حين أراد أن يحضر عرشها من مكانه باليمن قبل حضورها إليه بمقر ملكه بفلسطين لفتة عجيبة موحية من لفتات القرآن التى تعتبر مفاتيح أسرار الكون . لتوجيه العقول إلى التفكير والدراسة والكشف : (قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرًّا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) .

وهذا العمل — نقل عرش ملكة من قطر إلى قطر فى أقل من لمح البصر — لا يعرضه القرآن على أنه عمل من أعمال السحر ولا قامت به قوة من قوى الجن ، ولا معجزة تمت على يد نبى ، ولكنه عمل قام به عالم على أساس علمى فيما يبدو من الآية الكريمة .

وهو توجيه إلى أن الإنسان بالعلم يستطيع أن يصل إلى تسخير كثير من قوى الكون متى توصل إلى معرفة قانونها ، وذلك هو الذى صنعه صاحب سليمان .

وقد استطاع العلم الحديث أن ينقل الصوت على موجات الأثير . ثم تمكن أخيراً من نقل الصور ويحاول العلماء الوصول إلى نقل الأجسام بنفس الأسلوب كما صنع عالم سليمان ، وليس من شأن القرآن أن يقدم النظريات والقوانين والوسائل ، ولكنه يبعث على التفكير ويدل على مفاتيح المعرفة وأسرار الكون ويغرى بالتفكير والدراسة والبحث » هـ .

بعد ذلك لنا أن نتساءل : كيف يكون القرآن كتاب علم صرف ، كما أطلق

عليه البعض ــ وهو يحكم بأن علمنا على الرغم من تطوره ومن نظرياته وتجاربه ومن فنونه ومجالاته ومن طرائقه ومناهجه ، على الرغم من ذلك كله فإنه حكم على كل ذلك بأنه وشل قليل (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فأنّى للقرآن أن يكون بعد حكمه على معلوماتنا العلمية بذلك الحكم السالف علمياً بحتاً ؟ وكيف نضفى عليه صفة « العلمانية الصرفة »؟ .

وتحت عنوان « تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية » يقول المرحوم الإمام محمود شلتوت فى تفسيره : « إن طائفة أخرى هى طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على على مقتضاها ، نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فتأولوها على نحو زيّن لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحاً جديداً: ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية . وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا فى القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذى من أجله أنزله ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب أو حديث عن الرعد والبرق تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء والكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف نشأ ، وكيف تسوقه الرياح .

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شىء قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة .

وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والكواكب والنجوم قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علم دقيق .

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين فى القرآن قوله تعالى : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) . بما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخانقة التى أنتجها العقل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى بعدها : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) .

روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود وقال له : تركت فى المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر قوله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام .

فقال ابن مسعود : من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم .

إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينها وبينه كهيئة الدخان من الجهد .

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأناً غيبياً من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحى ، ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ببعض الظواهر الحاضرة التى اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان ، يفسر : « الكتاب المبين » و « الإمام المبين » الذى تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة بالتسجيل الهوائى للأصوات . ويقول : أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات : ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية .

والله القادر خلق الكون على هذا السنن لغاية أسمى من ذلك . هى محاسبة الناس يوم القيامة وعرض أعمالهم عليهم كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم وما قدموا من عمل .

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » وقوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) .

ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم ! !

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ، ولكن على حساب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم . فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية .

ولسنا نستبعد — إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية « داروين » مثلا — أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين .

جوانب الخطأ فى هذا الاتجاه :

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف .

وهى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولا يستسيغه الذوق السليم .

وهى خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير ، فقد يصح اليوم

فى نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً فى الدفاع عنه .

فلندع للقرآن عظمته وجلاله ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل ، والبحث والنظر . ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم — ولن يصادم — حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول ، قيل : يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قول الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وإنك لتجد هذا فى سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ».

أليس فى هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع ».

* * *

وبعد هذه الآراء التى استعرضناها هنا فى إيجاز حول هذا الموضوع نقول :

من هذا نخلص إلى أن الهدف القرآنى لم يكن علمياً بحتاً ، ولا ثقافياً محضاً ، ولا اجتماعياً خالصاً ولا إقتصادياً فحسب ، إنما كان مزيجاً من ذلك كله يهدف إلى خدمة المجتمع وتنظيمه وإصلاح ما يتصل به من عقيدة وخلق ومنهج وسلوك ومبادئ وقواعد . .

فليس موضوع القرآن العقيدة وحدها حتى يبينها فى جزء مستقل أو فصل خاص . . وليس موضوع القرآن العلم وحده . ولا السلوك وحده . ولا الواجب وحده ، ولا الحق وحده ، إنما هو أمشاج من ذلك كله تربط المجتمع برباط وحدة العقيدة الإسلامية . فمن العنت إذن أن نبحث عن رباط واحد أو صلة واحدة بين آيات القرآن بعضها وبعض، أو أن نبحث عن وحدة واحدة تجمعها جميعاً. كما حاول ذلك البقاعى فى تفسيره الذى أسماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » المشهور بمناسبات البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٥ تفسير) فأجهد نفسه وأجهد الآيات القرآنية وتكلف مناسبات تربط الآية بما قبلها وبما بعدها فى آصرة واحدة .

والقرآن قد نزل منجماً على حسب الحوادث والأحداث يأتى بالحكم الحاسم الحازم فى كل أمر من الأمور أراد الله أن ينزله على عباده أو طلبوا هم من الرسول الفتوى فيه ، أو سألوا الحكم عنه .

ثم هذه الآيات التى نزلت حسب مقتضيات الحال ومطالب المجتمع إذ ذاك ، رتبت وجمعت فى سور حسب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن ألزمه الوحى بهذا الترتيب فكان النبي عليه السلام يأمر الكتّاب والمسلمين بأن تكون الآية فى الموضع الذى قرره لها المولى سبحانه وتعالى :

يقول الشيخ شلتوت (فى تفسيره ص ٦١٤) : « ونحن نؤمن بعد دراسة كتاب الله أنه فى تفصيل سوره وآياته وترتيب سوره وآياته لم يكن أثراً لاجتهاد مجتهد وإنما كان توقيفاً ووحياً أمر به النبي ونفذه قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى » .

وقد قسم القرآن إلى سور بلغ عددها أربع عشرة ومائة سورة . أولها الفاتحة وآخرها سورة الناس .

وتتألف كل سورة من آيات ، وقد بلغ مجموع ما فى القرآن من آيات (٦٣٤٢) آية منها خمسمائة آية فقط تتعلق بالأحكام والتشريع .

وأول ما نزل منه قوله سبحانه وتعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وآخر [١] ما نزل منه قوله تعالى يوم « حجة الوداع » : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم مجزءاً من ليلة السابع عشر — على أرجح الأقوال — من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده إلى التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاده عليه السلام .

أن الكثير من الآيات كانت حسب حالة تطلبتها ، فقد تظهر ظاهرة تقتضى حكماً ، أو تجد مشكلة تتطلب حلا ، وآنئذ يلجأ المسلمون إلى الرسول يسألونه الحكم العدل والقول الفصل ، وبوساطة الوحى الإلهى ينزل القرآن حكماً عدلا وقولاً فصلا فى هذه الظواهر والمشكلات وغيرها . كما قد ينزل أمراً أو نهياً أو وعداً أو وعيداً .

والرابطة التى تجمع ذلك كله إنما هى مقتضيات الأحوال — إن صح ذلك التعبير — وإن جاز لنا أن نبحث عن علاقات الآيات فإننا نتلمسها تحت ضوء مفهوم عام أو حقيقة كلية قررها الفرقان فى مفتتح سوره أو توج بها مطالع آيات انضوت تحت مبدأ عام فرعته تلك الآيات فيما بعد .

---

(١) هذا فى التشريع ، وأما الآخر على الإطلاق فهو قوله تعالى « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت » . [انظر فى هذا كتاب « الفرقان فى القرآن » لمحمود بن الشريف — عدد ١٦٥ من سلسلة المكتبة الثقافية] .

من دلائل الإعجاز القرآنى : المحكم والمتشابه :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكَّر إلا أولو الألباب » .

« وفى كتاب[1] الله الكريم آيات محكمات واضحة الدلالة بينة المفهوم والمقصد ، وبجانبها آيات أخرى تدق على الأفهام ، متشابهة تعجز العقول عن إدراك مراميها ومعانيها المرادة .

وهذا سر من أسرار الإعجاز القرآنى أن ترتقى بعض معانى الآيات على الأفهام على كر العصور ومر الأيام ، ويقف التقدم العلمى والعقلى إزاءها مبهوراً ، ومرضى القلوب يتصيدون تلك الآيات المتشابهة التى تشتبه فى مدلولاتها على التصور البشرى محاولين أن يثنوا فريقاً عن طريق الله ، وأن يبعدوهم عن الإيمان وأن يفتنوهم بما يلقون إليهم من تأويلات لهذه الآيات المتشابهة تزلزل دخيلتهم وتهز كيانهم الدينى وتشككهم فى معتقداتهم .

أما الراسخون فى العلم الذين علموا أن العقل البشرى محدود الإدراك ليس فى مكنته ، مهما ارتقى واستنار أن يصل إلى اللب والأعماق ولا أن يستكشف أو يستشف ، وليس فى مقدوره أن يصل وحده إلى الهدف والحقيقة المرادة .

وأنه أحياناً ما تهب عليه أعاصير فكرية تحيد به عن الجادة وتقوده إلى الضلال وتسوقه إلى الهاوية وأنه لابد له من مدد إلهى يعينه ويهديه سواء السبيل ويكشف له ما دق وخفى عليه . هؤلاء الراسخون يعلمون أن ربهم أعلم بمراده من هذه الآيات المتشابهة وأنه فوق كل ذى علم عليم . وأن علمهم محدود ، وأنه

(١) ص ٦٩ من كتاب الدعاء فى القرآن لمحمود بن الشريف (سلسلة اقرأ - دار المعارف) .

من العلم ألا يخوض الإنسان فيما لا يعلم لذا يقولون : آمنا بالمتشابه آمنا به إيماناً مطلقاً ، ولا نعلم معناه وكل من المتشابه والمحكم من عند ربنا .

فالحكمة من المتشابه هى التحدى . . تحدى الإدراكات والأفهام . .إن الذين يحكّمون عقولهم ، وعقولهم فحسب ،يأتى لهم القرآن بشيء أعلى وأسمى . . تتحيّر الأفهام وتقصر دونه . . إنه المتشابه ، استأثر الله بعلمه ، والراسخون فى العلم ، وهم أولى الناس بالتبرير والتخريج — يمتنعون . ويسلمون ، ويذعنون قائلين فى إيمان عميق وتصديق تام « كل من عند ربنا » .

على أن هناك حكمة أخرى للآيات المتشابهة تدل عليها تلك الآية السالفة ، إذ الآيات القرآنية المتشابهة لا يمارى فيها إلا ذوو الإيمان المريض والعقيدة المنحرفة ، وهى نور يحوم حوله هوام الإنسانية ، وضوء كاشف تظهر تحته نفسيات المارقين والمستغلين الذين يبتعدون عن الحكم الواضح و يتبعون المتشابه ويؤولونه حسب مخططهم العدائى ، ليفتنوا به الخلق عن الحق ويبعدوا به الناس عن دين رب الناس ».

* * *

القرآن المنصف :

وقد رد القرآن للأنبياء اعتبارهم ، فبرأ موسى من اتهامات بنى إسرائيل . . (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) . (الأحزاب)

وبرّأ مريم من اتهامات اليهود « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً » .

وبرأ عيسى .

ونفى عن عن إبراهيم اليهودية والنصرانية .

ووصف التوراة بأنها نور وأن الإنجيل نور ، وألقى الضوء على الموقف التخريبي الذى وقفه المحرفون من الكتب السماوية .

القرآن المحفوظ :

أما القرآن فهو الكتاب الإلهى الذى سلم من التغيير والتبديل والتحريف فقد حفظه الله وجعله محفوظاً فى االصدور

يقول صاحب كتاب إظهار الحق جـ ٢ ص ٧٢ « والقرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو الآن . وأنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم عدّة ختمات . وكل ذلك بأدنى تأمل يدل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير منثور ولا مبثوث » ثم يقول « إن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية . وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه والعناية به الغاية حتى عرفوا كل شيء فيه من إعرابه وقراءاته وحروفه وآياته . . » .

* * *

القرآن . . دعوة عالمية :

لهذا كله كان القرآن صمام الأمن من مبادئ الهدم ومذاهب الانحراف . . كان ركيزة من ركائز الوحدة والاتحاد . . ضم الصفوف ورأب الصدع ووحد اللهجات والقوانين وأزال السخائم من النفوس واستل الأحقاد وانتزع التارات ومحا الفوارق ووجه الخلق إلى تعاليم الخالق . وهدى الناس إلى عبادة رب الناس فتوحدت القبائل المتنافرة واجتمعت على كلمة واحدة تفيأ ظلالها الوطن العربى كله فعزّ وساد .

والقرآن دعوة عالمية يجب أن تعم المحيط الدولى وأن تصل إلى الناس كافة فى مختلف البقاع والأصقاع ولا سيما فى هاتيك الأنحاء التى لا تعرف عنه إلا ما تردده منه من كلمات أو بضع آيات ترديداً لسانياً فحسب من غير أن يطرق قلبها ، وبدون أن يترك فى تذوقها أثراً .

أن الهيئات الدينية وأجهزة الوعظ والجامعات الإسلامية كل أولئك مرجوون الآن لأن يسهموا بإمكانياتهم وطاقاتهم فى نشر كتاب الله فى تلك الجهات التى لمّا تسمع داعى الله بوساطة دعاة يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، يحملون إلى هؤلاء كتاب الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويدخلهم فى دين الله أفواجاً .

* * *

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم :

فى الصفحات التالية حديث الله عن رسول الله .

وحديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن .

والقرآن الكريم كله حديث لمحمد . . وعن محمد ، وعن صقله وتربيته ، وتوجيهه وإعداده ودعوته ورسالته وما نزل عليه وما دعا الناس إليه . .

من أجل ذلك كان الحديث عن الرسول فى القرآن إنما هو حديث عن القرآن كله وعن كل ما يحفل به وما تعرض له ، ثم هو بالتالى حديث عن الإسلام وعقيدته وشريعته ومفاهيمه .

فلا غرو أن كان الحديث حافلا فياضاً تقصر الطاقة عن جمعه والإحاطة به إذ هو متعدد متشعب يحتاج إلى طاقات مجتمعة . . طاقات عالمة عارفة متخصصة متعمقة ، لتجلو مناحي الحديث وزواياه ، وتكشف فى صدق وعمق وحق عن أقطاره ونواحيه .

لذا كان فوق الطاقة أن يتناول متناول حديث القرآن عن محمد بشمول وإفاضة وإحاطة .

فلا جرم أن كان قصارانا فى الصفحات المقبلة أن نثبت فيها ومضات مشرقة من هذا الحديث الإلهى ، ونسجل انطباعات وشرائح وقطاعات لا نقول إنها كل ما فى القرآن من حديث عن رسول الله . ولا نقول إنها جامعة مانعة ، بل هى ومضات نيرة من حديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن . ونفحات إلهية مشرقة من كلام الله إلى من صقله الله ورباه واجتباه واصطفاه وبعثه للعالمين رحمة مهداة .

* * *

(٣) « الرسالة الأخيرة » :

« وكذلك أوحيناه إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه ، نوراً ، نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » (٥٢ : الشورى).

(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) . (آية : ١٥١ من سورة البقرة) .

* * *

الإنسانية فى مهدها لما تتفتح عيونها . . والكون من حولها غر ساذج والعقل البشرى قاصر عن إدراك المفاهيم والقيم ، والطبائع لم تصقلها يد التوجيه والمعرفة . .

وأراد الله للإنسانية أن ترقى وتنهض . وللكون أن يزحف ويتطور ، وللعقل أن يعمل ويفكر ، وللطبائع أن تسمو وتصفو فأرسل رسله وهداته ودعاته يبنون

ويبينون ويقوون ويقومون ، لكل رسول مجال ، ولكل مرشد ميدان ولكل داعية ناحية يدعو لها ويعمل من أجلها تجمعهم جميعاً كلمة التوحيد والهداية .

وكانت رسالة موسى تهدف إلى هداية قومه وتحريرهم من عبادة الباطل ومن عبودية فرعون .

وكانت رسالة عيسى تخليص القوم من إسار المادة وعبادة الأوهام .

ومن قبلهما تناول كل رسول بجانب الاتجاه التوحيدى منحى خاصاً . . والرسل كثير (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كل أخذ دوره ووضع لبنة فى بناء الإنسانية .

ثم أراد الله لهذا البناء أن يتكامل ، وللإنسانية أن تبلغ رشدها وأعلى قمتها : فكانت الرسالة الأخيرة . . رسالة محمد ، للروح والجسد ، للعقل وللبدن ، للدين وللدنيا فتفتحت أعين الإنسانية على مثل وقوانين : مثل سماوية هادية ، وقوانين إلهية أيقظت الوجدان وصقلت الأرواح . وكملت للبشرية بهذه الرسالة الأخيرة راحة النفس وصفاء الروح ونقاء الضمير وسلامة الوجدان . .

شريعة عامة تامة كاملة شاملة ، لذا كانت خاتمة الشرائع وصاحبها خاتم الرسل والأنبياء (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

بالكتاب الذى دعا إليه « بالنور » بالقرآن وضحت المعالم . . معالم الطريق واستبانت شعبها وبدت مسالكها . . وعلى يديه صلوات الله وسلامه عليه تمت مكارم الأخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

لم يترك فى البناء نقصاً ولا ثغرة فرأب الصدع وجمع الجمع ووحد الكلمة على « كلمة التوحيد » .

ومن قبل كانت كل شريعة خاصة بأمة الرسول الذى بشر بها . . وتنسخ

وتزول بموته ، لأنها كانت مفصلة على قدٍّ هذه الأمة فحسب . . لا تتلاءم مع أمة سابقة ، ولا تتواءم مع أمة لاحقة . .

هكذا تشريع الله . . جعل لكم أمة شرعة ومنهاجاً . .

وهذا من حكمة الله أن جعل الواجب الملقى على قدر الحق المأخوذ . .

وهذا من رحمته وعدله ، فالأمم كالنفسيات ما يصلح لواحدة لا تصلح به الأخرى .

ولما اكتمل الإعداد النفسي للبشرية كانت خاتمة الرسالات ونهاية الشرائع شريعة الله المنزلة على عبده وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

« وحى منزل »

« إن هو إلا وحى يوحى » .

« إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم . وما يستطيعون » .

* * *

بين الخيام والرمال . . والصحراء والوهاد . . والمجتمع الصحراوى يدور فى فلك أقرب ما يكون إلى البداءة . وفى إطار محدود من معارف محدودة ، وانطلاقات فى حدود ما قدر له من إمكانيات . وما هيئ له من طاقات .

وهو بالتالى على النقيض من المجتمع الحديث الذى لفته المدنية بحضارتها وعلومها وتقدمها فى المجالات المختلفة .

وهو بعيد عن معرفة أمراض المدنية وأدرانها ومشكلات الحياة وزحمة الناس وسرعة الزمن .

فإذا ما شخَّص العربى — وهو وسط الرمال والفيافى والقفار . وهو لم يسمع

بأذنيه أزيز طائرة ولم تلمس يده أزرار الكهرباء ، ولم ترفه جسده مخترعات مبتكرة ، ولم ترفه عقله علوم المجتمع الحديث —

إذا ما شخص العربى ، وهو بهذه المثابة أدواء النفس البشرية الحديثة وغاص إلى الأعماق . . يعرض ويكشف مظاهر وظواهر ، وأمراضاً وعللا . . ومشكلات ، ومنازع ونوازع ، وحوادث وأحداثاً ، وتاريخاً وحضارات ، ويعرض صورة صادقة لإنسان آخر الزمان . . إنسان المدنية الحديثة . . إنسان النهضة والتقدم . . إنسان الآلة المعقدة . . إنسان كل جيل بشواغله ومشاغله بمدنيته وتطوره وما يحمل بين جنبيه من أمراض نفسية وآفات اجتماعية . . الإنسان المتطور الذى فك الأغلال العقلية والمادية وانطلق فى أجواء جديدة . غزا الأرض وعبّدها ومهدها ومد فيها فجاجاً وسبلا ، وغزا الفضاء وجال بين السحاب فلن يكون ذلك التشخيص من وحى الخيال ولا من وحى العقلية التى لم تقرأ كتاباً ولم تخط حرفا « إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ».

« من دلائل النبوة »

كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم هدفاً لسهام كثير من الشانئين فى القديم والحديث . .

وكانت نبوته ، وما جاء به من هدى ووحى مثاراً لكثير من حملات أعداء الله . . ومن حملات المنحرفين واللادينيين .

ولو رجعنا بادئ ذى بدء إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم لوجدنا أن هذه القوى المعادية لمحمد ولما جاء به محمد لم تقف مكتوفة اليدين سلبية عندما رأت دعوة محمد تسرى وتستشرى وتثرى كل يوم بمعتنقين وبمؤمنين . . رأوا وسمعوا . . رأوا سحر القرآن فى النفوس وأثره وخطاره وسمعوا آيات الله تتلى فتجرف

الشرك فلم يكن بدعا أن حاول كل من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب صد تيار الكتاب الإلهى ، ورصدوا طاقاتهم وإمكانياتهم ليحولوا فى بادئ الأمر بين الأسماع وبين سماعه وأن يعملوا على وأده فى مهده . والحيلولة دون هديه ، ولكن (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

وأسقط فى أيديهم فهم أهل بلاغة . والقرآن فى الذروة من البلاغة فلم يستطيعوا أن يطعنوا القرآن فى أسلوبه وفى تعبيراته وفى جمال لفظه وجرسه ، فسلموا بالواقع وكانوا لولبيين ، فأقروا فى الظاهر ببلاغة القرآن وقرروا أنه بلغ الذروة لأنه كهانة وسحر ولأنه خيال وخداع . . لا أنه منزل من السماء ، بل هو شعر يسحر ويبهر . وأنه من كلام بشر لا من كلام رب البشر (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) .

ثم تكتلت القوى مرة أخرى فوضعت مخططاً دعائياً قوامه : التشهير والتجريح وإطلاق الشائعات والأكاذيب ونشر الدعاوى المسمومة والمزاعم حول القرآن وحول من نزل عليه القرآن .

وبعض العقليات تطامن من هامتها . وتحنى رأسها وتتقبل ما يلقى إليها فى سرعة وفى صدق . . وفى عمق وتجمد على ذلك .

والبعض يتناول الشائعة فيضفى عليها من خياله ما يزيدها حبكة وقوة ، ويزيد على حوادثها وأحداثها من عندياته . وينفخ فيها من أخيلته وتصوراته ما يضفى عليها ألواناً صارخة وصوراً تجذب إلى شباكها وأحابيلها الكثير .

وعرفت قريش أن سلاح الاتهامات الباطلة سريع الأثر فى النفسيات وبخاصة تلك النفسيات التى تلغى تفكيرها وتعطل عقولها وتردد ما يلقى إليها ، وأن حرب الشائعات ستكفيها من أن تستل السيف لتشهره فى وجه تلك الدعوة ،

فجندت إمكانياتها واستغلت وسائل الإعلام التى كانت بين يديها إذ ذاك لوأد دعوة محمد فى مهدها ، والقضاء على مركز الإشعاع الروحى فى مجالها .

وتصدى القرآن لكشف هذه الحملة وتفنيد مزاعمها وترهاتها وأبان ركائزها وأسسها التى قامت على إعداد أجهزة لتحريف الآيات المنزلة بتغييرها أو تبديلها وأشرف على تلك الأجهزة لفيف من اليهود الذين لهم قدرة وبراعة فى هذه الناحية .

كذلك لنثبت به فؤادك :

« ومما اعترضوا به على القرآن أنه نزل منجماً واقترحوا أن ينزل دفعة واحدة ، ولكن القرآن رد على هذا الاقتراح بأن نزوله على تلك الطريقة فيه تثبيت لفؤاد الرسول ليكون دائم الاتصال بربه ، أو ليس فى نزوله كذلك تثبيت لأفئدة المؤمنين أيضاً ، إذ ينقلهم القرآن بتعاليمه مرحلة مرحلة إلى الدين الجديد ، ويروى القرآن هذا الاعتراض ويرد عليه فى قوله سبحانه (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) »[1] .

ولقد تعبوا فى صد تيار القرآن الجارف ووقف أثره فى النفوس فما استطاعوا ، ثم هداهم خيالهم الضيق إلى طريقة يحولون بها بين القرآن وسامعيه تلك هى الصخب عند سماع القرآن واللغو فيه ، ولما كان فى ذلك استقبال لا يليق بالقرآن قابله الله بتهديد عنيف وإيعاد شديد ، إذ يقول (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) .

---

(١) ص ٢٨٧ من كتاب بلاغة القرآن للدكتور بدوى .

ثم أدخلوا فى روع العامة أن الرسول لا يكون بشراً ، بل ملكاً ، ينزل من السماء فى يمينه المعجزة وفى يساره الكتاب . واستنكروا قائلين : ألم يجد رسولا يرسله الله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ؟ ! .

وقال القرآن على لسانهم (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) .

وقال القرآن للرسول (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد).

ويرد القرآن مزاعم المتقولين فى هذا المجال بأن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنسهم وبشراً مثلهم حتى يسهل الأخذ عنه والتلقى منه . ولو سكنت ملائكة الأرض ما أرسل الله إليهم إلا ملكا رسولا . يقول القرآن (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا) .

ثم يقول القرآن فى أول سورة يونس (ألر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) .

وبعد هذا تسجل آيات هذه السورة موقفاً آخر بين هؤلاء الذين أرادوا إستدراج الرسول (عليه السلام) ليبدل آية مكان آية فإذا ما أذعن أذاعوا على الملأ صنيعه ، وبين محمد الذى أفحمهم وقدم لهم الدليل الملموس على صدقه وأمانته :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) .

واتهموه بأنه شاعر يتيه فى أودية الخيال ويهيم فى مجالى الفن والعبقرية والجن ،والجنون فنون كما يقولون ، يقول القرآن ويقولون (إنه لمجنون) ويقولون (أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) .

ويقص القرآن على لسانهم كل مفترياتهم هذه ثم يرد عليهم « وما صاحبكم بمجنون » « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ».

وأطلقوا الشائعات تقول إن القرآن من صنع محمد ومن تقولاته ! !

ويتحدث القرآن بحديث حاسم عما يمكن أن يجازى به محمداً لو افترى أو تقوّل . . « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

ويمضى القرآن فى تبيان خطوط مخطط الأعداء وخطوط مؤامراتهم وما بيتوه « وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما » .

وهكذا ما يبيته أعداء الله يبينه وحى الله لأهل الله . .

ولم يفت فى عضد المؤتمرين حينما رأوا أن مؤامراتهم ومناوراتهم الإعلامية لم تحظ بما كانوا يؤملونه فيها من نجاح واكتساح . . ففكروا وقدروا . . ودعاهم التفكير إلى مزيد من وسائل إعلامية أخرى . . وسائل تمتاز بالجدة والابتكار وتتميز بالفعالية وسرعة التأثير فاتهموا القرآن بأنه أساطير وزعموا أن عندهم قصصاً وأساطير تفوق القرآن إن لم تماثله ولجأوا إلى النضر بن الحارث الذى كان يحفظ كثيراً من القصص المختلفة من جراء كثرة تطوافه وترحاله . . وجعلوه يتابع محمداً محاولا اجتذاب الناس من مجلس محمد داعياً الناس إلى أن يستمعوا أحاديثه عن « رستم » وأقاصيصه عن « اسفنديار » وفى جرأة وتطاول كان يقول : عندى

من الأقاصيص مثل ما عند محمد، وسأنزل مثل ما أنزل الله على محمد .

والقرآن يكشف موقف هؤلاء وينذرهم فيقول :

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » .

* * *

وبالنظرة الموضوعية والنظر الواقعى والمنطق الحر البعيد عن التعصب والميل .. بهذه الوسائل كلها لو اتخذها العرب طرائق لبحث شخصية محمد وما عرف عنه قبل بعثه من سجايا وصفات ، وعن رسالته ، وأنه أرسل منهم ، وفيهم ، ومعه كتاب بلغتهم ولسانهم ، وحكموا عقولهم فى آيات هذا الكتاب ، ولا سيما تلك الآيات التى تحمل معنى العتب الإلهى ، فهى دلالة ناطقة بصدق محمد ، وشاهدة على نبوته . فلو كان القرآن من عند غير الله أو من عند محمد ـ كما يقول المفترون والجهلاء ـ لما ارتضى محمد أن يثبت العتاب على نفسه أو أن يوجه إليه ، إذ العتاب شديد الوطأة على النفس ذات الحساسية والشعور المرهف ، ولما قرأنا فى القرآن قوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . » إلى آخر هذه الآيات التى سجلت عتب الإله على رسوله الكريم عندما أقبل على الرسول جمع من عظماء قريش وزعمائها يناقشونه فى الإسلام . فتشاغل الرسول بهم طمعاً فى إسلامهم ، وما لبث أن قطع حديثهم صياح صحابى كفيف البصر اسمه « عبد الله ابن أم مكتوم » لم يرتشاغل الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه واهتمامه بمن عنده فظل ينادى ويقول : يا محمد ، جئت إليك لتعلمنى مما علمك الله .

فكره الرسول منه هذه المقاطعة وظهرت دلائل ذلك على وجهه الكريم ، فنزلت آيات العتاب السابقة الدالة على صدق القرآن وصدق من نزل عليه القرآن .

كذلك الآيات القرآنية التى تقول « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » . . فهى تدل على مثل مادلت عليه آيات العتاب من صدق القرآن وصدق محمد . كذلك الآيات القرآنية التى تنفى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، التقول وتبين عقاب المتقولين : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين . ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » (آية ٤٧ : سورة الحاقة) .

جزاء التقوّل عقاب ، وعقاب جاء مفصلا . وعلى هيئة تبعث الرهبة . .

عتاب وعقاب ذُكرا فى القرآن فلم يكن هناك مجال للارتياب أو للاتهام ، فلو كان محمد هو الذى افتراه ، أو صنعه . أو تقوله . لأبعد عنه كل ما يمسه أو يؤلم نفسه أو حسه من عتب أو تهديد .

وليس ذلك التأمل المطلوب بمقصور على منكرى الوحى والرسالة والنبوة فى عهد النبوة فحسب . . بل لو تأمل جاحدو اليوم من زعماء العقوق الإيمانى واستمعوا إلى قول الله فى شأن قرآنه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً) . .

وبوقفة متمهلة ، ونظرة متأملة ، وفكرة متأنية ، وعقلية واعية لوجدوا أن الزمن نفسه قدّ قدم لهم وللعالم أجمع آية محسوسة ملموسة على صدق الوحى ومن نزل عليه الوحى ، فقد انسلخ من عمر الزمن منذ وفاة الرسول إلى اليوم سنوات تربو على ألف وثلاثمائة ونيف وسبعين تحمل على عاتقها الكثير من العبر والغير والحوادث والأحداث مرت ولم يثبت خلالها رسالة رسول أو نبوة نبى مع أن الفترة الزمنية بين

كل رسول وآخر كانت سنوات ضئيلة قليلة ، فأثبتت الأيام بأرقامها وحسابها صدق القرآن الذى يقول :

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

وأيدت المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، حينما قال (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى :

نصرت بالرعب . وجعلت لى الأرض مسجداً ، وتربتها طهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، وجعلنى الله خاتم المرسلين).

ودلالة الأرقام هذه ما أحرى أن يتأملها معاصرو اليوم من هؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس أو بالمشاهد الملموس .

على أن القرآن نفسه دليل على نبوة محمد ، وعن هذا يقول الإمام محمدعبده ص ٢١٧ جـ ١ من تفسير المنار : (إن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله . وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات فى عهده . ثم على من صدّق المخبرين من بعده ، وقد علم الله أن سلسلة النقل ستنقطع وأن ثقة بعض المتأخرين به ، ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ، ستضعف ، وأن دلالتها على الرسالة ستنكر ، فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لاتنقطع وهى هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الإعجاز السبعة (إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه وببلاغته . وبما فيه من علم الغيب . وبسلامته من الاختلاف . وبعلومه وتشريعاته . وبعجز الزمان عن إبطال شيء منه . وبتحقيق مسائل كشف عنها البحث العلمى الحديث) .

وبينا أن كل واحد منها آية بينة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلا مطلقاً من أسر النظريات المادية وقيود التقاليد ، إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب

العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيع (الجامع بين الطول . والحسن) من المعانى فى هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المبانى من رجل أمى ولا متعلم أيضاً إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل . ناهيك به وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدى حجة مستقلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم » ١٠ هـ .

* * *

من الخصائص المحمدية :

وكما اختص محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين كذلك اختص بأنه ما من نبي قبله إلا وهو مؤمن به شاهد له مقر برسالته .

فقد أخذ الله على النبيين ميثاقاً ليؤمن بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم البعض ، ويقروا برسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .

فشهدوا به وأمروا معاصريهم بأن يؤمنوا ويشهدوا به كذلك .

كذلك اختص صلى الله عليه وسلم بأن رسالته عامة .

وقد قررت آيات من القرآن الكريم عموم الرسالة المحمدية يقول الله :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ : ٢٠٨) .

« يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » (الأعراف : ١٥٨) .

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (الفرقان : ١) .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) .

ولكل هذه الخصائص المحمدية رفعه الله مكاناً علياً فقال (ورفعنا لك ذكرك) وذكر اسمه فى الشهاده والتشهد مقروناً مع اسم الله . وكرمه الله ففضله على سائر الرسل والأنبياء (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) .

يقول المفسرون عند تفسير هذه الآية : منهم من كلم الله كموسى . ورفع بعضهم أى محمد درجات على غيره بعموم الدعوة وختم النبوة وتفضيل أمته على سائر الأمم والخصائص العديدة والمعجزات المتكاثرة .

كما يقول بعض المفسرين أن المراد بالكوثر فى قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) أى الكثير العديد من المناقب والخصائص والمعجزات :

لذا قال البوصيرى :

كيف يرقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وللمفسرين فى معنى : « الكوثر » آراء عديدة مختلفة أروعها فى رأيى هو ذلك الرأى الذى جمع بين بعض هذه الآراء :

أخرج البخارى وابن جرير والحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الكوثر : الخير الذى أعطاه الله تعالى إياه . قال أبو بشر قلت لسعيد : فإن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة . قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل إياه عليه الصلاة والسلام .

المستشرقون ومحمد

قال المستشرق الفرنسى الفونس أتين دينيه :

« من العسير أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول وصحابته » .

والفونس أتيين دينيه كاتب من كتاب فرنسا المحدثين ، وهو أيضاً من كبار رجال الفن والتصوير ، له لوحات فنية قيّمة تزدان بها أركان متحف لكسمبوج (وهو متحف كبار الفنانين فى فرنسا) ومن أشهر هذه اللوحات لوحة عن « رمضان » وله مؤلفات عديده منها كتاب « حياة العرب » و « الشرق كما يراه الغرب » و « الصحراء » وكلها إشادة بالشرق وتقدير للشرقيين .

ومن أهم كتبه « تاريخ حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه بالصور الملونة الرائعة التى تمثل مناظر إسلامية ومشاهد دينية ومعالم تتصل بتاريخ السيرة النبوية العطرة ، وقدمه هدية لأرواح الجنود الإسلاميين الذين استشهدوا فى حروبهم مع الفرنسيين .

وقد اعتمد الفونس دينيه فى هذا الكتاب الذى أخرجه عن سيدنا محمد على أمهات الكتب الإسلامية التى تناولت سيرة الرسول بالتأريخ والتحليل كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، كما اعتمد عن المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحه المشهورة . ولم يقم وزناً لآراء المستشرقين ولا لاتجاهاتهم فى هذا المجال المحمدى .

وهو لم يتجه هذا الاتجاه إلا بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أن ما كتب لا يعتد به من ناحية الدقة العلمية والحقيقة التاريخية ،

وصرّح — كما جاء فى مقدمة كتابه السابق — بأنه من المتعذر أو من المستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم ونزعاتهم المختلفة ، وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد وصحابته مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية ، وذلك على الرغم مما يزعمه المستشرقون من إتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى الجاد . وقال إننا نلمس من خلال كتاباتهم أن محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً ، ومحمداً يتحدث بلهجة إيطالية إذا كان المستشرق إيطالياً ، وهكذا تتغيير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب عن سيرة محمد . وإذا بحثنا فى هذه الصورة عن الصورة الصحيحة الدقيقة فإننا لا نجدها ، إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية هى أبعد ما تكون عن الحقيقة .

وبعد هذا الحكم الذى أصدره المستشرق الفرنسى دينيه على المستشرقين أخذ يضرب الأمثلة على تخبطهم العلمى وتناقضهم فى النتائج التى توصلوا إليها ، كما عرض الكثير من اتهاماتهم لمحمد صلى عليه وسلم . عرضها ثم عرّض بها وعارضها وأورد من كتب التاريخ الإسلامى ومن أحاديث سول الله صلى الله عليه وسلم ما دافع به عن الإسلام ورسول الإسلام .

واتخذ من «لامانس» (أحد المستشرقين الأوربيين ، أقام فى بيروت وأخرج عشرات الكتب عن الإسلام) اتخذ منه مثالا واضحاً على صحة ما ذهب إليه وما حكم به . وقال : لقد اخترت لامانس هذا المستشرق بالذات لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أن ما ساقه من أدلة وبراهين فى كتبه التى أخرجها عن محمد أغلبها من قبيل التمويه على القارئ والكذب على الحق والتاريخ . ومن الأكاذيب التى ساقها لامانس ، ورد عليها الفونس :

• أكد لامانس أن محمداً كان يكره الوحدة ، وأثبت الفونس أن الرسول

كان يتعبد فى غار حراء بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره منصرفاً كل الانصراف عن هذا العالم المادى مستغرقاً فى التفكير فى الله .

* حكم « لامانس » على محمد بأنه كان « نؤوماً » وردّ الفونس بما قاله القرآن فى هذا الصدد عن محمد « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » واستعرض ما نقلته الأخبار من أن محمداً كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه من طول وقوفه فى الصلاة .

* اتهم لامانس محمداً بأنه كان « أكولا » ويورد « الفونس » من الأخبار المحمدية والأحاديث النبوية ما ثبت أن محمداً كان زاهداً عن ملذات الحياة ، صائماً من كل أسبوع أياماً ، وربما صام منه أياماً متتابعة فى الوقت الذى كان ينهى فيه أصحابه عن متابعة الصيام مثله .

ثم حكم الفونس على لامانس بجنوحه وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن محمد وأصحاب محمد لم يسلم واحد منهم من طعناته وغمزات قلمه أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام كأبى جهل وأبى لهب وعن المنافقين وأعداء الدين فإنه يشيد بهم ويمدحهم ويلبسهم من الفضائل أثواباً لامعة خلابة .

وفى النهاية هدم الفونس دينيه النظرية الشرقية التى تكاد تقدس المستشرقين وهون من شأن الهالة التى أحاطت بأعمالهم وحكم بأن الافتتان بالمستشرقين وهم لا أساس له .

والحق : أن الحكم الذى أصدره الفونس دينيه على المستشرقين هو حكم عام ، ونحن فى الحقيقة لا نعدم أفراداً من المستشرقين أرخوا السيرة المحمدية وحكموا على صاحبها عليه السلام فى عدالة وإنصاف ، ولماذا نذهب بعيداً والفونس دينيه واحد من هؤلاء المؤرخين العدول المنصفين .

* * *

وقال الكاتب الفرنسي المعاصر هنرى دى كاسترو فى مقدمة كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » الذى نشره فى فرنسا سنة ١٨٩٦م قال :

« وآليت على نفسى أن ألتزم الدقة والعمق ولو أنى اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الأمور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابى ملموماً ورمانى المستشرقون بالخفة والطيش . لذلك قصدت أن يكون بحثى أولا فى تحقيق شخصية محمد وتقرير حقيقته الأدبية على أجد فى هذا البحث دليلا جديداً على صدق محمد وعلى أمانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخى الديانات » .

ثم قال : (إن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب . بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً . وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه) .

وقد راح الكاتب يعلل على صدق هذه القضية وينفى ما زعمه المستشرق « اسكندر ديون » من أن محمداً كان يعرف الدين المسيحى قراءة وكتابة .

والحق أن محمداً صلى الله عليه وسلم وإن كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ألا أن الله سبحانه قد علمه وأدبه ورباه ثم اصطفاه وخصه بهذه الشريعة الخالدة ، فلا عجب بعد أن كانت أول كلمة يوحيها الله لنبيه الأمى : « اقرأ » وكان أول الوحى ومشرق النور على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الآية الشريفة (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وعن محمد والقرآن يتابع الكاتب حديثه فيقول :

« والعقل يحتار كيف يتأتى أن تصدر الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى

قد أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته ، والقرآن الذى نزل على محمد لا يزال إلى يومنا هذا سرًّا من الأسرار التى تعذر فك طلاسمها » .

والواقع أن القرآن الكريم الذى نزل على رسولنا النبى الأمى سيظل شاهداً على صدق محمد بأسلوبه الربانى وموسيقاه الإلهية ووقعه فى الوجدان ومفاهيمه ومضامينه سيظل معجزة محمد الأمى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) .

وفى القرآن آيات سيظل معناها فوق المستوى البشرى لن يصل إلى تفسيرها عقل ولن يهتدى إلى تفصيلها بشر . ولن يقطع فيها برأى . وستظل هكذا دليلاً على قداسة القرآن وعلى إعجازه كهذه الآيات التى تتصدر بعض سور القرآن مكونة من حرف واحد كقوله تعالى : « ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » أو من حرفين كقوله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » أو من ثلاثة أحرف أو من أربعة أو من خمسة .

ولعلها[1] حكمة آلهية فى أن يصدر القرآن حديثه عن القرآن فى أول سورة من سوره الطوال (سورة البقرة) بهذا الرمز (ألم) رمز إلهى أعيا العقول تفسيره

وقد ذهب كثير من المستقصين مذاهب شتى فى تفسير هذا الرمز والكشف عن مدلوله ومرماه ، وكنهه ومعناه ، وكل قد اتجه حسب تفكيره واتجاهاته ومبلغ علمه .

ولكن فى النهاية بقى الأمر كما هو ، فلم يسع السواد الأعظم منهم إلا أن يقولوا « الله أعلم بمراده » .

فى النهاية الله أعلم بمراده .

حقًّا .. فأنى للعقل البشرى القاصر أن يكشف عن المعنى الإلهى المراد ؟!

---

(١) انظر كتاب الفرقان فى القرآن ص ٩ لمحمود بن الشريف (المكتبة الثقافية) .

وأنىَّ للطين بعتمته وظلامه ووحله وأدرانه أن يتطاول أو يزعم أنه وصل إلى النور والإشراق والسناء والضياء والسمو . فيقطع عن ثقة ويقين بالمعنى المقصود لهذا الرمز القرآنى ، بله القرآن كله .

ومع ذلك سنعرض هنا أشهر آراء المفسرين من القدامى والمحدثين ومحاولاتهم واتجاهاتهم فى تفسير ذلك الرمز الإلهى . . اتجاهات نعرضها مرددين مع كل اتجاه « الله أعلم بمراده » فيعصمنا ذلك الترداد من الجنوح والشطط والميل والانحراف ويضفى علينا فى الوقت نفسه أمناً نفسياً وهدوءاً قلبياً ، فلا جرم أن صار العجز عن التفسير أبلغ من كل تفسير .

فالعلامة الزمخشرى ساق فى تفسيره « الكشاف » عدة معان لهذه الرموز الإلهية .

فقال إنها أسماء السور التى ابتدأت بها ، أو إيقاظ وتقريع ليتعظ العرب ويعلموا ، وهم أهل الفصاحة والبيان — أن هذا القرآن المتلو عليهم — وقد عجزوا عن الإتيان بمثله — كلام منظوم من الأحرف التى ينظمون منها كلامهم . فيقروا بالعجز ويؤمنوا .

وفى ثنايا حديث الزمخشرى عن هذه المعانى تناول تلك الرموز القرآنية تناولا آخر تناولا إحصائياً من حيث العدد والنوع الصوتى ، والحروف فقال : (واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله — عز سلطانه — فى الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامى حروف المعجم (الهجاء) أى أربعة عشر . وهى : الألف واللام ، والميم . والصاد . والراء ، والكاف . والهاء والياء . والعين . والطاء ، والسين ، والحاء والقاف ، والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف الهجاء) .

ثم تحدث عنها من ناحية الصوت الموسيقى وفن تجويد القرآن وقراءاته فقال : « ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف . بيان ذلك :

أن فيها من « المهموسة » نصفها : الصاد — الكاف — الهاء — السين — الحاء .

ومن « المجهورة نصفها : الألف — اللام — الميم — الراء — العين — الطاء — القاف — الياء — النون .

ومن « الشديدة » نصفها : الألف — الكاف — الطاء — القاف .

ومن « الرخوة » نصفها : اللام — الميم — الراء — الصاد — الهاء — العين — السين الحاء — الياء — النون .

ومن « المطبقة » نصفها : الصاد — الطاء .

ثم أحصاها من حيث عدد الحروف التى يتكون منها كل رمز من هذه الرموز قال :

وردت : ص ، ق ، ن ، على حرف . و : طه ، طس . حم ، على حرفين ، وألم ، ألر ، طسم على ثلاثة أحرف. والمص ، ألمر على أربعة أحرف وكهيعص على خمسة أحرف .

كذلك تحدث تفسير « الجمل » على « الجلالين » حديثاً إحصائياً عن هذه الرموز فى (ص ١٠ ج ١) فقال : إن مجموع الأحرف المنزلة فى أوائل السور أربعة عشر حرفاً ، وهى نصف حروف الهجاء ، وقد تفرعت فى تسع وعشرين سورة ، المبدوءة بالألف واللام منها ثلاثة عشر وبالحاء والميم سبعة ، وبالطاء أربعة ، وبالكاف واحدة ، وبالياء واحدة ، وبالصاد واحدة ، وبالقاف واحدة . وبالنون واحدة ، وبعض هذه الحروف المبدوء بها أحادى وبعضها ثنائى وبعضها ثلاثى وبعضها رباعى وبعضها خماسى ولا تزيد .

وبعد ذلك تعرض لمعانيها فقال : قيل : إنها أسماء القرآن ، وقيل لله تعالى ، وقيل كل حرف منها مفتاح إسم من أسماء الله تعالى ، فالألف إسم من « الله » واللام إسم من « لطيف » والميم إسم من « مجيد » وقيل كل حرف

منها يشير إلى نعمة من نعم الله ، وقيل إلى ملك ، وقيل إلى نبي ، وقيل : الألف تشير إلى لطف الله والميم تشير إلى ملك الله .

أما السيوطى فقال : إن هذه الحروف سر من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله ، ثم تحدث عن بعض آراء السلف الصالح فنقل عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : ألم معناها (أنا الله أعلم) والمص معناها (أنا الله أفصل) والر معناها (أنا الله أرى) .

وروى عن ابن عباس أيضاً فى (كهعيص) قال : الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ، كما أورد اتجاه البعض من أن هذه الحروف هى صوت الوحى عند أول نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة فى التنبيه كألا وأما لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم ، والقرآن لا يشبه كلام الناس ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ فى قرع الأسماع ، كما ذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لا ستماعهم ، وسماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترق قلوبهم وتؤمن .

وكان لابد للمجتهدين والمفسرين المعاصرين من أن يدلوا بدلوهم فى هذا المجال وسنختار رأيين أولهما لكاتب باحث والثانى لإمام مفسر .

فقد اتجه البحاثة الدكتور زكى مبارك (فى كتابه النثر الفنى ج ١ ص ٤١) إلى القول بأن من المميزات التى انفرد القرآن بها الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل : ألم — حم — طسم — إلى آخر تلك الفواتح التى اختلف فى تأويلها المفسرون والتى لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

ثم قال الدكتور زكى مبارك : كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديقى وأستاذى مسيو بلانشو، فعرض على تأويلا جديداً جديراً بالدرس والتحقيق، وفى رأيه أن الحروف : ألم . . ألر . . إلخ هى كالحروف : (IOA) التى توجد فى بعض المواطن من (Chansson de geste) فهى ليست إلا إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون ، وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار بها إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة وكان ذلك كافياً لتوجيه المغنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

وفى الكنائس المسيحية بأوربا حيث لا تزال تحتفظ تقاليد الغناء الجريجورى وفى أثيوبيا مثلا، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر بـ (ألم) فى القرآن أو (A I O) فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى مسيو بلانشو أن ألم تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . . لام . . ميم) فهى ليست رمزاً كتابياً ، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفاً عند أهل الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل أو تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ثم يمضى صاحب النثر الفنى قائلا : « ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحقه من العناية ، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض ، ولو أنه كان معروفاً فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال . ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقى فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد، وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين ».

أما رأى الإمام الأكبر المرحوم الشيخ شلتوت الذى سجله فى تفسيره لسورة البقرة[1] بعد أن عرض فى إيجاز آراء العلماء فى الأحرف المقطعة فى فواتح السور فقال : « افتتحت هذه السور بالحروف على هذا النحو ، ولم يكن هذا الأسلوب معروفاً عند العرب من قبل ، ولم يكن لهذه الحروف معان فى اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها كحروف هجائية يلتئم منها الكلام ، ولم يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان المراد منها ، وقد كان الناس — لذلك — أمامها فريقين : فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه ، فلا يصل أحد إلى معرفة المراد منها ، ويروى فى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه « فى كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور » وعن على رضى الله عنه : « أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وقد سئل الشعبى عن هذه الحروف فقال : « سر الله فلا تطلبوه » وهكذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين .

والفريق الآخر ينكر أن يكون فى كتاب الله ما ليس مفهوماً للخلق ، ويرى أن هذا المبدأ يتنافى مع الأوصاف التى وصف الله بها القرآن من أنه (بلسان عربى مبين) وأنه (تبياناً لكل شىء) وأنه (هدى للناس) ونحو ذلك من الأوصاف ويقولون : لو أن فيه ما لا يفهم لما صح وصف من هذه الأوصاف . إلى أدلة أخرى هذا الوادى ، وقد نسب هذه القول إلى المتكلمين وأثر عنهم فى بيان المراد بهذه الأحرف أقوال كثيرة منها : أنها أسماء للسور التى بدئت بها — ومنها أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، فالألف مثلا إشارة إلى أنه تعالى (أحد — أول — آخر — أبدى — أزلى) واللام مثلا — إشارة إلى أنه « لطيف » والميم إلى أنه (ملك — مجيد — منان) والعين إلى أنه (عزيز

---

(١) ص ٦٣ من تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت .

ـ عدل) ، وروى عن ابن عباس أنه قال فى « ألم » : أنا الله أعلم ، وفى « المر » أنا الله أرى . . إلى غير ذلك مما يروون .

ومنها ، وهو أشهرها ومختار المحققين منهم كما يقولون : أنها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التى عرفوها ، وألفوا كلامهم منها وهم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها ، فلم يكن القرآن بمادته التى يتألف منها غريباً عليهم ، وقد تحداهم الرسول بمثل هذا القرآن أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا ، فلو كان من عند غير الله ومادته معروفة لهم ـ لاستطاعوا أن ينفوا عن أنفسهم العجز والخزى ، ولما جوبهوا بالعجز الدائم المستمر فى مستقبل لا يعلم مداه إلا الله » .

ثم يستطرد المغفور له الإمام شلتوت متسائلا : « هل فى كتاب الله مالا يفهم ؟ » .

ويجيب فيقول : وردت هذه الأقوال وغيرها من المتكلمين الذين يرون أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على ما لا يفهم الناس ، ونحن نرى بادئ ذى بدء أن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه قول لا يكاد قلب يطمئن إليه ، إذ لا مستند له يعتمد عليه ولا قانون يرجع إليه ، فلكل ناظر أن يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا ويجعل الحروف رمزاً له .

ونرى أيضاً أن القول بأنها : أسماء السور يرده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف كسورة البقرة ، وسورة آل عمران وسورة الأعراف وسورة مريم وما إليها ، فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ألسنة المؤمنين جيلا بعد جيل .

ونرى أن القول الذى نسبوه إلى المحققين من أصحاب هذا الرأى ـ وهو

التنبيه على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذى ألفوه وقد عجزوا مع ذلك عنه — قول يعتمد على قضيتين (تصيدهما القائلون به من الواقع التاريخى لموقف العرب من القرآن . . ومن طبيعة هذه الحروف) : أحداهما أن هذه من حروف التهجى المعروفة عند العرب التى يتركب منها كلامهم وأن القرآن مؤلف منها ، والأخرى أنهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله . وما كان للعرب أن يجهلوا أو يغفلوا عن أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الحروف ، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه بأنفسهم ، ويعرفه التاريخ عنهم ، وقد سجله القرآن عليهم بالعبارة الواضحة البينة ، فليس الأمر فى القضيتين بمحتاج إلى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذى لا يستند إلى نقل صحيح ولا فهم واضح .

هذا وقد نوقش المتكلمون فيما استدلوا به على المبدأ الذى بنوا عليه أقوالهم فى معانى أوائل السور ، وهو أنه لا يمكن أن يكون فى القرآن ما لا يفهم ، فقيل لهم : أن وصف القرآن بما وصف به من أنه هدى وتبيان ونحو ذلك لا يبطله أن تجئ فى أوائل بعض سوره مثل هذه الحروف التى لم يتعلق بها تكليف أو إرشاد وأنه ما دام واضحاً فى جملته وفيما قصد به فلا بأس أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه ، تنبيهاً على القدرة التامة فى جانب الربوبية والقصور فى جانب العبودية وتلك سنة الله فى خلقه ، وتكاليفه ، فكم له فى الكون من أسرار تنقضى الدنيا ولا تدرك ، وكم له فى التكاليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل ، وما هذه المكتشفات التى تتجدد للبشر يوماً بعد يوم وتنكشف للعلماء جيلا بعد جيل . . إلا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواه (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) . . (ولو أن ما فى

الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) :

إن فى قوله تعالى وهو بصدد الحديث عن الإسراء بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (لنريه من آياتنا الكبرى) وقوله وهو بصدد الحديث عن الإيحاء إليه (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) تنبيها لقلوب المؤمنين إلى أن فى مكنون هذا الكون وفى باطنه من خلق الله ما لا تدركه العقول ولا تصل إليه الأفهام (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا إلى أن فى الخلق أسراراً لا تدرك للعباد ، فإن فى الصلاة من جهة عدد ركعاتها وأوقاتها وكثير من وسائلها وكيفياتها ، وفى الزكاة والكفارات وسائر المقادير المشروعة المطلوبة للمحات أخرى واضحة جلية فى أن لله أيضاً فى تكاليفه ما يعجز البشر عن إدراك أسراره ، وما عليهم إلا أن يؤمنوا ويتمثلوا فتصدق فيهم العبودية ويخلص منهم الإيمان ، وما كان القرآن إلا شأناً من شئون الله جرت فيه سنته من الخلق والتكاليف فلم يخل من حروف استأثر بها علم الله ، وثبت بها قصور البشر دون أن يمس ذلك مقاصد القرآن أو أن تنقص من وضوح القرآن وبيان القرآن .

وعلى هذا فنحن نؤمن بأن فى القرآن سرا لا يدركه البشر هو معانى هذه الحروف التى جاءت فى فواتح السور » .

محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن

بشريات بمحمد فى الكتب المقدسة :

لقد حكم القرآن الكريم بأن الإنجيل والتوراة قد بشر كل منهما بمحمد النبي الأمى . . وذلك فى قوله تعالى « إذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[١] » .

وفى قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل[٢] » .

ولعل فيما ساقته هذه الآية الكريمة من صفات لمحمد من أنه رسول ، ونبي ، وأمى إشارة إلى أن هذه الصفات مدونة ومكتوبة يجدها كل من يبحث فى استقصاء ، فى كل من التوراة والإنجيل قبل أن ينالهما التحريف والتعديل .

وعن هذه البشارات تحدثت كتب كثيرة منها كتاب « الجواب الصحيح لابن تيمية »[٣] و « الفصل فى الملل والأهوا والنحل » لابن حزم[٤] وتفسير « المنار »[٥] وكتاب « قصص الأنبياء » للشيخ النجار[٦] ، وكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى[٧] وكتاب « محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء » لمحمد عبد الغفار

---

(١) آية ٦ من سورة الصف .

(٢) من آية ١٥٧ سورة الأعراف .

(٣) الجزء الثانى ص ٢١٩ فصل التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(٤) جـ - ١ ص ٨٥٦ طبعه محمد صبيح .

(٥) جـ - ١ ص ٢٩٥ .

(٦) ص ٢٩٣ .

(٧) ص ١٩٣ ، ١٩٤ القسم الأول طبعة مطبعة الإنجلو .

الهاشمى ،وكتاب العقائد الإسلامية لسيد سابق وكتاب « محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل » : تأليف بشرى زخارى ميخائيل وأوفاها وأولاها فى هذا المجال كتاب « إظهار الحق » للشيخ رحمة الله الهندى ، حيث أورد ثمانى عشرة بشارة فسرها وفصلها فى استقصاء وتتبع :

محمد فى كتاب النبى زرادشت :

« وتمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر من بادية العرب» وهذه البشرى منصوصة باللغة الفارسية فى كتاب زرادشت ، ونقلها محمد عبد الغفار الهاشمى والذى علق عليها بقوله : لا ريب أن هذه البشرى من زرادشت النبى الإيرانى تدل على رجل يظهر فى بادية العرب وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المعروف بصاحب الجمل الأحمر (الناقة القصوى) » .

محمد فى التوراة :

(١) تقول النصوص الآتية من الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء :

« فقال لى الرب : نعم جميع ما قالوا وقد أحسنوا فيما تكلموا ١٨ .

وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ » .

وقد ساق الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » أوجهاً عشرة مؤيداً بها هذه البشارة وإنها بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأنبياء .

---

(١) ص ٩ من كتاب محمد فى بشارات الأنبياء الهاشمى .

من هذه الأوجه : أنه استدل بكلمة « مثلك » فقال[١] : إن يوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، أما أولا : فلأنهما من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآيه العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهى هكذا : (ولم يقم بعد ذلك فى بنى إسرائيل مثل موسى يعرفه الرب وجهاً لوجه) فإن قام أحد مثل موسى بعده من بنى إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ، وأما ثانياً فلأنه : لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ، لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهى ويوشع ليس كذلك ، بل هو متبع لشريعته .

وكذلك لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأن عيسى فى زعم النصارى إله وموسى عبد له ، وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى فإنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم .

ومن هذه الأوجه أيضاً أنه استدل بكلمة « من بين إخوتهم » فى النص السابق وقال : لو كان المقصود كون النبى المبشر به من الأسباط الإثنى عشر الذين كانوا موجودين فى هذا الوقت مع موسى عليه السلام لقال : « منهم » ولم يقل « من بين إخوتهم » ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى إسرائيل فلم تصدق هذه البشارة عليهما .

وكذلك استدل رحمه الله بكلمة « أجعل كلامى فى فمه » وقال إن فيها إشارة إلى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب وإلى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار : إن قوله « واجعل كلامى فى فمه » يدل على أن ذلك النبى يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يدّع أحد من أبناء

(١) ص ١٣١ . ج ٢ .

إسماعيل ذلك سوى « محمد صلى الله عليه وسلم » ولم يقم نبي أمي سواه منذ أن خلق الله الدنيا إلى اليوم .

كما استدل أيضاً ، رحمة الله الهندى . رحمه الله ، بأن علماء اليهود سلموا فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مبشَّر به فى التوراة ، فبعضهم بقى على كفره وبعضهم أسلم ، من هؤلاء الذين أسلموا « مخيرق » « وكان حبراً عالماً كثير المال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وغلبت عليه ألفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد» وكان يوم السبت فقال : يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فإن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت ! ! .

ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأحد وكان يوم السبت ، وعهد إلى من وراءه من قومه أن قتلت هذا اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل . فكان رسول الله صلى عليه وسلم يقول : مخيرق خير اليهود .

وقبض رسول الله صلى عليه وسلم أمواله فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس ! فقال : أخرجوا إلى أعلمكم . فقالوا : عبد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فناشده بدينه . وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله؟ قال : نعم ، وأن القوم يعرفون ما أعرف وأن صفتك ونعتك لمبين من التوراة ، ولكن حسدوك ! ! قال : فما يمنعك أنت؟ قال : أكره . خلاف قومى ، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم .

وعن صفية بنت حيي – رضى الله عنها – قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل « قباء » غدا عليه أبى « حيي بن أخطب » وعمى « أبو ياسر ابن أخطب مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا ، فهششت إليهما ، فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم ، فسمعت عمى أبى ياسر يقول لأبى : أهوهو؟ (أى المبشر به فى التوراة) قال : نعم والله ، قال : أتثبته وتعرفه ! قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه . قال : عداوته » .

(٢) البشارة الثانية فى التوراة :

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر « الاستثناء » :

« هم أغارونى بغير إله وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة ، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب ، وبشعب جاهل أغضبهم » .

ويقول صاحب كتاب « إظهار الحق » : « والمراد بشعب جاهل : العرب . لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود ، لكونهم من أولاد هاجر الجارية .

فمقصود الآية : أن بنى إسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة ، فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون ، فأوفى بما وعد . . فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى فى سورة الجمعة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

(٣) البشارة الثالثة فى التوراة :

فى الباب ٣٣ من سفر الاستثناء فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ ــ هكذا :

وقال : « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعيرا . واستعلن من جبل فاران ، ومن ألوف الأطهار وفى يمينه شعلة من نار » .

« فمجيئه من سيناء : إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير : إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلانه من جبل فاران : إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة » .

قال الإمام الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل ج ١ ص ١٩٤ : « وقد ورد فى التوراة : أن الله تعالى : جاء من طورسيناء . وظهر بـ « ساعير » وعلن بـ « فاران » ، وساعير : جبال بيت المقدس . التى كانت مظهر عيسى عليه السلام . و « فاران » جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية فى : الوحى والتنزيل . والمناجاة والتأويل ، على مراتب ثلاث : مبدأ ووسط . وكمال . والمجئ أشبه بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط ، والإعلان أشبه بالكمال . عبرت التوراة : عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمجئ من طورسيناء . وعن طلوع الشمس : بالظهور على « ساعير » وعن بلوغ درجة الكمال : بالاستواء والإعلان على « فاران » . وفى هذه الكلمات : إثبات نبوة المسيح عليه السلام والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم » .

وقال ابن حزم فى كتابه « الفصل » ج ١ ص ٩٠ : « وسيناء هو موضع

مبعث موسى عليه السلام بلا شك ، و « ساعير » هو موضع مبعث عيسى عليه السلام . و « فاران » بلا شك هى مكة موضع مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، بيان ذلك أن إبراهيم عليه السلام أسكن إسماعيل « فاران » ولا خلاف بين أحد فى أنه إنما أسكنه « مكة » . فهذا نص على مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا تكون فاران كلمة عبرية أى : مكة حيث ولد فيها محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه الله إلى الأمم قاطبة من بين جبال فاران الثلاثة ، وهى : أبو قبيس . وقيقعان . وجبل حراء وهى جبال بنى هاشم »[1] .

(٤) البشارة الرابعة فى التوراة :

فى الآية ٢٠ من الباب ١٧ من سفر التكوين . .

« وعد الله . فى حق إسماعيل لإبراهيم ، عليهما السلام ، هكذا : (وعلى إسماعيل ، أستجيب لك ، هو ذا أباركه ، وأكبره ، وأكثره جدا . فسيلد اثنى عشر رئيساً . وأجعله لشعب كبير) .

يقول الشيخ رحمة الله الهندى : وقوله « أجعله لشعب كبير : يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم . لأنه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره . وقد قال الله تعالى ناقلا دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه فى كلامه المجيد أيضاً : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وقال الإمام القرطبى فى الفصل الأول من القسم الثانى من كتابه : « وقد

(١) ص ٢٢ من كتاب محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء لمحمد عبد القادر الهاشمى .

تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم ، فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة فى موضعين : إسم محمد صلى الله عليه وسلم بالعدد ، على ما يستعمله اليهود فيما بينهم ، **الأول** : قوله « جدا » جدا بتلك اللغة = بماد ماد وعدد هذه الحروف إثنان وتسعون . لأن الباء إثنان ، والميم أربعون ، والألف واحد ، والدال أربعة ، والميم الثانية أربعون ، والألف واحد ، والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون ، والحاء ثمانية ، والميم أربعون ، والدال أربعة .

والثانى : قوله لشعب كبير بتلك اللغة : « لغوى غدول » فاللام عندهم ثلاثون ، والغين ثلاثة لأنه عندهم فى مقام الجيم إذ ليس فى لغتهم جيم ولا صاد ،والواو ستة . والياء عشرة ، والغين أيضاً ثلاثة ، والدال أربعة . والواو ستة ، واللام ثلاثون . فمجموع هذه أيضاً إثنان وتسعون » .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء ص ٢٩٣ : « نبوة محمد موجودة فى التوراة رغم ما اعتراها من التحريف ، فى الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر تكوين « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره كثيراً جدا » ولفظ العبارة الأخيرة فى العبرية : وليشماعيل هنى برختى أوتو . وهفريتى أوتو . وهربيتى أوتو بماد ماد » بإمالة فى « بماد ماد » إلى واو .

ومن عادة العبرانيين الاعتماد فى الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب ، فلو حسبنا لفظ « بماد ماد » بالجمل لكانت جمل « محمد » بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ وهو من أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار فى أبنائه .

وقد ترجم المرحوم الدكتور حامد عبد القادر ذلك النص العبرى السالف إلى النص العربى الآتى :

وليشماعيل (ولاسماعيل) هنى (ها أنذا) بيرختى (باركت) أوتو (إياه) وهفريت (وأثمرت) أوتو (إياه) وهربيت (ونميت) أوتو (إياه) بماد (كثيراً) ماد (جدا) .

محمد فى الزبور :

الزبور الخامس والأربعون يقول :

« فاض قلبى كلمة صالحة ، أنا أقول أعمالى للملك [1] لسانى قلم سريع الكتابة [2] بهى فى الحسن أفضل من بنى البشر [3] أنسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر [4] تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك [5] أستله . وأنجح . وأملك ، من أجل الحق والدعة والصدق ، وتهديك بالعجب يمينك [6] نبلك مسنونة أيها القوى فى قلب أعداء الملك ، الشعوب تحتك يسقطون [7] كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين . عصا الاستقامة عصا ملكك ، [8] أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك [9] المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التى أبهجتك [10] بنات الملوك فى كرامتك أقامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى [11] اسمعى يابنت وانظرى وانصتى بأذنيك ، وانسى شعبك وبنت أبيك [12] فيشتهى الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك وله تسجدين [13] بنات صور يأتينك بالهدايا . لوجهك يصلى كل أغنياء الشعب [14] كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى [15] يبلغن إلى الملك عذارى ، فى أثرها قريباتها اليك يقدمن إليك [16] يبلغن

بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك (١٧) ويكون بنوك عوضاً من أبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (١٨) سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل ، من أجل ذلك تعترف الشعوب إلى دهر الداهرين ».

يقول الشيخ رحمه الله الهندى– فى كتابه « إظهار الحق » ص ١٤١ « إن داود عليه السلام يبشر فى هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفاً بالصفات المذكورة فى هذا الزبور. ويدعى علماء بروتستانت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ، ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقول : إنه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :

(١) كونه حسناً (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركاً إلى الدهر (٥) كونه متقلداً بالسيف (٦) كونه قوياً (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كونه هداية يمينه بالعجب (٩) كون نبله مسنونة (١٠) سقوط الشعب تحته (١١) كونه محباً للبر مبغضاً للإثم (١٢) خدمة بنات الملوك إياه (١٣) إتيان الهدايا إليه (١٤) انقياد كل أغنياء الشعب له (١٥) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل أبائهم (١٦) كون إسمه مذكوراً جيلا بعد جيل (١٧) مدح الشعب إياه إلى دهر الداهرين .

وهذه الأوصاف كلها توجد فى محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه :

أما الأول : فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلّم كأن الشمس تجرى فى وجهه وإذا ضحك يتلألأ فى الجدار) .

وعن أم معبد رضى الله عنها قالت فى بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب .

وأما الثانى : فلأن الله تعالى قال فى كلامه المحكم : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض « الآية » وقال أهل التفسير أراد بقوله ورفع بعضهم درجات محمد صلى الله عليه وسلم ، أى : رفعه على ساء الأنبياء من وجوه متعددة . وقد أشبع الكلام فى تفسير هذه الآية الإمام الهمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أى لا أقول ذلك فخراً لنفسى ، بل تحدثا بنعمة ربى .

وأما الثالث : فغير محتاج إلى البيان ، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة فى وصف كلامه أنه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الأكمل .

وأما الرابع : فلأن الله تعالىٰ قال : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » وألوف من الناس يصلون عليه فى الصلوات الخمس .

وأما الخامس : فظاهر ، وقد قال هو بنفسه : « أنا رسول الله بالسيف » .

وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال ، كما ثبت أن « ركانة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى بعض شعاب مكة قبل أن يسلم ، فقال : يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ، فقال : لو أعلم والله ما تقول حقاً لاتبعتك ، قال : أرأيت إن صرعتك أتعلم إن ما أقول حق ؟ قال : نعم فلما بطش به محمد صلى عليه وسلم : أضجعه لا يملك من أمره شيئاً ، ثم قال : يا محمد ، عد ، فصرعه أيضاً ، فقال : يا محمد إن ذا لعجب ! ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله

وتبعت أمرى ، قال : ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة . . فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ارجعى مكانك . فرجع ركانة إلى قومه ، وقال : يا بنى عبد مناف ما رأيت أسحر منه ! ! ثم أخبرهم بما رأى .

وركانة هذا كان من الأقوياء والمصارعين المشهورين .

وأما شجاعته صلى الله عليه وسلم فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما (ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال على كرم الله وجهه . .(. .وكنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) .

وأما السابع : فلأن الأمانه رالصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحارث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانه . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم قلتم إنه ساحر ! ! لا ، والله ما هو بساحر) . وسأل هرقل عن حال النبى صلى الله عليه وسلم أبا سفيان ، فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وأما الثامن : فلأنه رمى يوم بدر ، وكذا يوم حنين ، وجوه الكفار بقبضة تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه ، فانهزموا ، وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسراً ، فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه .

وأما التاسع : فلأن كون أولاد إسماعيل أصحاب النبل فى سالف الزمان

غير محتاج إلى بيان ، وكان هذا الأمر مرغوباً له ، وكان يقول (ستفتح عليكم الروم ، ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ويقول : (ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً) ويقول عليه السلام : (من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا) .

وأما العاشرة : فلأن الناس دخلوا أفواجاً فى دين الله فى مدة حياته .

وأما الحادى عشر : فمشهور يعترف به المعاندون .

وأما الثانى عشر : فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين فى الطبقة الأولى ، ومنها « شهريانو » بنت يزدجر كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضى الله عنه .

وأما ١٣ ، ١٤ : فلأن النجاشى ملك الحبشة ، ومنذر بن ساوى ملك البحرين ، وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوار ، وغلاماً أسود ، وبغلة شهباء ، وحماراً أشهب ، وفرساً ، وثياباً ، وغيرها .

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضى الله عنه إلى الخلافة وألوف فى أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وفازوا بالسلطنة والإمارة العلية .

وأما ١٦ ، ١٧ : فلأنه ينادى ألوف الألوف جيلا بعد جيل فى الأوقات الخمسة بصوت رفيع فى أقاليم مختلفة (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ويصلى عليه فى الأوقات المذكورة الغير المحصورين من المصلين ، والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معانى فرقانه ، والوعاظ يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب ويمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته .

• • •

محمد فى الأنجيل

أنجيل برنابا :

جاء فى أنجيل برنابا فصل ٣٩ — من رقم ١٤ إلى ٢٨[1] جاء فيه :

« فلما انتصب آدم على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت لا إله إلا الله محمد رسول الله ففتح آدم فاه قال : أشكرك أيها الرب إلهى ، لأنك تفضلت فخلقتنى ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات محمد رسول الله ؟ فأجاب الله : « مرحباً بك يا عبدى آدم وإنى أقول لك أنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء الذى منها جاء . . ».

وفى فصل ٤٢ من رقم ١٤ — ٢٠ :

سأل اليهود عيسى عليه السلام : من أنت ؟ قال : الحق أقول أنا لست « مسيا » ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلا لأن أحل رباط جرموقه وسيور حذائه ، رسول الله الذى تسمونه « مسيا » الذى خلق قبلى وسيأتى من بعدى وسيأتى بكلام الحق لا يكون لدينه نهاية » .

وفى فصل ٤٤ من رقم ١٩ — ٢١ :

قال عيسى : لذلك أقول لكم رسول الله بهاء يسير كل ما صنع تقريبا لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والرجاء والمحبة ،

---

(١) يرجع إلى ص ٨١ من كتاب محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء .

ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم صدقونى إنى رأيته وقدمت له الإحترام كما رآه كل نبي ، ولما رأيته أمتلأت عزاء قائلا : يا محمد ليكن الله معك ويجعلنى أهلا لأن أحل سير حذائك لأنى إذا نلت هذا صرت نبياً عظيما قدوساً لله » .

وفى فصل ٩٧ من أنجيل برنابا من رقم ١٤ – ١٨ :

« أجاب المسيح أن اسمه « مسيا » عجيب لأنه الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى قال أصبر (يا محمد) لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيرا من الخلق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكن مباركاً ومن يلعنك يكن ملعونا ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسول الخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهينان ولكن إيمانك لا يهين ابداً ، اسمه « محمد » .

حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : « يا الله أرسل لنا رسولك (محمد) تعال سريعاً للخلاص » .

« إن مسيا أو المسيح المنتظر . ليس هو يسوع ، بل محمد . وقد ذكر أنجيل برنابا محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول ، وقال إنه رسول الله ، وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولقد قال المسيح كما جاء فى أنجيل برنابا « إن الآيات يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه « مسيا » الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » .

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين (من ذلك الأنجيل)

كلاماً وافياً فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به، فصرح بما يعلن حقيقته ويبين ما له من شأن»[1].

* * *

ويقول رحمة الله الهندى فى كتابه اظهار الحق ص ١٦٤ ج ٢ :

« وأما البشارات التى توجد فى كتب أخرى هى ليست معتبرة عندهم فى زماننا ولكن أنقل عنها بشارة واحدة أيضاً على سبيل الانموذج فأقول : القسيس « سيل » نقل فى مقدمة ترجمته للقرآن المجيد من أنجيل برنابا بشارة محمدية هكذا :

« إعلم يابرنابا أن الذنب وإن كان صغيرا يجزى الله عليه لأن الله غير راض عن الذنب ولما أحبتنى أمى وتلاميذى لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر ، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم فى هذا العالم على هذه العقيدة الغير لائقة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ، ولا يكون لهم أذية هناك ، وإنى وإن كنت بريئاً لكن بعض الناس لما قالوا فى حقى : إنه الله وإبن الله كره الله هذا القول واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة على ولا يستهزئون بى فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا ويظن كل شخص أنى صلبت. لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجىء محمد رسول الله فإذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس » .

ثم يقول رحمة الله بعد ذلك : ومن أسلم من علماء اليهود والنصارى فى القرن الأول شهد بوجود البشارات المحمدية فى كتب العهدين مثل عبد الله بن سلام وابنى « سعية » وبنيامين ومخيرق وكعب الأحبار وغيرهم من علماء اليهود ومثل بحيرى ونسطور الحبشى وضغاطر « وهو الأسقف الرومى » الذى أسلم على يد دحية

(١) ص ٦٠ من كتاب محاضرات فى النصرانية لأبى زهرة .

الكلبي وقت الرسالة فقتلوه والجارود[1] والنجاشي والسوس والرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وغيرهم كما اعترف بصحة نبوته هرقل قيصر الروم ومقوقس صاحب مصر وابن صوريا وحيي بن أخطب وابو ياسر بن أخطب وغيرهم ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا » .

* * *

وفى بعض الأناجيل الحالية عبارات وإشارات عدها البعض بشارات بمحمد ونحن نقف من هذه العبارات والإشارات موقف الحيدة ، لا نهدم ولا نهضم لا نهدم اتجاهاتها ولا نهضم تبريراتها .

إن هذه الأناجيل فى رأينا ورأى الكثيرين غير سليمة وفاقد الشئ لا يعطيه على أنها فى الوقت نفسة قد يوجد بها أثارة من صحة ، أو إشارة إلى حكمة ، أو قولة حق ، أو تعبير صائب فنحن لا نجردها من كون بعض الحقائق بها . كما أننا لا نقدسها ولا نعترف بجل ما جاء فيها .

لذلك لا نملك إلا أن نقف من هذه البشارات الأنجيلية موقف العارض لا المعارض إلى أن يظهر الأنجيل الحقيقى الذى أنزله الله على عيسى والذى فيه البشارة بنبوة محمد مصدقاً للآية الشريفه على لسان عيسى « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وآنئذ نستقى الإشارات والبشارات من هذا المعين الإلهى .

فى إنجيل متى :

فى الإصحاح الحادى والعشرين من أنجيل متى يقول : « قال لهم يسوع :

---

(١) والجارود هو الجارود بن العلاء كان من علماء النصارى جاء فى قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق والذى بعثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك فى الإنجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لك والشكر لمن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله) .

أما قرأتم قط فى الكتب؟ الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه» .

فاتجه البعض[1] إلى أن الحجر الذى رفضه البناؤن كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمة التى تعمل أثماره كناية عن أمته صلى الله عليه وسلم مستدلين بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة . ختم بى البنيان وختم بى الرسل » وفى رواية أخرى فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم البناء ؟ قال صلى الله عليه وسلم : فأنا اللبنة جئت فختمت الأنبياء .

وفى أنجيل يوحنا :

جاء فى الإصحاح الرابع عشر من هذا الأنجيل « إن كنتم تحبوننى فأحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد بروح الحق »

قالوا إن معنى المعزى ، البار قليط والبار قليط نبي تزاد فى شريعته أحكام بالنسبة إلى الشريعة العيسوية ، وذلك النبي هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يشابه ما جاء فى القرآن من أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

---

(١) يرجع فى هذا إلى ما كتبه إبراهيم خليل أحمد فى كتابه « محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والأنجيل ص ٤١ ، وكتاب رحمه الله الهندى « إظهار الحق » ص ١٥٣ جـ ٢ وكتاب محمد رسول الله الهاشمى .

وفى انجيل يوحنا الأصحاح الرابع عشر – ٢٦ « أما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شىء » .

والقرآن يقول (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء) « النحل :٨٩ »

وفى الإصحاح السادس عشر آية ١٢ من هذا الأنجيل « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لا أقول لكم ولكن تستطيعون أن تحتملوا الآن ولكن متى جاء ذاك « روح الحق » فهو يرشدهم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتى ، وهذا يتفق مع قول الله سبحانه : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ومع قوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . (سورة الإسراء : آية ١٨)

* * *

ويرجع فى هذه البشارات أيضاً إلى مخطوطة :

« قبس الأنوار فى الرد على النصارى والكفار » لمؤلفها عبد الله الطرابلسى (وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٢ مجاميع) .

والى مخطوطة « تحفة اللبيب فى الرد على أهل الصليب » وقد جاء فيها فى ص٤٢ « إن الأربعة الذين كتبوا الأناجيل قد اتفقوا على أن عيسى عليه السلام قال للحواريين حين رفع إلى السماء أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم وأبشركم بنبى يأتى من بعدى اسمه « البار قليط » وهذا الإسم هو باللسان اليونانى . وتفسيره بالعربية محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله فى كتابه العزيز « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وهو فى الأنجيل باللغة اللاطينية بارقليط شانطة ، وهذا الإسم الشريف هو سبب إسلامى . وقال يوحنا فى الفصل الخامس عشر من إنجيله إن عيسى قال : البار قليط الذى يرسله أبى فى آخر الزمان هو الذى

يعلمكم كل شيء ، فالبار قليط هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى علَّم كل شيء ، بما أوحى الله إليه من القرآن العظيم الذى فيه علوم الأولين والآخرين كما قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .ولم يظهر بعد المسيح نبى مرسل بهذه الصفات غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو المراد بهذه البشارة .

الخاتمة

لما كان موضوع الرسالة الأديان فى القرآن صدرت البحث بمدخل عن الدين وعن ارتباط البشرية به ، وتأصل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ ، وعن دور الرسل فى إيقاظ العاطفة الدينية وتوجيهها نحو الخير والبر والحق والسلام ونحو الله . وقصور العقل — وحده — فى أن يصل بالإنسان إلى كل هاتيك المناحى وتلك الأهداف .

ثم بسطت القول — بعض الشئ — فى مهمة الرسل وعقبت على ما أشيع من أن الشرق وحده مهبط الأديان ، وأبنت أن إطلاق هذا الحكم على علاته فيه تناف صريح مع ذلك النص القرآنى الذى يقول « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وحكمت فى النهاية بأن كل أمة من الأمم فى كل أرجاء المعمورة أرسل الله سبحانه لها نذيرا وهاديا وموجهاً وداعيا إلى الله بإذنه .

ثم كشفت عن موقف هؤلاء العقائديين ، ولاسيما الذين كتبوا أسفار العهد القديم ومن نحا نحوهم من الذين أرخوا للأوادم قبل آدم . وللإنسان الأول ، وللرسل الذين أرسلو إليه ولأسماء من جاء بعدهم من رسل وأنبياء ومهابطهم وأعمالهم وأعمارهم . وأظهرت ابتعادهم عن الصواب فى هذا الاتجاه ومغالاتهم فى ذلك الصنيع وبعدهم عن الحق وعن الدقة وعولت — فى هذا — على ما سجله القرآن ثم ركزت القول حول المعنى الوضعى المحدد لكلمة « دين » وأوردت فى إيجاز آراء علمائنا الباحثين المحدثين الذين اتجهوا اتجاهات مختلفة حول تعريف « الدين » .

ولما تحدثت فى هذا المدخل عن فطرية التوحيد ناقشت رأى العقاد الذى

انساق وراء الغربيين من أن التوحيد هو نهاية التطور العقيدى وأثبتت ما ارتأيته فى هذا المجال من أن كلمة تطور دخيلة فى هذا المجال العقيدى وأن الذى يوصف بالتطور إنما هم البشر بالنسبة للعقيدة لا العقيدة .

ثم أثبتت بالأدلة القرآنية أن الإسلام نزل مجزءاً على الأنبياء والرسل ، ثم كاملا على خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن محمدا لم يأت بدين جديد مستقل إنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة ، وليهدى الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذى أرسل الله به سائر الرسل والذى أتمه الله على يد محمد بما جعله ديناً أزلياً للناس كافة إلى يوم الدين .

وقد جعلت أول دين أرضى أول باب من أبواب الرسالة وجعلت الدين الذى ارتضاه الله لعباده إلى يوم الدين آخر باب فيها .

وفى الباب الأول تحدثت عن الشرك باعتباره دينا كما يؤخذ من ظاهر قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) .

وبهذا الاعتبار تناولت هذه العقيدة الأرضية التى عرضها القرآن فى عديد من سوره وحاربها وأبان زيفها ووهنها .

وقد عرضت فى تفصيل موقف القرآن منها وحديثه عنها وألوان الشرك ، وأثبتت أن دعوة التوحيد كانت أول صوت عقيدى يدوى فى دنيا البشر وأن الوثنية طارئة .

ثم تحدثت عن الوثنية العالمية ومتى نشأت ، وكيف انتشرت ، كما عرضت فى تفصيل تاريخ الوثنية العربية وترجمة زارع الأصنام بأرض العرب « عمرو بن لحى » ثم تحدثت عن بيوت العبادة وعن الأصنام وأجسامها وأسماء بعضها حسب الترتيب الأبجدى ، ولما كانت الوثنية عقيدة للسواد الأعظم من العرب

فى الجاهلية اقتضى البحث أن أستعرض موقف القلة القليلة التى ندت عن هذا الاعتقاد وشذت عن هذا المتجه وهى طائفة الحنفاء ورجحت القول الذى يقول إن الحنفاء العرب هم الذين مالوا عن دين الشرك إلى ملة إبراهيم فحسب، وليسوا هم من مالوا عن الشرك إلى إلى دين آخر . وأثبتت أن هذه الحركة التحريرية من عبادة غير الله لم تكن مقصورة على أولئك الموحدين العرب وحدهم قبل البعثة المحمدية بل سبقتها دعوات توحيدية أخرى فى مصر على يد أخناتون ، وفى بلاد فارس على يد زرادشت .

وافردت الباب الثانى للحديث عن زرداشت والمجوسية . وعن تقييم شخصية هذا الداعية الفارسى وعن دعوته وأصولها ومسراها وأهدافها . وهل هو نبى أو رسول أو داعية إلهى أو مصلح اجتماعى .

وفندت آراء الباحثين من القدامى والمحدثين فى كل هذه المجالات ثم خلصت فى النهاية إلى تبيان رأيى الذى يقول :

إن الأسلم الأحوط أن لا نقرر نبوة زرادشت مهما كانت الدلائل والمرجحات فليس من المعقول أن يخفى نبأ هذا النبى عن محمد ونعلمه نحن دون محمد وما دام القرآن ومن نزل عليه القرآن لم يصرحا باسمه فنحن نميل إلى نبوته ولا نقطع فى ذلك برأى حاسم .

وعقدت الباب الثالث للحديث عن اليهودية واليهود ومسراهم عبر التاريخ وعن الأسباط وعن حديث القرآن عن التوراة وعن مظاهر التحريف ودلائله فى أسفار التوراة الحالية وخلصت من ذلك إلى أن أسفار العهد القديم بوضعها الراهن وبوصفها الحالى لا يحتاج أى قارئ عادى إلا أن يدرك فى سهولة ويسر أن موسى عليه السلام لم يكتبها وإلا فلا يعقل أن يقول موسى على نفسه فى سفر التثنية الأصحاح ٣٤ الفقرة ٥ وفيها (فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم).

وعن الصابئة وموقف البحث العلمي منها أوردت أقوال الثقاة في هذه العقيدة وجنحت إلى ما جنح إليه الباحثون المحدثون من أن الصابئة والحنفاء طبقة واحدة تخلت عن دين الشرك والوثنية ولم تسترح إلى اليهودية والنصرانية ومالت إلى ملة إبراهيم .

أما الباب الرابع فقد خصصته للحديث عن المسيحية وبدأته بالحديث عن المسيح في القرآن وأظهرت الصورة الصادقة التي رسمها القرآن للمسيح عيسى بن مريم — ولولادته ولمعجزاته ولرفعه وللشبهة التي أثيرت حوله .

ومن القرآن حددت ابتدأ نبوة المسيح من أنها كانت في المهد وهو صبي صغير ، وأن ولادته عليه السلام كانت عقيب حمل مريم به مباشرة من غير فاصل زمني .

كما كشفت عن المراد من التعبيرات القرآنية عن عيسى بأنه كلمة الله وروح منه .

ثم فصلت القول عن « الإنجيل » كما يصوره القرآن ، وابنت مضامين الإنجيل الإلهي كما حددها القرآن .

وقررت بالأدلة العديدة أن الإنجيل الآلهي الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا وجود له الآن وأن ما يعبر عنه بالإنجيل الحالي إنما هو قصص ألفها تلاميذ المسيح وغيرهم لم تسلم كما قال القرآن من المسخ والتحريف . وأن هذه القصص لا وحي فيها ولا إلهام وفيها تضارب وأصلها العبري الذي كتبت به مفقود والترجمة ليست سديدة .

وعن إنجيل برنابا أوردت ما تحدث به المتحدثون عنه وما تميز به من الاعتراف بنبوة المسيح ومحمد .

وحكمت، بعد أن كشفت عن الحلقة المفقودة فى هذه الأبحاث الخاصة بهذا الإنجيل وهى أن المصادر التى تحدثت عن هذا الإنجيل لم تحدثنا عن الأصل المنقول منه وما دام الأصل لا وجود له ، فنحن فى مندوحة من عدم الاعتراف به وذهبت مع الذاهبين من أن الإسلام غنى عن كل شهادة مشكوك فى نسبتها.

ثم عقدت مبحثاً عن آراء المسيحيين حول الإنجيل فأوردت ما جاء فى دائرتى المعارف الفرنسية والإنجليزية حول إنجيل يوحنا . وما قاله الفلاسفة أمثال : رنان وتولستوى وما قرره الفونس أيتين دينيه من أن الأناجيل الحاليه غير صحيحة .

ثم ألقيت مزيداً من الأضواء حول: القرآن وعقيدة التثليث فى المسيحية وحكم القرآن فى هذه القضية العقيدية وفى معتنقيها والمعتقدين فيها وأوردت شواهد من الإنجيل عن عبودية عيسى وإنسانيته ورسالته وآراء المنصفين من المسيحيين الذين أنكروا هذا التثليث وأثبتت أن التثليث فى العقيدة المسيحية ماهو إلا لون من ألوان الشرك والوثنية وأنه ليس جديداً فى العقيدة المسيحية ولكنه يمتد بجذور عميقة فى أرض العقيدة إلى الوثنية العالمية القديمة فى الهند ومصر وأفريقية وجزيرة العرب .

وعن أبرز نقاط الخلاف بين الإسلام والمسيحية : مسألة صلب المسيح فقررت رأى القرآن فيها واخترت أظهر الآراء التفسيرية لقوله تعالى (يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) .

ثم أوردت ما قرره كاتب مسيحى مصرى محدث من رأى المسيحيين فى الصلب وتبريرهم له وردى على ذلك التبرير .

كما ضممت إلى ذلك الآراء المسيحية المتحررة التى أنكرت الصلب وعابت عليه وعرّضت به وقفيت على ذلك بأن عقيدة الفداء والصلب عقيدة وثنية

وعقدت مقارنات فى هذا المجال بين الديانة البرهمية والهندية والديانة المسيحية أثبتت فيها أن تلك العقيدة فى المسيحية مردها إلى العقيدة الوثنية والديانة البرهمية التى سبقت المسيحية بأجيال وأجيال .

وكانت وقفتى الأخيرة فى هذا المجال عند الزعم القائل بالتجسد فأظهرت ما فى هذا الزعم من تناقض غاب إدراكه عن أصحاب هذه العقيدة فهم يزعمون أن الله تجسد بعد أن نزل من بطن مريم ثم صلب فيكون مبدأ التجسد فى هذا الزعم هو بعد أن نزل من بطن مريم ، وقبل ذلك لم يكن هناك تجسد على أن كتابهم المقدس أثبت التجسيد منذ عهد إبراهيم (كما جاء فى الأصحاح الثامن عشر من سفر التكوين) .

فإذا كان الله — جل وعلا — تجسد زمن إبراهيم أو قبله فأين كانت مريم وكيف تجسد آنئذ ، وإذا كان التجسد زمن مريم فماذا يقولون فى نصوصهم السالفة تلك التى نادت بالتجسد من قبل ؟ ! .

وكان الباب الأخير فى الرسالة عن الدين الذى ارتضاه الله للأناسى إلى يوم الدين : دين الإسلام وعن خصائصه المميزة له : من قرآن خالد خاتم الكتب الإلهية ، ورسول خاتم الأنبياء ، وشريعة خاتمة الشرائع السماوية .

وفصلت القول فى كل منحى من هذه المناحى الثلاث على ضوء ما جاء فى القرآن فعرضت بالشرح والتفصيل اقباساً من حديث القرآن عن القرآن .

وعلقت على ما أراده البعض من تطويع بعض آيات القرآن لتتساوق مع الظواهر العلمية وحكمت بأن هذا العمل مغالاة إذ كتب العقيدة الدينية لا يطلب منها أن تطابق مسائل العلم لا سيا وأن العلوم متطورة تتجدد مع الزمن على سنة التقدم وما من نظرية علمية إلا وهى عرضة للنقد أو النقض فى يوم

ما إذ العلم متطور متجدد لا تقف نظرياته عند حد .

وخلصت إلى أن الهدف القرآني لم يكن علمياً بحتاً ولا ثقافياً محضا ولا اجتماعياً خالصاً ولا اقتصادياً فحسب إنما كان مزيجاً من ذلك كله .

وعرضت في شيء من الإيجاز والتركيز للقرآن من حيث كونه دعوة عالمية ومن حيث سلامته من التغيير والتحريف .

وعن محمد سقت الحديث عنه من القرآن الكريم ، فتحدثت عن دلائل نبوته وعن خاتميته وعن خصائص دعوته .

كما عرضت في إيجاز أيضاً موقف بعض المستشرقين من محمد عليه السلام وتاريخه وسيرته ، ثم علقت على ما ساقه بعض المستشرقين في كتبهم التي أخرجوها عن الإسلام ومحمد والقرآن ، وعن الرمزية في القرآن وعرضت في تفصيل موقف العلماء المسلمين في القديم والحديث من هذه الرموز القرآنية .

ثم ختمت أبحاث الرسالة ببحث جعلت عنوانه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) ففي التوراة والزبور والإنجيل عبارات وإشارات عدها البعض بشارات بمحمد عليه السلام ونحن نقف من هذه العبارات أو الإشارات موقف الحيلة فقمت بعرضها وإثباتها في آخر البحث ، إذ أن الأناجيل في رأينا ورأى الكثيرين غير سليمة وفاقد الشيء لا يعطيه إلا أنها الوقت نفسه قد يوجد بها إثارة من صحة أو إشارة إلى حكمة أو قولة حق . . من أجل ذلك أثبتت هذه الإشارات الدالة على نبوة محمد .

وأخيراً ، فبعد هذه الملامح والزوايا الجديدة والاتجاهات والآراء والمقارنات التي وفقني الله إلى أبرازها والتي استنفدت الكثير من الجهد فإن الأديان في

القرآن بحث واسع متعدد الاتجاهات متباين الآراء لكل دين أصوله ومفاهيمه وأبحاثه العقيدية، ولكل عقيدة أنصارها وخصومها وآراء للأنصار وأباطيل للخصوم وأقوال وأقاويل واتهامات واتجاهات ومع اعترافى بأن البحث العلمى لايعرف الكلمة الأخيرة إلا إنى أقول لعلى بما قدمت فى هذا المجال من جهد وجهد أكون قد وفقت فيما قدمت وما التوفيق إلا من عند الله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

من المصادر . . والمراجع

١ – أديان العرب فى الجاهلية محمد نعمان الجارم مطبعة مصر سنة ١٩٢٣

٢ – إظهار الحق رحمة الله الهندى المطبعة العلمية ١٣١٥هـ

٣ – الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام د . على عبد الواحد وافى مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٤م

٤ – الإسلام دين عام خالد محمد فريد وجدى مطبعة الاعتماد

٥ – الإسلام والعقل د. عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة

٦ – الأصنام أبو المنذر هشام الكلبى تحقيق : أحمد زكى باشا

٧ – الإعلام خير الدين الزركلى المطبعة العربية

٨ – الأمثال فى القرآن محمود بن الشريف دار المعارف . سلسة اقرأ

٩ – التفكير الفلسفى فى الإسلام د. عبد الحليم محمود مكتبة الأنجلو ١٩٦٤

١٠ – الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ابن تيمية -طبعة المدنى (فى جزئين)

١١ – الدعاء فى القرآن محمود بن الشريف دار المعارف . سلسة اقرأ

١٢ – الدين د. محمد عبد الله دراز

١٣ – الساق أحمد فارس الشدياق طبع باريس سنة ١٨٧٥م

١٤ – الشعب الملعون فى القرآن محمود بن الشريف دار الكتب الحديثه

١٥ – الفتاوى محمود شلتوت إدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر

١٦ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل ابن حزم الظاهرى تحقيق : عبد الرحمن خليفة ١٣٤٧هـ

١٧ – الله عباس محمود العقاد دار المعارف

١٨ – المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء محمد محمد المدنى مطبعة مخيمر ١٩٥٧

١٩ – المدخل لدراسة الأديان محمد بن فتح الله بدران مطبعة مخيمر

٢٠ – الملل والنحل الشهرستانى تحقيق : عبد الرحمن خليفه ١٣٤٧هـ

٢١ – النثر الفنى د . زكى مبارك مطبعة دار الكتب المصرية

٢٢ – النهاية ابن الأثير

٢٣ – اليهودية د . أحمد شلبى

٢٤ – اليهودية أنثروبولوجيا د . جمال حمدان دار الكتاب العربى (المكتبة الثقافية)

٢٥ – بلاغة القرآن د . أحمد بدوى نهضة مصر

٢٦ – بين الدين والعلم عبد الرازق نوفل مكتبة وهبة

٢٧ – تاريخ العرب قبل الإسلام د . جواد على مطبعة المجمع العلمى العراقى

٢٨ – تاريخ المسيح أرنست رنان ترجمة فرح أنطون مطبعة اسكندرية

٢٩ – تحفة اللبيب فى الرد على أهل الصليب عبد الله بن الترجمان مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٦ لا هوت

٣٠ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء محمد لطفى جمعه

٣١ – حياة محمد صلى الله عليه وسلم د . محمد حسين هيكل مطبعة مصر ١٣٥٤ هـ

٣٢ — دين الله فى كتب انبيائه محمد صدق

٣٣ — دين الله واحد محمود أبو ريه

٣٤ — زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين د . حامد عبد القادر مكتبة نهضة مصر

سيرة الرسول محمد محمد عزة دروزة

٣٦ — صور من حياة الرسول أمين دويدار دار المعارف

٣٧ — عصر النبي و بيئته قبل البعثة محمد عزة دروزة دار اليقظة بدمشق

٣٨ — قبس الأنوار فى الرد على النصارى والكفار مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٢٢ مجاميع

٣٩ — قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار المكتبة التجارية

٤٠ — قضية الغفران فى المسيحية عوض سمعان النهضة الجديدة بالفجالة ١٩٥١

٤١ — محاضرات فى النصرانية محمد أبو زهرة معهد الدراسات الإسلامية

٤٢ — محمد رسول الله أتين دينه سليمان إبرهيم ترجمة د . عبد الحليم محمود دار المعارف

٤٣ — محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء محمد عبد الغفار الهاشمى مطبعة الشرق

٤٤ — محمد فى التوراة والإنجيل إبراهيم خليل أحمد مكتبة الوعى العربى

٤٥ — مقارنات الأديان محمد أبو زهرة معهد الدراسات الإسلامية

٤٦ — منهج القرآن فى التربية محمد شديد مكتبة الآداب

٤٧ — نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب أبو العباس القلقشندى تحقيق إبراهيم الإبيارى

٣٢٦			
٤٨ – وجيزة المقال فى بيان ملل الضلال	أحمد الدمشقى	مخطوطة بدار الكتب المصرية	

* * *

وصلى الله على خير البرية وخاتم الأنبياء والمرسلين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ؛
والحمد لله رب العالمين .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠



٨٠٠ م